جرجي زيدان

تاريخ التمدن الإسلامي

الجزء الثاني

Marfat.com

تاريخ التمدن الإسلامي

تأليف

جرجي زيدان

منشىء الهلال

الجزء الثاني

يبحث فى ثروة الدولة الاسلامية وثروة رجال حكومتها وخلفائها ، وأسباب تلك الثروة، وأسباب اضمحلالها، وثروة المملكة ومدنها وقراها

طبعة جديدة راجعها وعلق عليها

الدكتور حسين مؤنس

استاذ التاريخ الاسلامى بكلية الآداب بجامعة القاهرة

دار الهلال

Marfat.com

134964

Marfat.com

هـــذا الجزء

ضمن المؤلف المرحوم جرجى زيدان هـــذا الجـــزء من كتـــابه كل المعلومات التى اســـتطاع جمعها بجهده الدءوب من المراجـــع التى كانت فى متنـــاول يده وقت تأليفه . وقد نشرت بعـــد ذلك أصـــول ووثائق عظيمة الأهمية بالنســـبة للموضوع ، من أهمها الوثائق البردية المصرية التى يعدها المســـتشرق ادولف جروهمان وتنشرها دارالكتب المصرية ، وقدصدرت منها أربعة أجزاء بالانجليزية وجزء باللغة العربية، وأصدرتالجمعية المصرية للدراسات التاريخية كتابا بالانجليزية من تأليف جروهمان عنوانه : In the World of Arabic Papyri ضمنه معلومات قيمة خاصة بالنظام المالى لمصر خلال فترة التبعية للخلافة ، ونشر كارل هاينريخ بيكر كراسة عن الضرائب فى مصر الاسلامية ، وظهرت دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الاوروبية ، وفيها مواد داخلة فى صـــميم موضوع هذا الكتاب ، ونشر فيليب حتى ترجمته الانجليزية لفتوح البلدان للبلاذرى ، وعبد العزيز الدورى أبحاثه المسماة « دراسات فى تاريخ العصر العباسى الثانى » وغير ذلك كثير ، فأشرنا الى هذه الابحاث كلها فى تعليقاتنـــا على هذا الجزء (١)

وقد تركت تعليقات المؤلف كما هى ، وهى تشير الى الطبعات التى رجع اليها ، وقد بينها كلها فى الجزء الاول من تاريخ التمـــدن ، وقد رجعت الى طبعات أخرى فى بعض الاحيان ، ولكنى لم أشر اليها الا حيثما كانت هنـــاك زيادة تقتضى الاضافة

ويضم الكتاب مقارنات عظيمة القيمة بين الاحوال المالية فى الدولة العباسية والاحوال المالية للدولة العثمانية وللدولة المصرية فى عصره ، فتركت ذلككله على حاله نظرا لاهمية المعلومات التى يوردها من الناحية التاريخية ، ولم أر أن أستبدل بها معلومات مماثلة عن الاحوال اليوم محافظة على طابع الكتاب ، وان كنت قد سمحت لنفسى بتحويل قيم العملة الى العملة الجارية اليوم لان القارىء لا يعرف الليرة التركية أو الفرنك التركى ، وكانا شائعين فى تلك الايام

والله الموفق

حسين مؤنس

---

(١) التعليقات المؤشر عليها بعلامة (*) ، هى تعليقات المراجع (الدكتور حسين مؤنس) تمييزا لها عن تعليقات المؤلف المشار اليها بالارقام

Marfat.com

مقدمة الطبعة الأولى

فى مثل هذا اليوم من العام الماضى صدر الجزء الاول من هذا الكتاب ، وكان لصدوره تأثير فى عالم الاقلام لاهمية موضوعه وحداثة عهده فى هذا اللسان . فقرظته الصحف وكتبت فيه المقالات الانتقادية ، ووردت الينا كتب الفضلاء من رجال العلم فى مصر وسوريا وأوربا وأمريكا وفارس والهند ، مشحونة بعبارات التنشيط والاستحثاث على المثابرة فى هذا السبيل ، وفيهم من لم يكن يظن تأليف هذا الكتاب ممكنا لقلة المصادر المساعدة على ذلك، فزادنا هذا كله نشاطا واقداما على هذا العمل الجليل

ومن غريب ما اتفق لنا فى أثناء تأليف هذا الكتاب أننا أعلنا عزمنا على تأليفه ونحن لا نتوقع أن يجتمع عندنا من مواده مايزيد على مثل هذا الجزء ، فلما شرعنا فى درس الموضوع والتنقيب عما ينطوى تحته من الابحاث الفلسفية التاريخية مما يتعلق بعوامل التمدن الاسلامى ، انكشف لنا من أحوال ذلك التمدن مالم يكن يخطر بالبال ، فاتسع المجال للقلم فرأينا الموضوع يشغل أربعة أضعاف ماقدرناه . فأصدرنا الجزء الاول وفيه مقدمات تمهيدية عن حال العرب قبل الاسلام الى نهضتهم الاخيرة ، ثم ظهور الاسلام وانتشاره ونشأة الدولة الاسلامية وتواريخ مصالحها وجندها وبيت مالها . وقلنا فى مقدمة ذلك الجزء اننا سننشر بقية الكتاب فى ثلاثة اجزاء اخرى فى مثل حجمه

فلما بدأنا كتابة الجزء الثانى زاد المجال اتساعا ولم يعد يكفى الباقى منه اربعة أو خمسة أجزاء غير هذا ، بحيث تزيد أجزاء الكتاب كلها على ستة او ربما سبعة اجزاء مما لايمكن تحديده الا بعد الفراغ من كتابته .

أما هذا الجزء فموضوعه « ثروة المملكة الاسلامية » وهى ركن عظيم من أركان ذلك التمدن . وقد قسمنا البحث فيها الى « ثروة الدولة الاسلامية » أى ثروة الحكومة ورجالها ، والى «ثروة المملكة الاسلامية » اى ثروة البلاد وأهلها . وبحثنا فى ثروة الدولة بحثا تاريخيا فلسفيا ، فابتدأنا بتاريخ تلك الثروة من أيام النبى فالخلفاء الراشدين فبنى امية فالعباسيين. وبيناالاسباب التى دعت الى تقلب هذه الثروة واختلافها باختلاف تلك الدول ، وعلاقة ذلك بطبيعة كل دولة ونظامها وقوانينها . حتى وصلنا الى ثروة الدولة الاسلامية فى العصر العباسى ، فقسمناه الى عصرين : « الاول » وهو العصر الزاهر ، و « الثانى » وهو عصر الاضمحلال . وفى العصر العباسى الاول نضجت الثروة

وبلغت أوجها ، ففصلنا الكلام فيه تفصيلا وصدرناه بتمهيد فى تاريخ ذلك العصر وماساعد على قيام هذه الدولة ، ثم عمدنا الى النظر فى ثروة الدولة العباسية . وقبل الشروع فيه أتينا بفذلكة فى جغرافية المملكة الاسلامية فى القرن الثالث للهجرة ، شفعناها بخريطة لبيان نسبة الولايات الاسلامية بعضها الى بعض . ثم ذكرنا ثروة العباسيين من أيام السفاح والدولة فى طفولتها حتى بلغت أشدها فى أيام الرشيد والمأمون ، فأتينا بثلاث قوائم مالية عن ارتفاع جبايتها فى أيام المأمون وبعيده ، وقابلنا بينها ، فكان مقدار مايبقى فى بيت مال الحكومة نحو ٣٠٠ مليون درهم فى السنة وهى بقية لم تتفق لدولة من الدول. فعمدنا الى النظر فى أسباب تلك الثروة ، فأفضى ذلك الى النظر فى مصادر الجباية ونفقاتها وأسباب كثرة الخراج وقلة النفقة . فأسباب كثرة الخراج أربعة :

(١) سعة المملكة الاسلامية
(٢) اشتغال الناس فى الزراعة وتعمير البلاد
(٣) ثقل الخراج المضروب
(٤) صدق العمال فى توريد المال المجموع

وأسباب قلة النفقة ثلاثة :

(١) قلة الموظفين
(٢) عدم وجود الدين على الحكومة
(٣) اقتصاد الخلفاء الاولين

ولما فرغنا من الثروة العباسية فى العصر الاول نظرنا فى أحوالها فى عصر الاضمحلال ، وقدمنا الكلام بفصل فى علة ذلك الاضمحلال ثم مقدار الجباية فى ذلك العصر . وبحثنا فى سبب تناقصها فحدا ذلك بنا الى النظر فى أسباب قلة الجباية وكثرة النفقات . وأسباب قلة الجباية خمسة :

(١) ضيق المملكة
(٢) تخفيض الخراج المضروب
(٣) استئثار العمال بالجباية
(٤) انشغال الناس بالفتن عن العمل
(٥) تحول اكثر البلاد الى ضياع (*)

وأسباب كثرة النفقات خمسة أيضا :

(١) اسراف الخلفاء ونسائهم ، وفيه بحث فيما بلغت اليه ثروة نساء الخلفاء

(*) المراد هنا : اقطاعات ، جمع اقطاع

Marfat.com

(٢) كثرة أبواب النفقة فى الدولة

(٣) زيادة الرواتب . وتحت هذا الباب تفصيل عن تاريخ رواتب موظفى الحكومة من العمال والكتاب والوزراء والقضاة، ثم أهل الخلفاء وحاشيتهم فالجند ، ورواتب اخرى

(٤) النفقة على البيعة

(٥) استئثار رجال الدولة بالاموال لانفسهم ، ويتفرع من ذلك بحث عن حال الوزراء فى عصر الاضمحلال وتفشى داء الرشوة فيهم ، ومايجتمع اليهم من الاموال وبيت مال الحكومة فارغ والخلفاء يشكون الفقر ، وما آل اليه ذلك من مصادرة الوزراء وأخذ أموالهم بالقوة ، وبحثنا مثل هذا البحث أيضا فى العمال والكتاب والحجاب ، وختمنا هذا القسم بخلاصة اجمالية للموضوع

ثم عمدنا الى النظر فى القسم الثانى وهو «ثروة المملكة الاسلامية» اى ثروة البلاد وأهلها ، فتكلمنا اجمالا عن حالة البلاد فى ذلك العصر ، وعن اختصاص المدن بالثروة وأسباب انحصارها فى الفئة الحاكمة ومن ينتمى اليهم من اهل الوجاهة والنفوذ وسائر أهل البلاد فى فقر مدقع . وختمنا الكلام بوصف أشهر المدن الاسلامية فى مصر والشام والعراق والمغرب والاندلس ، كالبصرة والكوفة والفسطاط وبغداد وغيرها ، وما بلغت اليه من الثروة والعمران فى عهد ذلك التمدن

ولما صدر الجزء الاول من هذا الكتاب عرف الفضلاء اهمية موضوعه ووعورة مسلكه ، فعمد أرباب الاقلام الى تقريظه وانتقاده فى الجرائد والمجلات فضلا عن الكتب الخاصة ، فرأينا فى مجمل ذلك مانشطنا ، لكننا رأينا لبعضهم انتقادا لمواضع من الكتاب عدها خطأ لانها لا تطابق مايعلمه هو من مصادر هذا الموضوع ، فرددنا عليه وبينا له ان التبعة فى ذلك على قلة ما وصلت اليه يده من تلك المصادر واسندنا كل قول من أقوالنا الى مصدر وثيق أجمع المؤرخون على صحته (١) وقرأنا نحو ذلك الانتقاد فى جرائد أخرى تعجل فيها الكاتب الى الحكم علينا بالخطأ فى بعض المواضع ـ والخطأ فى تعجله ـ لاننا لم ننقل حقيقة تاريخية عن غير الثقات من المؤرخين . وقد أوردنا اكثر أسمائهم فى مقدمة الجزء الاول ، فلو اطلع المنتقدون على تلك المصادر لكفوا أنفسهم مؤونة الانتقاد . وكان قد خطر لنا ونحن نكتب ذلك الجزء أن نذيل صفحاته بالمآخذ التى نقلنا عنها تلك الحقائق ، ولكننا أمسكنا عن ذلك ضنا بصفحات الكتاب لاننا لم نبد رأيا ولا قلنا قولا الا وسندنا فيه كتاب أو عدة كتب ، فالاشارة الى تلك الكتب فى ذيل الصفحات تستغرق جانبا

---

(١) راجع المؤيد عدد ٢٧٥٧ و ٢٧٥٨

Marfat.com

منها . على أننا لو فعلنا ذلك لكفينا أنفسنا وكفينا حضرات المنتقدين مؤونة العناء فى الاخذ والرد بلا طائل

***

وقد توسمنا فى مجمل ماقرأنا من التقاريظ والانتقادات رغبة حضرات الكتاب فى ذكر المصادر ، وكتب الينا جماعة من أهل الفضـــل الغيورين على العلم يستحثوننا على ذلك ، وبينهم بضعة من علماء الهند وفارس نذكر منهم عالما كبيرا من علماء الهند عرف قراء العربية فضـــله من بعض مانشر بينهم من آثار علمه .. نعنى صديقنا شمس العلماء الشيخ شبلى النعمانى ناظر العلوم والفنون فى حيدر أباد الدكن ، فانه من أوسع الناس اطلاعا على التـــاريخ الاسلامى وآدابه . فلما اطلع على الجزء الاول كتب الينا كتابا يســـفر عن تقديره هذا الموضوع حق قدره ، ولـكنه انتقد اغفالنا ذكر المصادر فى ذيول الصفحات ، قال : « استلمت كتاب تاريخ التمدن الاسلامى بغاية الشوق لان موضوع الـكتاب يهمنى بنوع خاص . ولم أعرضه على أحد الا أعجب به غاية الاعجاب ، وظنى أن تأليفكم هذا يترجم الى لساننا الاردو (الهندستانى) ولا شك أنه يقع موقع القبول فى البلاد الاسلامية كلها . ولكننى أنتقد عليكم أمرا لا يسعنى كتمانه ، وهو أن دأبكم فى التأليف انكم تكتفون بذكر مصادر الـكتاب فى أوله اجمالا من غير التزام الاستشهاد فى كل محل وموضوع — وفيه مفاسد كثيرة — منها أننـــا راينا كثيرين من مستشرقى أوربا يذكرون أمورا مهمة من المسائل العلمية أو الاختراعات وينسبونها الى العرب ، فنفتر بذلك ويذهب بنا الفخر كل مذهب ثم اذا راجعنا الاصل وحققنا الامر يظهر أنهم استنوقوا الجمل وما كان هناك شىء يذكر ولا مأثرة تنقل .. لا نقول انهم يتعمدون الـكذب ولـكنهم يغلطون فى الاستنباط . فلو كانوا يذكرون مصادر الرواية ومآخذها لـكان يسهل لنا المراجعـــة اذا مست الحاجة . ومنها أن كتب التواريخ لها مدارج ومراتب ، فما لم تذكر أســـماء الـكتب بالخصوص لايتميز جيد الرواية من رديئها ولا أقواها من اضعفها » اهـ

***

فلما عمدنا الى كتابة هذا الجزء راينا أن نعود الى رأينا الاول فنذيل صفحاته بالمصادر التى اعتمدنا عليها مع تعيين الكتاب والجزء والصفحة . واختصرنا فى ذلك جهد الطاقة ، ضنا بالمكان . ولايخفى مايقتضيه هذا العمل من التدقيق والمراجعة . وفى تقليب صفحات هذا الجزء قبل تصفحها دلالة كافية على مقدار ما بذلنـــاه من العناء فى تأليفه ، وخصوصـــا لانه اول كتاب فى هذا الموضوع كتب على هذا النسق

وليس تاريخ التمدن الاسلامى من الكتب التى يلهو بها العامة للتسلية ،

ولا من الـكتب الفكاهية كالروايات ونحوها . وانما هو موضـوع تاريخى اجتماعى يبين اسباب نشوء المدنية واسباب انحطاطها ، ويتخلل ذلك ابحاث فلسفية فى علاقة تلك الاسباب بعضها ببعض ، وما ينجم عنهـا من العبرة والموعظة ، فهو من الكتب التى يقراها الخاصة اهل الاطلاع . ولم نعمد الى تاليفه الا بعد أن أعددنا أذهان القراء لهذا الموضوع بمانشرناه بين ظهرانيهم من الروايات التاريخية الاسلامية منذ عدة أعوام ، مما تلذ قراءته للخاصة والعامة بما تحويه من الحقائق التاريخية فى سياق الحكاية الغرامية . فلما تهيأت الاذهان ولمسنا عند القراء شوقا الى مطالعة التاريخ الاسلامى ، عمدنا الى تأليف هذا الـكتاب وهو تاريخ الاسلام الحقيقى ، لان تاريخ الامة لايقوم بسرد حروبها وفتوحها ، وانما هو تاريخ نشوئها وتنظيم حكومتها وتاريخ ثروتها وعلومها وآدابها ونظامها الاجتماعى ومصيرها ، أو هو تاريخ تمدنها . ولنا فيما بسطناه من وعورة هذا المسلك عذر على ما قد يعتور مشروعنا من النقص . والـكمال لله وحده

Marfat.com

ظواهر التمدن وحقيقته

لخصنا فى الجزء الاول من هذا الكتاب نشأة الدولة الاسلامية وتاريخ مصالحها الادارية والسياسية والمالية تمهيدا للنظر فى تمدنها • ولكل تمدن ظواهر يبدو بها للناظرين وحقيقة تنجلى منه للباحثين • أما الظواهر فهى ما نراه من ثمار ذلك التمدن كالثروة والابهة والعلم والادب والصناعة والتجارة ونظام الهيئة الاجتماعية وآدابها • وأما حقيقة التمدن فهى ما ينتج عنه من الخير أو الشر ، من السعادة أو الشقاء للمستظلين بظله أوسواهم من بنى الانسان • ومن ظواهر التمدن الاسلامى الثروة والعلم والادب والصناعة والتجارة ، ونظام الهيئة الاجتماعية وآدابها • وسنحصر بحثنا فى هذا الجزء فى ثروة المملكة الاسلامية دون سواها

والبحث فى ثروة المملكة يقتضى النظر فى مصادر تلك الثروة وأسبابها وأوجهها باعتبار الدول والعصور والنظر فى ثروة كل عصر مع دراسة ما اذا كانت الثروة مفرقة بين الاهالى أو محصورة فى فئة منهم أو فى الحكومة أو فى رجالها ، ودراسة ما يتصل بذلك من وصف ثروة المدن والابنية وغيرها

ومعلوم أن المملكة الاسلامية بلغت أوجها من الغنى والثروة فى العصر العباسى • فلو كان غرضنا مجرد وصف تلك الثروة لاكتفينا بالاشارة الى مقدار ما كان يحمل الى بيت المال من الجبايات ، وما كان عليه الخلفاء وأتباعهم من الغنى والبذخ وعددنا موارد الثروة ومصادرها ـ ولكننا عولنا منذ أخذنا فى تأليف هذا الكتاب أن نسند كل حادث الى أسبابه ، بالبحث عن العلل الحقيقية وتتبع الاسباب الى أصولها وعلاقة ذلك كله بالمجموع العام ، مع اعتبار الاحوال واختلافها باختلاف العصور

والمملكة الاسلامية (*) عند التخصيص هى غير الدولة الاسلامية ، لأن هذه

(*) « المملكة الاسلامية » مصطلح يستعمله بعض جغرافيى العرب وكذلك بعض مؤرخيهم (مثل ابن مسكويه فى تجارب الامم) فى معنى العالم الاسلامى • ويستعمل بعضهم ديار الاسلام أو دار الاسلام أو بلاد الاسلام ، ولكن تعبير مملكة الاسلام أغلب • وهم لا يستعملون لفظ « مملكة » فى معنى « بلاد » أو « عالم » فيما يتصل بالاسلام فقط ، بل يستعملونه استعمالا عاما ، فالاصطخرى مثلا يقول : مملكة ايرانشهر (العالم الايرانى) ومملكة الروم (العالم البيزنطى) ومملكة الهند ومملكة الصين • وفى تحديد المراد بلفظ مملكة يقول أبو اسحاق محمد بن ابراهيم الاصطخرى : « ولم نذكر بلد السودان فى المغرب والبجة والزنج ومن فى اعراضهم من الامم ، لان انتظام الممالك بالديانات والآداب والحكم وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة ، وهؤلاء مهملون لهذه الخصال ، ولاحظ لهم فى شىء من ذلك فيستحقوا به افراد ممالكهم بما ذكرنا به سائر الممالك .. » أى أن المملكة هى العالم الذى تنشأ فيه حضارة وينتشر دين وتقوم دولة ونظام

اما الدولة فى المصطلح الحديث فهى الحكومة ، وفى هذا المعنى استعملها المؤلف هنا ، وفى

Marfat.com

عبارة عن الحكومة ورجالها ، وأما المملكة فهى البلاد وأهلها • فيحسن والحالة هذه أن نقسم الكلام فى الثروة المذكورة الى : ثروة الدولة الاسلامية ، وثروة المملكة الاسلامية ــ ونتكلم فى كل منهما باعتبار العصور المتقدم ذكرها

وبناء على ذلك سنجعل الكلام فى ثروة الدولة الاسلاميةباعتبار العصور، فنبدأ بعصر النبى (صلعم) ، فالخلفاء الراشدين ، فبنىأمية ، فالعباسيين• ونقسم كل عصر الى أبواب : بعضها للبحث فى ثروة الحكومة أو بيت المال ، والبعض الآخر للبحث فى ثروة رجال الحكومة ، وما يستلزمه ذلك من النظر فى أسباب تلك الثروة وعلة كثرتها أو قلتها ، وتاريخالخراج والجزيةوغيرهما وأبواب النفقة وغير ذلك

وبناء على ذلك نقول ان ثروة الدولة الاسلامية مرت فى خمسة أدوار أو عصور وهى : (١) عصر النبى (صلعم) (٢) عصر الخلفاء الراشدين(٣) عصر بنى أمية (٤) عصر العباسيين الاول أو عصر الازدهار العبـــاسى (٥) عصر العباسيين الثانى أو عصر الاضمحلال • أما الدول الاسلامية الاخرى فىمصر والاندلس وغيرهما فالكلام فى ثروتها يأتى عرضا بطريق الاســـتشهاد أو التمثيل ، لان المراد بالتمدن الاسلامى انما هو التمدن العباسى الشهير (*)

المصطلح القديم هى القوة والسطوة والسلطان أو صاحب هذه الصفات أو البيت الذى يتمتع بها ، فيقال : دولة عبد الملك بن مروان ، ودولة صلاح الدين ، والدولة الاموية ، والدولة الفاطمية ، وما الى ذلك ، وتطلق أيضا على المنطقة التى يشملها نفوذ صـــاحب الدولة أو أصحابها ، فدولة صلاح الدين تعنى أيضا البلاد التى كان يحكمها ، والدولة الاموية هى البلاد التى دخلت فى طاعتها ، ومن هنا أيضا قيل : دولة الاسلام ، بمعنى البلاد التى يسودها الاسلام، ودولة النصرانية أى البلاد التى تسودها النصرانية ، فى معنى يقارب معنى « المملكة » . واستعمال لفظ « دولة » فى كتب التاريخ الاسلامى غير دقيق ، لان المؤرخين ظلوا مقيدين بالمعنى اللغوى واشتقاق دولة من دال يدول

انظر : الاصطخرى (طبعة دى خويه) ص ٤ ــ ٥

ابن مسكويه (طبعة امدروز) ج ٥ ص ٥٥٣ ــ ٥٥٤

وقد آثر المؤلف هنا أن يأخذ بالمعنى الحديث للفظ الدولة ، وجرى على ذلك فى تقسيمه

(*) كان هذا هو المفهوم عامة على أيام المؤلف ، لان المعلومات عن غير الدولة العباسية كانت قليلة ، أما الآن فلدينا من التفاصيل ما يمكننا من القول بأن بغداد لم تكن المركز الوحيـــد لحضارة الاسلام ، وأن حضارتها لا تعين الاوج الحضارى الاسلامى فى كل ناحية ، فبغـــداد لا تمثل العمارة الاسلامية ، وانما تمثلها القاهرة وقرطبة وغرناطة والاستانة ، وما من قمة من قمم الحضارة الاســلامية الا شاركت بغداد فيها عاصمة أو أكثر من عواصم العالم الاسلامى

Marfat.com

ثروة الدولة الإسلامية

١ـ عصر النبى

من سنة ١ ـ ١١ هـ

اذا كان المراد بثروة الدولة ما يزيد من دخلها على خرجهـا أو ما تختزنه بعد نفقاتها من الاموال ونحوها ، فالدولة الاسلامية فى عصر النبى لم يكن عندها ثروة حقيقية ، لانهم لم يكونوا يختزنون مالا ولاكان عندهم بيت‌مال، بل كانوا اذا أصابوا غنيمة فرقوها فيما بينهم • وكذلك الصدقات فانهـا كانت تفرق فى أهلها ، واذا ظل منها شىء استبقوه لحين الحاجة اليه • وكان النبى (صلعم) يتولى ذلك بنفسه ، وأكثر الصدقات من الماشـية والابل والخيل ، فكان يسمها بميسم خاص بها تمتاز به عن سواها

فكانت ثروة الدولة فى عصر النبى عبارة عن بقايا الزكاة من ابل أو خيل أو ماشية ، وتمتاز عن أموال سائر الناس بمراع خاصة كانت تحبس فيها بالبقيع قرب المدينة يعبرون عنها بالحمى (١) وبميسم كان النبى نفسه يسمها به (٢) وبلغت الاموال فى أيام النبى نحو ٤٠ر٠٠٠بين ابل وخيل وغيرها(٣) ومن هذه الاموال وما يلحق بها من مال الصـدقة النقد كانوا ينفقون عـلى غزواتهم وعلى تحصيل الزكاة واعالة الفقراء ونحوهم (*)

---

(١) الماوردى ١٧٦ (٢) البخارى ١٩٠ ج ١ (٣) شرح الموطأ (خط)

(*) نشـأت فكرة « المال العام » فى الاسلام عقب هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة مباشرة . ففى الكتاب الذى كتبه رسول الله بين المهاجرين ووادع فيه اليهود فقرة تدل على نشوء هذه الفكرة : « .. وان المؤمنين لا يتركون مفرحا (مدينا) بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل » و « ان المؤمنين يبىء بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله » و « أن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم » وغير ذلك (راجع ابن هشام ، طبعـة الحلبى ج ٢ ص ١٤٧ ـ ١٥٠) وهى عبارات يفهم منها أن المال العام اذذاك كان مال المسلمين كافة : الجماعة كلها تقوم بالنفقات العامة ، والقادرون من أفراد الجماعة يعينون غير القادرين ، وقد كان هذا مطبقا بصورة عملية . أما فكرة مال خاص بحكومة الجماعة يكون تحت تصرف رئيسها (رسول الله) فلم تنشأ الا بعد بدء الغزوات . وفى السرايا السابقة على بدر كانت الغنائم قليلة ، وكانت تفرق فى الحال ، أما بعد بدر فقد اجتمع للمسلمين مال كثير ، بعضه جمال وماشية وبعضه أشياء ذات قيمة وبعضه مال دفعه الاسرى ، وقد أحصى ذلك كله ووضع فى أمان ، فأما الابل والماشية فوضعت فى المرعى المسمى بالحمى ، وأما المال فيغلب أن رسول الله احتفظ به فى بيوت بعض أزواجه ووضعه تحت تصرف الجماعة الاسلامية

ثم فرضت الزكاة ، وكانت تجمع « من الصغير والكبير والحر والعبد والذكر والانثى ، صاع من تمر أو صاع من شعير أو صاع من زبيب » (ابن سعد ٢ / ١٣) أو قيمة ذلك من المال، وكان الجانب الاكبر من المجموع يفرق فى الفقراء ويستخدم فى مطالب الجماعة المختلفة وخاصة فى اعداد الغزوات . وكان رسول الله يفرق بين ماله ومال الجماعة تفريقا واضحا جدا ، فكان فى يوم الاضحى مثلا يذبح كبشين : واحدا « عن امتى جميعا ، من شهد لك بالتوحيد وشهد لى بالبلاغ » وواحدا عن نفسه وآله : « هذا عن محمد وآل محمد » (نفس المصـدر ، ص ١٤)

Marfat.com

٢ ــ عصر الخلفاء الراشدين
من سنة ١١ ــ ٤١ هـ

هذا هو عصر الاسلام الذهبى ، عصر العدل والتقوى. كانت الحكومة جارية فيه على سنن العدل والاستقامة والغيرة الحقيقية على الدين ونبذ الدنيا ، وهو العصر الذى اتخذه المسلمون منوالا ينسجون عليه ، وكلما حادت دولة من دولهم عن جادة الحق طلبوا اليها الرجوع اليه والسـير على خطوات الخلفاء الراشدين . لان الحكومة انتقلت بعدهم الى طور جديد وانقلبت من الخلافة الدينية الى الملك السياسى ، ونشأت فى الخلفاء والعمال المطامع وأخذوا فى حشد الاموال بأية وسيلة كانت

بيت المال

توفى النبى والمسلمون هم رجال الحكومة والجند ، ولم يكن عندهم بيت مال للاسباب التى قدمناها ، ولم يكونوا يتطلبون المال الا لقضاء الحاجات ، وكان أكثر مايرد عليهم منه ماشيةوحنطةوخيلا ونحو ذلك من أموالالصدقة والغنيمة وكانت النقود قليلة بين أيديهم . فلما فتحوا الشام وفارسومصر ، وردت عليهم الاموال ذهبا وفضة فأدهشتهم كثرتها وتنبهوا لها ــ يقال ان أبا هريرة قدم على عمر بن الخطاب من البحرين بمال وفير فقال له عمر : « بم جئت ؟ » قال : « بخمسمائة ألف درهم » فاستكثره عمر وقال : « أتدرى ما تقول ؟ » قال : « نعم .. مئة ألف خمس مرات » فصعد عمر المنبر وقال : « أيها الناس قد جاءنا مال كثير ، فان شئتم كلنا لكم كيلا وان شئتم عددنا لكم عدا » (١) وكان ذلك من جملة مادعاه الى وضع الديوان وفرض العطاء لكل واحد من المسلمين باعتبار السابقة والقرابة من النبى ، ولكنه نهى عن اختزان المال فقال له قائل : « يا أمير المؤمنين ، لو تركت فى بيوت الاموالشيئا يكون عدةلحادث اذا حدث » فزجره عمر وقال له : « تلك كلمة ألقاها الشيطان على فيك وقانى الله شرها ، وهى فتنة لمن بعدى . انى لا أعد للحادث الذى يحدث سوى طاعة الله ورسوله ، وهى عدتنا التى بلغنا بها ما بلغنا » (٢)

ويبدو أن رسول الله قد جمع هذه الاموال كلها وجعل عليها بلالا ، فقد جاء فى ابن سعد فى خبر وفد سعد هذيم : « فأمر بنا فأنزلنا وضيفنا ، فأقمنا ثلاثا ، ثم جئناه نودعه ، فقال : امروا عليكم أحدكم ، وأمر بلالا فأجازنا بأوان من فضة ورجعنا الى قومنا » (ابن سعد ٢ / ٩٤) . والغالب أيضا أن أبابكر كان قواما على الاموال ، فقد قعد بعد وفاة الرسول يؤدى للناس ما على الرسول . وليس لدينا دليل على أن رسول الله كان يسجل الاموال فى ديوان ولو أن هذا هو الاغلب ، فقد كان منظما دقيقا ، لا تدخل قبيلة فى الاسلام الا كتب لها كتابا بما عليها ، ومن يفعل هذا يستبعد ألا يكون قد سجل الدخل والخرج فى كتاب . غير اننا نستبعد صحة ما ذكره مالك فى الموطأ من أن الاموال بلغت على أيام الرسول ٤٠٠٠٠ ما بين ابل وخيل وغيرها

(١) المقريزى ٩٢ ج ١ (٢) ابن الاثير ٢٤٨ ج ٢ والفخرى ٧٥

فلما كثرت الاموال فى ايام عمر ووضع الديوان (*) فرض الرواتب للعمال والقضاة ومنع ادخار المالوحرم على المسلمين (**) اقتناء الضياع والزراعة او المزرعة (١) لان ارزاقهم وارزاق عيالهم تدفع لهم من بيت المال حتى الى عبيدهم ومواليهم ــ اراد بذلك أن يبقوا جندا على اهبة الرحيل لا يمنعهم انتظار الزرع ولا يقعدهم الترف والقصف . فاذا اسلم احد من اهل الذمة سكان البلاد الاصليين صار ما كان فى يده من الارض وداره الى اصحابه من أهل قريته ، تفرق فيهم وهميؤدون عنها ما كانيؤدى من خراجهاويسلمون اليه ماله ورقيقه وحيوانه ويفرضون له راتبـــا فى الديوان مثل ســـائر المسلمين (٢) (***)

والغرض الذى كان يرمى اليه عمر من هــذه القاعدة أن يبقى اهل الذمة وارضهم مصدرا للمال الذى يحتاج اليه المسلمون فى اتمام الجهاد ووقفـــا لمصالحهم مدى الدهور . أما اذا اشترى المسلمون الضياع فانهم يستقلون بنفعها دون سواهم ، ولا تمضى بضعة أجيال حتى تصير أملاكا خاصـــة

(*) ينبغى التفريق بين « الديوان » بصورة عامة وديوان المال . فالديوان لم يكن أول الامر الا سجلا أو سجلات تدون فيها البيانات الخاصة بهذه أو تلك من نواحى الادارة ، فديوان الجند هو سجل الجند المقيدين الذين تجب عليهم الخدمة العسكرية وما يستحق لهم منالعطاء والرزق ، وديوان الاموال تقيد فيه الاموال وما الى ذلك . بل كانت هناك دواوين أموال ، لكل ولاية اسلامية ديوان خاص بأموالها . ويذهب فلهاوزن الى أن مال الدولة كان يسمى أولا مال الله ثم سمى بعد ذلك مال المسلمين ، ولا محل لهذه التفرقة ، لان المصطلحين ظلا يستعملان جنبا الى جنب ، ويذهب كذلك الى أن ديوان المال حل محل بيت المال ، وهذا غير صحيح ، لان بيت المال ظل قائما الى جانب ديوان المال ، لان بيت المال هو خزانة ــ أو خزائن ــ المال ، وكان الخليفة يحتفظ به فى داره ، أما ديوان المال ، فالادارة الخاصة بتسجيل الدخل والخرج ، ولم يكن فى بيت الخليفة ، وانما كان الغالب أن يكون فى بيت الوزير
Wellhausen Das Arabische Reich und sein Sturtz. S. 28 sqq.

(**) الاصح أن يقال هنا ، انه حرم علىالعرب ذلك لا على المسلمين عامة

(١) المقريزى ٢٥٩ ج ٢ (٢) ابن عساكر (نسخة كريمر)

(***) الكلام هنا لا يطابق مايقول به غير ابن عساكر من المؤرخين،ويبدو أنالامر اختلط عليه ، اذ أن القاعدة كانت انه اذا أسلم الذمى وضع عنه ما كان مقررا على أرضه من الخراج وعلى رأسه من الجزية وحمل على بقية الجماعة الذمية التى ينتسب اليها . لان مقاديرالخراج والجزية على كل ناحية جملة واحدة بالاتفاق مع أهلها ، ولم يحدد فى الاتفاقات ما ينبغى أن يدفعه كل فرد من افراد الجماعة ، فاذا أسلم أحد افرادها أو توفى أو ترهب كان على الجماعة أن تحل محله فى الاداء . وقد كان ذلك محل شكوى الكثيرين من اهالى النواحى ، وانتهى الامر باسقاط ما عليه جملة واستنزاله من الجملة . فاذا اسلم الذمى سقط عن ارضه الخراج واصبح ملزما بأداء قيمة عشر المحصول بالاضافة الى الزكاة . ولم يكونوا يفرضون للذمى الذى يسلم فى الديوان الا اذا سجل نفسه فى ديوان الجند

انظر : ابو يوسف القاضى فى كتاب الخراج ، ص ٦٤ وما يليها

الشافعى فى كتاب الام ، ج ٤ ص ٨٢ ومايليها

Caetani, Annali dell'Islam, A. H. 21 paragraphe 235

بهم (١) (*) وعمر يريد ان يبقيها محبوسة على آخر هـذه الامة من المسلمين المجاهدين قوة على جهاد من لم يظهروا عليه بعد من المشركين ، لا تباع ولا تورث لمـا ألزموه أنفسهم من اقامة فريضة الجهاد (٢) وايد هذه القـاعدة عمر بن عبد العزيز الاموى وكان يقلد ابن الخطاب فى كل خطواته فقـال : « أيما ذمى أسلم فان اسلامه يحرز له نفسه وماله ، وما كان من ارض فانها من فىء الله على المسلمين ، وأيما قوم صالحوا على جزية يعطونها ، فمن أسلم منهم كانت داره وأرضـه لبقيتهم » (٣) (**) فترتب على ذلك ونحوه ترفع المسلمين عن سائر الاعمال من تجارة أو صناعة أو نحوهما

ثروة الخلفاء وعمالهم

علمت مما تقدم أن الراشدين لم يكونوا يلتمسون ثروة . فلما توفى أبوبكر لم يجدوا عنده من مال الدولة الا دينارا واحداسقط من غرارة (٤) لانه كان يفرق كل ما يجتمع عنده على السواء لا ينظر الى مصلحة نفسه ، بل هو انفق كل ما كان عنده من المال قبل اسلامه ، وذلك اربعون الف درهم غير ما اكتسبه من التجارة ، لانه كان يتجر ليستعين على النفقة ، ثم فرضوا له مالا معينا من مال المسلمين لينفقه على نفسه وعياله،لئلا يشتغل بالتجارة عن النظر فى مصالحهم . فلما دنا أجله أوصى ان تباع ارض كانت له ويدفع ثمنها بدلا مما أخذه من مال المسلمين (٥) وكانعنده ثوبان أوصى انيكفن بهما

---

(١) كتاب الخراج لابى يوسف ١٤

(*) اذا اشترى مسلم من مسلم أرضا صارت ملكا كاملا له ، ويؤدى عنها العشر ، أما اذا اشتراها من ذمى ظلت رقبتها ملكا للجماعة الاسلامية ، وله حق استغلالها والتصرف فيهـا بالبيع والتوريث ، وما الى ذلك ، وعليه أن يؤدى عنها الخراج ، لانها أرض خراج وصاحبها يعد من أهل الخراج ، ولهذا كره العرب شراء هذه الارض ، لانه ينزلهم الى مستوى اهل الخراج ، وقد كره الائمة ذلك

انظر : ابو يوسف : الخراج (القاهرة ١٣٤٧) ص ٥٤ وما يليها

(٢) ابن عساكر (٣) المقريزى ٧٧ ج ١

(**) هذا يخالف ما ذكره ابو يوسف فى كتاب الخراج (ص ٦٢ ــ ٦٣) ، تحت عنوان : « فى قوم من أهل الحرب واهل البادية على ارضـهم واموالهم » ، قال ابو يوسـف : « سـألت يا أمير المؤمنين عن قوم من أهل الحرب اسلموا على انفسهم واموالهم وارضهم ، ما الحكم فى ذلك ؟ فان دماءهم حرام وما اسلموا عليه من أموالهم فلهم ، وكذلك ارضهم لهم ، وهى ارض عشرية بمنزلة المدينة حيث اسلم اهلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت ارضهم أرض عشر ... لا يخرجون عنها فيما بعد ويتبايعونها ، وكذلك كل بلاد اسلم عليها اهلها فهى لهم وما فيها ، وايما قوم صالحهم الامام على أن ينزلوا على الحكم والقسم وان يؤدوا الخراج فهم اهل ذمة ارضهم أرض خراج ، ويؤخذ منهم ما صولحوا عليه ويوفى لهم ولا يزاد عليهم . وايما ارض افتتحها الامام عنوة فقسمها بين الذين افتتحوها ، فان راى ذلك افضل ، فهو فى سعة من ذلك ، وهى ارض عشر ، وان لم ير قسمتها ورأى الصلاح فى اقرارها فى أيدى اهلها ، كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى ارض السواد ، فله ذلك ، وهى ارض خراج ، وليس له ان يأخذها بعد ذلك منهم ، وهى ملك لهم يتوارثونها ويتبايعونها ، ويضع عليها الخراج ، ولا يكلفون من ذلك ما لا يطيقون »

(٤) ابن الاثير ٢٠٤ ج ٢ (٥) ابن الاثير ٢٠٧ ج ٢

واخبـــار عمر بن الخطاب فى الزهد والنزاهة أشهر من أن تذكر . ويقال بالاجمال انه مؤسس دولة المسلمين ، وقد اسسها على أمتن دعائم الملك ــ اسسها على العدل والتقوى والزهد والاستهلاك فى نصرة الحق مما ينـــدر اجتماعه فى رجل واحد وقد يوهم لغرابته أنه من قبيل المبالغـــة . ويسهل علينا التصديق به اذا تذكرنا النتائج التى ترتبت على تلك المنـــاقب مما لم يسمع بمثله فىالتاريخ ــ يكفى منها تلك الفتوح التى جعلت الاموال تنصب نحو بيتالمال فىالمدينة كما ينصب الماء من الميازيب ، وعمر مع ذلك لايلتفت اليه ولا يأخذ منه الا مافرضه لنفسه كسائر الصحابة الاولين . وكان اذا احتاج الى مال فوق راتبه جاء الى بيت المال فاستقرضه حتى يفيه اياه من عطائه فيما بعد (١) ولما طعن وأحس بدنو الاجل قال لابنه : « انى استلفت من بيت مال المسلمين ثمانين ألفا فلترد من مال ولدى فان لم يف مالهم فمال آل الخطاب » (٢) وزهده فى الطعام واللباس مشهور

ويقال نحو ذلك فى الامام على فقد كان مغاليا فى الزهـــد والعدل . ومن اقواله : « تزوجت بفاطمة ومالى فراش الا جلد كبش ، ننـــام عليه بالليل ونعلق عليه ناضحنا بالنهار ، ومالى خادم غيرها » . وجاءه فى أيام خلافته مال من أصبهان فقسمه على سبعة أسهم ، فوجد فيه رغيفا فقسمه على سبعة أسهم ودعا أمراء الاسباع فأقرع بينهم لينظر أيهم يعطى أولا . ولم يبن آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ، وكان يأتى بحبوبه من المدينة فى جراب . وقيل انه أخرج سيفا له الى السوق فباعه وقال : « لو كان عندى أربعة دراهم ثمن أزرار لم أبعه » ومناقبه لاتحصى(٣)

***

وقد ساعد الخلفاء الراشدين على تأييد العـــدل والحق أن عمالهم كان أكثرهم من أهل التقوى وحسن الاعتقاد فى الاسلام . فكان عمر اذا اكتسب أحد عماله مالا من تجارة أو سبيل آخر غير عطائه المفروض له قاسمه عليه وهو لايرى فى ذلك غبنا ــ كذلك فعل بسعد بن ابى وقاص عامله على الكوفة، وعمرو بن العاص عامله على مصر ، وأبى هريرة عامله على البحرين (٤) وغيرهم

ولا غرابة فى ذلك ، لان العامل اذا رأى خليفته زاهدا تقيا يمنع نفســـه من كل شىء ، ويستهلك فى مصلحة الامة فانه يقتدى به ولو كان ذلك مخالفا لرأيه . على أن الخليفة نفسه لا يولى أعماله الا من يكون على رأيه وخلقه ، وخصوصا عمر فقد كان شديدا على العمال يتفقدهم كل سنة ، ويعزلهم لاقل تهمة ــ ذكر انه استعمل على حمص رجلا اسمه عمير بن سعد ، فلما انقضت

---

(١) ابن الاثير ٢٩ جـ ٣
(٢) اليعقوبى ١٨٣ جـ ٣
(٣) ابن الاثير ٢٠٢ جـ ٣
(٤) اليعقوبى ١٨١ جـ ٢

السنة كتب اليه : « اقدم الينا » فلم يشعر عمر الا وقد قدم اليه الرجل ماشيا حافيا عكازه فى يده ، واداوته ومزوده وقصعته على ظهره ، فلما رآه عمر قال : « يا عمير اأجبتنا ام البلاد بلاد سوء ؟ » فقال : « يا امير المؤمنين أما نهاك الله أن تجهر بالسوء وعن سوء الظن ؟ وقد جئت اليك بالدنيا اجرها بقرابها » فقال : « وما معك من الدنيا ؟ » قال : « عكازة اتوكأ عليها وادفع بها عدوا ان لقيته ، ومزود احمل به طعامى » فقال : « ما صنعت بعملك يا عمير ؟ » قال : « اخذت الابل من اهل الابل ، والجزية من اهل الذمة ، ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل . فوالله يا امير المؤمنين لو بقى عندى منها شىء لاتيتك به » فقال له : « عد الى عملك » (١)

***

ولابد لنا مع ذلك من ان نقف هنيهة للنظر فى أمر يفتقر الى تفسير . قلنا ان عمر لم يكن يختزن مالا ونهى عن اختزانه ، فلو كانت الاموال التى ترد الى بيت المال تفرق على السواء كما كانت تفرق الغنائم فى ايام النبى وأبى بكر لهان عليه أن لا يختزن ، ولكنه فرض اعطية معينة يتناولونها كل عام . ونعلم ايضا أن الاموال زادت كثيرا فى ايامه بما انضم اليهم من الاعمال بالفتح ، وكلها تؤدى الخراج والجزية فضلا عما يلحق بيت المال من الغنائم ـ فما الذى كان يفعله عمر بما يفيض من تلك الاموال بعد دفع الاعطية المذكورة ؟ يظهر أنه كان يفرقه فى أهل الحاجة أو لعله كان يستبقى بعضه على أن يفرقه ، ولا يعد ذلك اختزانا لإنه انما منع الاختزان للحرب

اقتناء المسلمين للاموال

على ان رأى عمر بعدم اختزان المال ينافى المبدأ الاساسى الذى تقام عليه الدول وتتأيد به السلطات ، لان اختزان الاموال من ضروريات الملك . ولكن المسلمين الاولين لم يكونوا يعدون الخلافة ملكا سياسيا ، ولذلك لم تطل مدتهم الا ريثما انقضى عصر النبوة وزالت دهشتها ، فعاد الناس الى فطرتهم وتسابقوا الى حشد الاموال والاستئثار بالسلطة

وقد باشروا ذلك فى ايام عثمان بن عفان (سنة ٢٣ ـ ٣٥ هـ) لانه لم يكن شديدا مثل عمر وكان مع ذلك أمويا ، فاعتز الامويون به وأرادوا أن يعيدوا لأنفسهم السلطة التى كانت لهم فى الجاهلية ، وكان بنو هاشم قد سلبوهم اياها بعد الاسلام لأن النبى منهم ، فأخذ عثمان يولى الاعمال رجالا من اقربائه وفيهم من لم يعتنق الاسلام الا يأسا من فوزه على المسلمين . وكثرت فى ايامه الفتوح وفاضت الغنائم فكان يستخص أهله منها باكثر من سائر الصحابة ، كما فعل بغنائم افريقية سنة ٢٧ هـ فان المسلمين حاربوها

---

(١) المستطرف ٩١ ج ١

وعليهم عبد الله بن سعد (أخو عثمان من الرضاع) فبلغت غنائمهم منهـــا ٢ر٥٠٠ر٠٠٠ دينار أعطى خمسها الى مروان بن الحكم وزوجه ابنتـــه (١) وكان هذا الخمس من حقوق بيت المال . وأبطل عثمان محاسـبة العمال لانهم من أهله فازدادوا طمعا فى حشد الاموال لانفسهم ، وخصوصا معاوية ابن ابى سفيان عامله على الشام وهو أكثرهم دهاء وأبعدهم مطمعا ، فـكان فى مقدمة الذين ابطلوا قاعـــدة عمر فى منع المسلمين من الزرع واتخـــاذ الضياع ونحوها (*)

وكيفية ذلك ان المسلمين لما فتحوا الشام وأقروا الارض فى أيدى اصحابها ، كان جانب كبير منها ملكا للبطارقة قواد جند الروم ، فلما غلبت الروم وفر البطارقة أو قتلوا ظلت ضياعهم سائبة لا مالك لها فأوقفها المسلمون على بيت المال ، فكان العمال يقبلونها كما يقبل الرجل ضيعته (أى يضمنها) ويضيفون دخلها الى بيت المال . فلما استقر معاوية على ولاية الشام واقتدى بالروم فى البذخ واتخاذ الحاشية لم يعد راتبه يكفيه ، ورأى من عثمان ضعفا وميلا فكتب اليه أن الذى أجراه عليه من الرزق فى عمله لا يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الأجناد ورسل أمرائهم ومن رسل الروم ووفودهم ، ووصف فى كتابه هذه المزارع وأن لا مالك لها وليست هى من قرى أهل الذمة ولا الخراج وسأله أن يقطعه اياها (٢) . وكان عمر قد جعل لمعاوية على عمله فى الشـــام راتبـــا مقداره ألف دينار فى السنة (٣) وهو كثير بالنظر الى رواتب العمال فى تلك الايام . فلما طلب من عثمان أن يقطعه تلك الضياع أجابه الى طلبه فوضع يده عليها وجعلها حبسا على فقراء أهل بيته ، فجراه ذلك على التمادى فى اقتناء الارض وبيعها فى أيام خلافته والاذن للمسلمين فى ذلك

واقتدى بمعاوية غيره من العمال وسائر الصحابة ، فاقتنوا الضياع والعقار وفيهم جماعة من كبار الصحابة مثل طلحة والزبير وسعد ويعلى وغيرهم ، وزادت أموالهم وظهر الغنى فيهم حتى عثمان نفسه فانه اقتنى الضياع الكثيرة واختزن الاموال ، فوجدوا عند خازنه بعد موته ١٥٠ ٠٠٠ دينار و١ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرهما ١٠٠ ٠٠٠ دينار ، وخلف

---

(١) اليعقوبى ١٩١ ج ٢

(*) المؤلف يتابع هنا اليعقوبى المؤرخ الجغرافى ، وكان شيعى الميول ، ولهذا فقد أسرف فى الحملة على عثمان بن عفان وبنى أمية . والحقيقة أن معظم ما ترويه كتب التاريخ عن افساد عثمان لمنهج عمر ومحاباته لبنى أمية واطلاق أيديهم فى الاموال انما هو مبالغات أسرف فيها الشيعة من ناحية واستحبها غير الشيعة من المؤرخين بدافع الاسف على ما أصاب عليا وأبناءه من بعده ، ويرجع معظمها الى أيام الفتنة الكبرى أيام عثمان ، مثال ذلك ما يقال من أن عثمان أعطى خمس أموال افريقية لمروان بن الحكم وآل بيته ، فهى دعوى غير صحيحة ابتكرها عبدالله ابن الزبير ، وكان اذذاك شابا منافسا لعبدالله بن سعد بن أبى سرح . وليس لدينا من أخبار حملة عبدالله بن سعد بن أبى سرح على افريقية ما يؤيد هذه الدعوى

(٢) ابن عساكر (خطـ) (٣) المقريزى ٩٥ جـ ١

Marfat.com

خيلا وابلا (١) والظاهر ان عثمان اندفع الى تسهيل الثروة على المسلمين بما زاد عنده من الاموال ، واغراه اهله وخصوصا معاوية ، ثم صار امتلاك العقار مألوفا شائعا

ومن أسباب شيوع الاملاك بين المسلمين أن عثمان أقطع هو وخلفاؤه بعض الارض مما لم يتعين مالكوه على أن يدفعوا شيئا لبيت المال فى مقابل الايجار أو الضمان كما تقدم . فلما حصلت فتنة الاشعث سنة ٨٢ هـ حرق الديوان وضاعت السجلات فأخذ كل قوم مايليهم (٢)

على أن المسلمين لم يكونوا راضين عن اعمال معاوية فى هذا الشأن ، لانه لم يساو بينهم فيه فنقموا عليه وخصوصا الفقهاء ورجال التقوى . وفى حكاية أبى ذر الغفارى ما يغنى عن البيان . فقد كان هذا الرجل مغاليا فى التمسك بقاعدة عمر ، وكان يرى « ان المسلم لاينبغى له أن يكون فى ملكه أكثر من قوت يومه وليلته أو شىء ينفقه فى سبيل الله أو يعده لكريم » (٣) وكان يقوم فى الشام ويقول : « يا معشر الاغنياء ، واسوا الفقراء . بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » . وما زال يقول ذلك ويكرره حتى ولع الفقراء بقوله وأوجبوه على الاغنياء . فشكا الاغنياء الى معاوية ما يلقون منهم ، وكان معاوية يشكو أمر من شكايتهم لان أبا ذر وبخه غير مرة لاختزانه المال ، ومما قاله له على أثر بنائه قصر الخضراء فى دمشق وقد سأله معاوية : « كيف ترى هذا ؟ » فقال أبو ذر : « ان كنت بنيته من مال الله فأنت من الخائنين ، وان كنت بنيته من مالك فانك من المسرفين » (٤) فعظم ذلك على معاوية فأراد أن يوقعه فى ما يوجب محاكمته فبعث اليه بألف دينار أراد أن يغره بها ثم يتهمه باكتناز المال . فلما وصلت الدنانير الى ابى ذر فرقها حالا مع انها وصلته ليلا ، وجاءه رسول معاوية فى الصباح يزعم أنه دفع المال اليه خطأ وان معاوية يطلبه فأخبره أنه أنفقه فى ساعته . فلم ير معاوية سبيلا الى اتهامه بالفتنة فكتب الى عثمان : « انك أفسدت الشام على نفسك بأبى ذر » فكتب اليه : « أحمله على قتب بغير وطاء » (٥) فلما جاء المدينة حاكمه عثمان فلم يرهب سلطانه وجاهر بما يراه من جشع بنى امية وخروجهم من الحق . فأخرجه عثمان من المدينة الى الربذة بالعنف وظل هناك حتى مات . فنقم المسلمون بموته على عثمان فى جملة ما نقموه عليه الى مقتله (*)

---

(١) المسعودى ٣٠١ جـ ١ (٢) الماوردى ١٨٣ (٣) ابن الاثير ٥٥ جـ ٣
(٤) ابن الفقيه ١٥٦ (٥) اليعقوبى ١٩٩ جـ ٢

(*) ينبغى أن تؤخذ أخبار أبى ذر الغفارى بكثير من الحذر ، فقد استعمل خصوم عثمان وبنى أمية اسمه فيما وضعوه فيما بعد من اخبار . وكذلك بعده الصوفية أول متصوف فى الاسلام ويحكون عن زهده وتعرضه لاذى الحكام فى سبيل الله قصصا طويلا معظمه موضوع . والاخبار التى يرويها عنه اليعقوبى مشكوك فى صحتها الى حد كبير

ابن سعد : الطبقات (طبعة سخاو) ١٦١/٤ ابن حجر العسقلانى : الاصابة ، ١١٦/٤
اليعقوبى : تاريخ ، طبعة هوتسما ، ١٩٩/٢ ابن الاثير : اسد الغابة ، ١٨٦/٥

فلما قتل عثمان سنة ٣٥ هـ وقامت الفتنـــة فى الخلافة وأرادها معاوية لنفسـه ، رأى بين دعاتها من هم أحق بها منه نسبا وسابقة ، فاحتال اليها بالمال فازدادت رغبته فى الاستكثار منه لبذله فى انشاء الاحزاب ــ ولا غرو فان المال قوة تتحول الى ما شئته من القوى ، وهو منـــذ القـــدم مرجع المشروعات العظمى ، ولا يزال حتى اليوم المحور الذى تدور عليه سياسة العالم المتمدن . فما من حرب أو سلم أو محالفة أو معاهدة وما من فتح أو حصار الا والمحرك عليه أو الداعى اليـــه « المـــال » ــ وكذلك فعل معاوية فاستخدم بالمال جماعة من دهاة العرب نصروه بالدهاء والسيف ، حتى أفضت الخلافة اليه بعد واقعة صفين ولكنها لم تصف له الا بعد مقتل على (٤٠ هـ) وتنازل الحسن له عنها والناس مع ذلك يعلمون أن معاوية انما فاز ببذل المال حتى قال زين العابدين ابن حفيد الامام على : « ان عليا كان يقاتله معاوية بذهبه » (١) وسار بنو أمية على خطوات معاوية فى ذلك ، فجعلوا المال أكبر نصير لهم على دعاة الخلافة من بنى هاشم وعلى الخوارج وغيرهم ، فجرهم ذلك الى الاستكثار منه بأى وسيلة كانت كما سيأتى

فالثروة فى عصر الراشدين كانت محرمة على المسلمين ، ولكن تحريمها لم يبق طويلا ، لان بقاءه يقتضى بقاء عمر بن الخطاب ، أو من يكون فى مثل مناقبه وتقواه مع بقاء العرب على الفطرة البدوية مما يخالف نواميس العمران . فلذلك لم يكد يختلط العرب بالروم والفرس حتى تاقت نفوسهم الى الترف وحشد الاموال وزادهم ميلا الى ذلك رغبة بنى أمية فى الاستكثار منها(*) . فانقضى عصر

---

(١) المقريزى ٤٣٩ ج ٢

(*) اشارة المؤلف هذه تضع يد القارىء على سبب من أكبر أسباب انتصار بنى أمية فى الصراع السياسى الذى نشب من منتصف خلافة عثمان ، فان الخلاف بين عثمان ورعيته لم يكن خلافا على مبادىء ، ولكن عثمان كان يريد أن يسير فى اتجاه عمر ، اتجاه التقشف والتشدد والصرامة ، وتجاهل الثروة الطائلة التى صارت للمسلمين . كان عثمان يمثل هذا الاتجاه ، أو يريد أن يمثله ، ولكن قواه لم تكن تعينه عليه ، فقد كان شيخا عالى السن ، وكان فيه رفق ولين ، وواجهته معارضة شديدة تزعمها نفر من الصحابة ، وقد زادت معارضتهم حتى أصبحت تحديا صريحا فخرج الكثير من كبار القرشيين الى الامصار وعاشوا فيها فى ترف وانتشرت فى الحجاز ألوان من الترف والاقبال على الدنيا ، رغم جهود عثمان ، فاتهمه نفر من متشددى الصحابة بالضعف والتساهل ، ونادوا بضرورة التزام السيرة الاولى ، وتزعم ذلك النفر على بن أبى طالب ، وضاق الخناق على عثمان واشتد النقد عليه ، وثقلت عليه وطأة على ومن معه واحتاج لمن ينصره فتصدى لذلك أهله بنو أمية ، وأصبح النزاع شيئا فشيئا بين بنى هاشم فى ناحية وبنى أمية فى ناحية أخرى . بنو هاشم ينادون بالسيرة الاولى وبنو أمية يجارون التيار العام ويتألفون الناس بالجرى وراء نزعاتهم ومطامعهم ، فكثر جمعهم ، وضعفت جبهة على ومن معه ، لا عن قلة ايمان به ، بل لانه كان ينادى بشىء شديد على الطبيعة البشرية ، ويريد أن يوقف السير الطبيعى للعمران ، فأخذوا يتقاعسون عن نصرته وينفضون منه ، وانتهى الامر بانتصار معاوية ، لا بالمال وحده بل لانه كان يمثل الاتجاه الاسهل ، الاتجاه الاكثر اتفاقا مع الطبيعة البشرية

انظر عن وصف حالة المجتمع الاسلامى فى ذلك العصر : الطبرى ج ٥ ص ١٣٤ وما يليها
وطه حسين : الفتنة الكبرى ، عثمان ، القاهرة ١٩٤٨ وعلى وبنوه ، القاهرة ١٩٥٣

Marfat.com

الراشدين ولم ير المسلمون مثله بعده ، وظل ابوبكر وعمرمضرب امثال القوم قرونا متطاولة ، اذا اعوج حاكم او خليفة طلبوا اليه ان يقتدى بهما ، وخصوصا عمر فقد كانوا يحاولون التشبه بعدله وحزمه وشدته فى الحق ، حتى ان اشهر عمال بنى امية ظلما ودهاء ارادوا الاقتداء به فى ذلك ، فتهوروا وانقلب فيهم الى الظلم والعسف ــ يقال ان زياد ابن ابيه اراد ان يتشبه بعمر بن الخطاب فى ضبط الامور والحزم والصرامة واقامة السياسات الا انه اسرف وتجاوز الحد ، ثم اراد الحجاج بن يوسف أن يتشبه بزياد فأهلك ودمر (١)

٣ ــ عصر بنى أمية

من سنة ٤١ ــ ١٣٢ هـ

تمتاز دولة بنى أمية عن دولة الراشدين بأن السلطة تحولت فيها من الخلافة الدينية الى الملك السياسى . وتمتاز عن الدولة العباسية بأنها عربية بحتة شديدة التعصب للعرب كثيرة الاحتقار لسواهم . ولذلك فان أهل الذمة وغيرهم من سكان البلاد الاصليين قاسوا من خلفاء بنى امية ومن عمالهم الامور الصعاب ، حتى الذين أسلموا منهم فان العرب كانوا يعاملونهم معاملة العبيد وكانوا يسمونهم : « الموالى » ، ويعدون أنفسهم ذوى احسان عليهم لانهم انقذوهم من الكفر ، واذا صلوا خلفهم فى المسجد حسبوا ذلك تواضعا لله . وكان بعض العرب اذا مرت به جنازة مسلمة قال : « من هذا ؟ » فاذا قالوا : « قرشى » قال : « واقوماه ! » واذا قالوا : « عربى » قال : « وابلدتاه ! » واذا قالوا : « مولى » قال : « هو مال الله يأخذ ماشاء ويدع ماشاء » . وكانوا يحرمون الموالى من الكنى ولا يدعونهم الا بالاسماء والالقاب . ولا يمشون فى الصف معهم (٢) وكانوا يسمونهم العلوج . وفى كتاب الموالى للجاحظ ان الحجاج لما قبض على الموالى الذين حاربوا مع ابن الاشعث اراد أن يفرقهم حتى لايجتمعوا ، فنقش على يد كل واحد منهم اسم البلدة التى وجهه اليها . وقد تولى ذلك النقش رجل من بنى عجل فقال الشاعر :

وأنت من نقش العجلى راحته وفر شيخك حتى عاد بالحكم (٣)

وسنعود الى تفصيل ذلك فى الكلام عن نظام الهيئة الاجتماعية فى المملكة الاسلامية فى جزء آخر من هذا الكتاب ، وانما اشرنا الى ذلك هنا لبيان مقدار

---

(١) ابن خلكان ١٢٤ ج ١
(٢) العقد الفريد ٧٣ ج ٢
(٣) العقد ٧٤ ج ٢

134964

Marfat.com

تعصب العرب فى دولة بنى امية على غير العرب ولو كانوا مسلمين (*)

وكان من جملة نتائج تعصب بنى امية للعرب واحتقارهم سائر الامم انهم اعتبروا أهل البلاد التى فتحوها وما يملكون رزقا حلالا لهم — يدل على ذلك قول سعيد بن العاص عامل العراق: «ما السواد الابستان قريش، ماشئنا أخذنا منه وما شئنا تركناه » (١) وقول عمرو بن العاص لصاحب «اخنا» لما سأله عن مقدار ما عليهم من الجزية فقال عمرو : « انما أنتم خزانة لنا ، ان كثر علينا كثرنا عليكم وان خف عنا خففنا عنكم » (٢) فاتخذوا ذلك ونحوه ذريعة للاستيلاء على ماشاءوا من أموال الناس ، وقد جرأهم على ذلك معاوية اذ جعل بعض الاعمال طعمة لبعض عماله والبعض الآخر ضمنه بمال زهيد . فعل ذلك فى بادىء الرأى ترغيبا لهم فى نصرته ، ثم توالت عليه وعلى من خلفه من بنى امية الحروب مع أحزاب بنى هاشم والخوارج وغيرهم ، فاضطروا الى الاستكثار من الاموال ولا سبيل الى جمعها الا بالخراج والجزية من أهل البلاد ، فاستخدموا من العمال من يثقون باقتدارهم على جمع الاموال فضلا عن الحرب . واشد اولئك العمال وطأة الحجاج بن يوسف عامل عبد الملك على العراق . واحتاج عبد الملك الى مقاومة جماعة من مناظريه على الخلافة ، وفيهم عبد الله بن الزبير فى مكة ، والمختار بن أبى عبيد فى العراق ، وغيرهما ، فوكل ذلك الى الحجاج وأمثاله فاستخدموا العنف فى تحصيل الاموال بحق وبغير حق (٣) (**)

(*) كان هذا هو الرأى السائد عن بنى أمية ، ولكن البحث الدقيق يبين أن بنى أمية لم يكونوا بهذه العصبية للعرب ، وأن الكثيرين من الفاتحين ورجال الدولة على أيامهم كانوا من الموالى مثل موسى بن نصير وطارق بن زياد وقتيبة بن مسلم وغيرهم ، بل لم يكن عامة العرب بهذا الاحتقار للموالى ، وكل ما يرويه أبو العباس المبرد فى الكامل وابن عبد ربه فى العقد الفريد مبالغ فيه ، وجدير بالملاحظة أن هذين المؤلفين كانا من الموالى . وقد ألف فى هذا الموضوع الاستاذ عبد الوهاب النجار كتاب « الموالى فى عصر بنى أمية » القاهرة ١٩٤٨ ولكنه تابع الاتجاه القديم الغالب على كتب التاريخ الاسلامى ، وكتب فيه أيضا فان فلوتن وحمل على العرب حملة شديدة وتابعه معظم المؤرخين المحدثين فى الشرق والغرب ، ما عدا يوليوس فلهاوزن فله اتجاه خاص معتدل بعض الشىء . والموضوع كله فى حاجة الى دراسة جديدة

(١) الاغانى ٣٠ جـ ١١ (٢) المقريزى ٧٧ جـ ١ (٣) ابن الاثير ١٠ جـ ٥ ، وكتاب الخراج لابى يوسف ٦٢

(**) هذا أيضا من قبيل الاسراف فى الحملة على بنى أمية ، وقد زادت واتسع المجال لها أيام العباسيين . فأما قول سعيد بن العاص أن السواد بستان قريش فقد أعترض على ذلك العرب أنفسهم ، وحاسبوا سعيد بن العاص عليه حسابا عسيرا ، وقد أنكره عليه معاوية ابن أبى سفيان ، وأما كلمة عمرو بن العاص فلا ينبغى النظر اليها منفردة ، بل فى النطاق العام لسياسة عمرو فى مصر ، فقد طلب اليه عامل « اخنا » أن يحدد مقدارا ثابتا للجباية يجمع كل عام ، فرفض عمرو ، وقال انه يجبى بحسب ما تطلب الخلافة منه ، « ان كثر علينا كثرنا عليكم ، وان خفف علينا خففنا عنكم » . والواقع أن الضرائب كانت معتدلة جدا فى أيام بنى امية ، والحجاج نفسه لم يضع ضريبة جديدة وان كان قد اشتد فى جمع الخراج ، وهو لم يشتد على الموالى فقط بل على العرب أيضا . وكان أعداء بنى امية هم الذين ينادون بالتشديد على الموالى واختصاص العرب بمعاملة خاصة ، خذ مثلا سياسة مصعب بن الزبير فى العراق واسرافه فى احتجان الاموال وارسال الكثير منها الى أخيه عبدالله فى المدينة ، ثم بخل هذا الاخير وضنه بالقليل على العرب ، أما المختار بن أبى عبيدالله فلم تكن له سياسة ولا خطة ، وانما كان طالب سلطان ، ولم تعرف الدولة الاسلامية المكوس والجبايات غير الشرعية أيام بنى امية على أى حال ، بل أيام العباسيين

Marfat.com

اجور العمال

وكان عمال بنى امية يجورون على اصـــحاب الارض من اهل الذمة فى التحصيل ونحوه ، لا يهمهم بقى لهم من المحصول شىء ام لا . وكان الخراج يومئذ على المساحة ، فيؤخذ على الارض مال معين زرعت أم لم تزرع ، وكان من شروط الخراج ان يستبقى لاصـــحاب الارض ما يجبرون به النـوائب والحوائج . ومما يحكى أن الحجاج كتب الى عبـد الملك بن مروان يستأذنه فى اخذ تلك البقية منهم فأجابه : « لا تكن على درهمك المأخوذ احرص منك على درهمك المتروك ، وابق لهم لحوما يعقدون بها شحوما (١)

والظاهر أن الضغط على اهل القرى واصحاب الارض حمل بعضـــهم على الاسلام احتماء به فأصبحوا من الموالى ، فلم يمنع ذلك تحصيل الخراج والجزية منهم فألزمهم الحجاج (٢) الخراج مع انهم تنـــازلوا عن مغارسهم لاهلهم وغادروا القرى وســـكنوا الامصار فرارا من تلك الضرائب ، فأمر الحجاج بردهم وطالبهم بالخـراج لان المســـلمين كانوا الى ذلك الحـين لا يقيمون الا فى المـــدن التى بنوها هم . واهـــل البـــلاد الاصـــليون يقيمون فى القرى للزرع والحرث ، فمن أعتنق منهم الاســـلام رفع الخراج عن راسه ، وصار ما كان فى يده من الارض وداره الى أصحابه ، يؤدون عنها ما كان يؤدى من الخراج كما تقدم ، وينزل هو الى الأمصار كالكوفة والبصرة والفسطاط . ففعل ذلك فى أيام الحجاج جماعة كبيرة ، ربما التمسوا به النجاة من الضغط فاذا هو ملاقيهم . وكتب الحجاج الى الأمصار : « ان من كان له اصل فى قرية فليرجع اليها لتؤخذ منه الجزية والخراج » ، ففعل ذلك فى أيام ابن الاشعث فخرج الناس وهم يبكون وينادون : «يامحمداه ! يامحمداه ! » ولايدرون الى أين يذهبون، فاضطروا الى الانضمام للاشعث على الحجاج (٣)(*)

---

(١) الماوردى ١٤٣ (٢) ابن خلكان ٢٧٧ جـ ٢ (٣) ابن الاثير ٢٢٥ جـ ٤

(*) أساء العرب جملة الحكم على أعمال الحجاج واتهموه بالظلم والاجحاف فى جمع الضرائب، مع أن الرجل لم يفعل اكثر من التدقيق فى جمع المستحق للدولة ، وهذا بيان عن مبالغ خراج العراق الى أواخر أيام بنى امية لتوضيح هذه الناحية :

المهد	مقدار الجباية بالدراهم
عمر بن الخطاب	... ... ١٢٠
عبيدالله بن زياد	... ... ١٢٥
الحجاج بن يوسف	... ... ١٨٨
عمر بن عبد العزيز	... ... ١٢٠
عمر بن هبيرة	... ... ١٠٠ (سوى الاعطية والارزاق)
يوسف بن عمر	... ... ١٠٠

ويتضح من ذلك أن الحجاج لم يزد على سابقه الا ٣٣ مليون درهم أى مقدار الربع ، فهو لم يضاعف الضرائب اذن . ثم ان الثابت انه لم يستحدث شيئا من المكوس ، وانما جاءت الزيادة من أنه كان يعلن للدولة كل ما يجمعه لان شعوره كحاكم كان شعورا كاملا ، وكان رجلا نزيها من هذه الناحية . وقد نقص مقدار الجباية أيام عمر بن عبد العزيز لانه انتهج نهجا جديدا ، ثم انه لم يكن اداريا حازما ، ثم هبطت الجباية بعد ذلك بسبب فساد ذمة العمال

Marfat.com

ولم تكن تلك المعاملة خاصة بالحجـاج من عمالهم ، فقـد فعل مثله أيضا يزيد بن أبى مسلم عامل يزيد بن عبد الملك على أفريقيـة (١) وكذلك فعـل الجراح فى خراسـان (٢) وغيره فيما وراء النهر (٣) وكان أهل سمرقنـد قد اسـلموا على أن ترفع الجـزية عنهم ، فظلوا يأخذونهـا منهم فعادوا الى دينهم (*)

أما النصارى وغيرهم من اهل الذمة الذين ظلوا على دينهم فيكفى فى تمثيل حالهم اعتبار ما تقدم من معاملة الذين أسلموا منهم ، فكانوا يسومونهم العذاب فى تحصيل الجزية . ورأى هؤلاء أن اعتناق الاسلام لا ينجيهم من ذلك ، فعمد بعضهم الى التلبس بثوب الرهبنة لأن الرهبان لا جزية عليهم . فأدرك العمال غرضهم من ذلك فوضعوا الجزية على الرهبان ، وأول من فعل ذلك منهم عبد العزيز بن مروان عامل مصر فأمر باحصاء الرهبان ، وفرض على كل راهب دينارا (٤) وهى أول جزية أخذت من الرهبان . وأمثال هذه الحوادث كثيرة فى تاريخ بنى أمية

***

ولم يكن ذلك كل مااقترفوه فى سبيل جمع المال ، فانهم زادوا الخراج عما كان عليه فى أيام الراشدين ــ بدأوا بذلك من أيام معاوية فأراد أن يزيد قيراطا ، فكتب الى وردان مولى عمرو بن العاص أمير مصر أن : « زد على كل امرىء من القبط قيراطا » فكتب اليه : « كيف أزيد عليهم وفى عهدهم أن لا أزيد عليهم ؟ » (٥) ولعل عمرا لم يطعه فى ذلك لان مصر طعمـة له . فلمـا انتقلت الى خلفاء بنى أمية بعد عمرو زادوا فى الخراج ما شاءوا . وأشهر من فعل ذلك عبيد الله بن الحبحاب متولى الخراج من قبل هشام بن عبدالملك (سنة ١٠٥ ــ ١٢٥ هـ) فانه زاد على القبط قيراطا فى كل دينار (**) فلم يصـبر

---

(١) ابن الاثير ٤٨ جـ ٥ وابن خلكان ٢٧٧ جـ ٢ (٢) ابن الاثير ٢٤ جـ ٥
(٣) ابن الاثير ١١١ جـ ٥
(*) لم أجد فى المراجع ما يؤيد ذلك
(٤) المقريزى ٤٩٢ جـ ٢ (٥) البلاذرى ٢٢٧
(**) يبدو أن المقريزى يبالغ فى هذا الكلام ، ونحن نشك فى أن عمرو بن العاص قد جبى من مصر ... ... ١٢ دينار ، وأن ابن أبى سرح جباها بعد ذلك ١٤ مليونا ثم تهبط الجباية بعد ذلك الى أربعة ملايين فحسب ، وسنناقش ذلك فيما بعد . وانما نكتفى الآن بايراد بيان مقارن لسير الجباية ، بحسب أقوال مؤرخى العرب ، ليرى القارىء أن الزيادة المنسوبة الى رجل كعبد العزيز بن مروان لا تؤيدها الارقام :

المهـد	مقدار الجباية بالدنانير
عمرو بن العاص	... ... ١٢
عبدالله بن سعد بن أبى سرح	... ... ١٤
أسامة بن زيد (خلافة سليمان بن عبدالملك)	... ... ١٢
عبيدالله بن الحبحاب	... ... ٤

والمدة بين اسامة بن زيد وعبيدالله بن الحبحاب لا تزيد على سبع سنوات ، ومن غير المعقول ان يهبط الخراج الى الثلث خلال سبع سنوات ، وعلى أى الاحوال تتضح من هذا البيـان حقيقة ، هى التى نريد ان نثبتها هنا : ان الجباية كانت فى تناقص أيام بنى أمية ، ولم تكن فى زيادة ، فأين ذهب اذن المال الذى كان يجبى بالعسف ، وأين ضريبة الرهبان ؟

Marfat.com

القبط على ذلك وكانوا لا يزالون هم السواد الاعظم ، فثاروا فحاربهم المسلمون وقتلوا منهم جمعا كبيرا . وحدث نحو ذلك على يد اسامة بن زيد التنوخى متولى الخراج فانه اوقع فى النصارى واخذ اموالهم . وكثر الالتجاء الى الرهبنة فى أيامه فأراد أن يمنع ذلك لانه يضر فى الخراج والجزية ، فأحصى الديور والرهبان كافة ووسم أيدى الرهبان بحلقة من حديد فيها اسم الراهب واسم الدير وتاريخه ، فكل من وجده بغير وسم قطع يده . والزم كل نصرانى بمنشور يحمله يدل على أنه أدى ما عليه ، وكتب الى العمال بأن من وجد من النصارى وليس معه منشور أن يؤخذ منه عشرة دنانير . ثم كبس الديارات وقبض على عدة من الرهبان بغير وسم ، فضرب اعناق بعضهم وضرب باقيهم حتى ماتوا تحت الضرب (١)

على أن ذلك لم يكن برضى الخليفة ، فلما بلغ هشام بن عبد الملك ذلك كتب الى عامله بمصر أن يجرى النصارى على عوائدهم وما فى أيديهم من العهود . ولم يطل العمل بهذا الامر فعاد العمال الى ظلمهم ، وفى جملتهم حنظلة بن صفوان فانه زاد فى الخراج وأحصى الناس والبهائم ، وجعل على كل نصرانى وسما صورة أسد وتتبعهم فمن وجده بغير وسم قطع يده (٢) . وقس على ذلك أمثلة كثيرة من شدة عمال بنى أمية على أهل الذمة والموالى وغيرهم من العرب

***

ومن أمثلة ما اقترفه بنو امية من زيادة الخراج والجزية ان أهل الجزيرة بالعراق كانت جزيتهم دينارا ، ومدين قمحا ، وقسطين زيتا ، وقسطين خلا فى العام . فلما تولى عبد الملك بن مروان استقل ذلك ، فبعث الى عامله فأحصى الجماجم وجعل الناس كلهم عمالا بأيديهم ، وحسب ما يكسب العامل سنته كلها ثم طرح من ذلك نفقته فى طعامه وادمه وكسوته ، وطرح أيام الأعياد فى السنة كلها فوجد الذى يحصل بعد ذلك فى السنة لكل واحد اربعة دنانير ، فألزمهم ذلك جميعا وجعلها طبقة واحدة (٣)

ولم تكن ضرائبهم قاصرة على أهل الذمة والموالى ، ولكنها شملت العرب المسلمين أنفسهم ، وذلك أن محمدا اخا الحجاج بن يوسف لما تولى اليمن اساء السيرة وظلم الرعية ، واخذ اراضى الناس بغير حقها وضرب على أهل اليمن خراجا سماه « الوظيفة » ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز كتب الى عامله هناك بالغاء تلك الوظيفة والاقتصار على العشر (٤)

---

(١) المقريزى ٤٩٢ جـ ٢
(٢) المقريزى ٤٩٣ جـ ٢
(٣) البلاذرى ٧٣
(٤) كتاب الخراج لابى يوسف ٢٤

Marfat.com

وكان عمال بنى امية فى فارس يخرصون الثمار على أهلها ، اى يحزرون مقدارها ، ثم يقومونها بسعر دون سعر الناس الذى يتبايعون به ، فيأخذونها قرفا على قيمتهم التى قدروها (١)

وكان من أساليبهم فى الاستكثار من الأموال ضرب الضرائب على الارض الخراب ، وكانوا يفرضون على الاهالى هدية فى عيد النيروز بلغت فى أيام معاوية ... ... ١٠ درهم (٢) وفرضوا مالا على من يتزوج وعلى من يكتب عرضا (٣) وكانوا يكيلون للعامل بكيل وللأكار بكيل آخر ، ويكلفون اهل الخراج أرزاق العمال ، وأجور المدى وحمولة الطعام ، وثمن صحف وقراطيس ، وأجور الكيالين ومؤونتهم . واذا أتى أحدهم بالدراهم ليؤديها فى خراجه يقتطع الجابى منها طائفة ويقول هذا رواجها وصرفها (٤)

***

ولم يكن عمال بنى امية يأتون هذه الاعمال من عند أنفسهم دائما ، بل كثيرا ما كانوا يفعلونه بأمر خلفائهم كما قد رأيت مما كتبه معاوية الى وردان ، وكان ذلك شأنه فى تحريض عماله على جمع الاموال وهم يخترعون له الطرق للاستكثار منها (٥) وكذلك فعل من جاء بعده وخصوصا عبد الملك ، لانه كان شديد الحاجة الى المال ومناه الله بالحجاج فلم يترك وسيلة فى استخراج المال الا اتخذها . أما لو أراد الخلفاء ابطال هذه المظالم لهان عليهم أبطالها ، لان العمال فى ايام عمر بن الخطاب كانوا يرتكبون مثل ذلك فلا يسكت عمر عنهم . ولما جار عمال الاهواز فى أيامه شكاهم ابو المختار يزيد بن قيس بقصيدة ، بين فيها أرباحهم من أهل الرساتيق والقرى وسماهم فى قصيدته ، وحرض عمر على مقاسمتهم ما ربحوه ، الى ان قال :

فقاسمهم أهلى فداؤك انهم سيرضون ان قاسمتهم منك بالشطر
ولا تدعونى للشهادة اننى اغيب ولكنى أرى عجب الدهر

فبعث عمر اليهم فقاسمهم شطر اموالهم حتى اخذ نعلا وترك نعلا ، ولم يكتف بمقاسمة العمال ولكنه قاسم بعض اخوتهم ، فاعترض هؤلاء فقال احدهم لعمر : « انى لم آل لك شيئا » فقال له : « أخوك على بيت المال وعشور الابلة وهو يعطيك المال تتجر به » فأخذ منه عشرة آلاف (٦)

***

وكانت مشاطرة عمر عماله حجة اتخذها معاوية بعد ذلك فى مشاطرة العمال ،

---

(١) طبقات ابن سعد (عن فان فلوتن)
(٢) اليعقوبى ٢٥٩ جـ ٢
(٣) الطبرى ١٣٦٧ جـ ٢
(٤) كتاب الخراج لابى يوسف ٦٢
(٥) اليعقوبى ٢٥٨ جـ ٢
(٦) البلاذرى ٣٨٥

Marfat.com

فلم يكن يموت له عامل الا شاطر ورثته وهو يقول انها سنة سنها عمر ، ثم تدرج الى استصفاء أموال الرعية ، وهو أول من فعل ذلك (١)

فالعمدة فى حفظ النظام على الرأس ، فاذاصلح صلحت الاعضاء. فقدرأيت أن خلفاء بنى أمية طلبوا المال لقيام دولتهم بأى وسيلة كانت ، فأمدوا العمال بالسلطة واطمعوهم فعمد هؤلاء الى احراز الاموال الى انفسهم أيضا، واقتدى بهم العمال الصغار كالكاتب والجابى ونحوهما ، فزادت شكوى أصحاب الارض فاضطر العمال الى اخراج اعمال الجباية من العرب وتسليمها الى الموالى ، ومنهم الدهاقين أصحاب الضياع فى العراق . فعل ذلك ابن زياد عامل الخراج سنة ٦٤ هـ فعاتبه بعضهم فأجابه : « كنت اذا استعملت العربى كسر الخراج ، فاذا أغرمت عشيرته او طالبته أوغرت صدورهم ، وان تركته تركت مال الله وأنا أعرف مكانه ، فوجدت الدهاقين أبصر بالجباية وأوفى بالأمانة وأوهن بالمطالبة منكم ، مع انى جعلتكم أمناء عليهم لئلا يظلموا أحدا » (٢)

***

وفى كلام القاضى أبى يوسف فى عرض وصيته للرشيد بشأن عمال الخراج ما يبين الطرق التى كان أولئك الصغار يجمعون الأموال بها ، قال : « بلغنى انه قد يكون فى حاشية العامل أو الوالى جماعة ، منهم من له حرمة ومنهم من له اليه وسيلة ليسوا بأبرار ولا صالحين ، يستعين بهم ويوجههم فى أعماله يقتضى بذلك الذمامات فليس يحفظون ما يوكلون بحفظه ولا ينصفون من يعاملونه، انما مذهبهم أخذ شىء من الخراج كان أو من أموال الرعية . ثم انهم يأخذون ذلك كله فيما بلغنى بالعسف والظلم والتعدى ... ويقيمون أهل الخراج فى الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ، ويعلقون عليهم الجرار ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة .. وهذا عظيم عند الله شنيع فى الاسلام (٣)

وكان شأن بنى أمية وعمالهم وجباتهم على نحو ما تقدم حين تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ هـ وكان تقيا منصفا ، فأراد أن يرد الامور الى ما كانت عليه فى أيام سميه وجده لأمه عمر بن الخطاب . فأصدر أوامره الى العمال بأبطال تلك المظالم وعينها بأسمائها مفصلة (٤) وأبطل لعن على على المنابر وكان أهله قد اقتنوا الضياع وأخذوا كثيرا منها من اهل الذمة بغير حق ، ففتح بابه للناس وأعلن : « أن من كانت له ظلامة فليأت » فأتاه المظلومون وفيهم النصارى واليهود والموالى وغيرهم ، ومنهم من يشتكى اختلاس ماله وآخر اغتصاب ضيعته ، وكان ينصفهم بالحق والعدل ولو كان الحكم على ابنه أو

---

(١) ابن الفقيه ١٠٩ (٢) ابن الاثير ٦٩ جـ ٤ (٣) كتاب الخراج ٦١ و ٦٢
(٤) الطبرى ١٣٦٦ جـ ٣ ، وابن الاثير ٢٩ جـ ٥

Marfat.com

اخوته او أبناء عمه . قال ابن الاثير : «وقال عمر بن عبد العزيز لمولاه مزاحم : ان أهلى اقطعونى مالم يكن لى ان آخذه ولا هم ان يعطونيه ، وانى قد هممت برده على أربابه ، قال : فكيف تصنع بولدك ؟ فجرت دموعه وقال : أكلهم الى الله (١) وأخذ أموال أعمامه وأولادهم وسماها « مظالم » (٢) فلما رأى أهله ذلك خافوا على سلطانهم ، وهو انما قام بالمال فاذا خرجت الضياع والأموال من أيديهم ذهب ضياعا ، فمشوا الى عمته فاطمة بنت مروان وشكوه اليها فأتته فقال لها : « ان الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة ولم يبعثه عذابا الى الناس كافة (٣) (*)

ولما رأى الموالى عدله وتقواه اغتنموا الفرصة وشكوا اليه ما يقاسونه من الذل والضغط . وكان الجراح بن عبد الله الحكمى عامل خراسان قد أرسل الى عمر بن عبد العزيز فى الشام وفدا : رجلين من العرب ورجلا من الموالى، فتكلم العربيان والمولى ساكت فقال له عمر : « ما أنت من الوفد؟» قال:« بلى » قال : « فما يمنعك من الكلام ؟» فقال : « يا أمير المؤمنين ، عشرون ألفا من الموالى يغزون بلا عطاء ولا رزق ، ومثلهم قد أسلموا من أهل الذمة يؤخذون بالخراج، وأميرنا عصبى جاف يقوم على منبرنا فيقول : اتيتكم حفيا ، وانا اليوم عصبى . والله لرجل من قومى أحب الى من مائة من غيرهم . وهو بعد سيف من سيوف الحجاج قد عمل بالظلم والعدوان » (٤) فقال عمر : « احر بمثلك أن يوفد » وكتب الى الجراح : « انظر من صلى قبلك فضع عنه الجزية » فرغب الناس فى الاسلام وتسارعوا اليه فقيل للجراح : « ان الناس قد سارعوا الى الاسلام نفورا من الجزية فامتحنهم بالختان » فكتب الجراح الى عمر بذلك فأجابه : « ان الله بعث محمدا داعيا ولم يبعثه خاتنا » (٥)

وفعل عمر نحو ذلك مع عامله على مصر حيان بن شريح ، وكان حيان قد كتب اليه : « أما بعد فان الاسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينار أتممت بها عطاء أهل الديوان ، فان رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل » فكتب اليه : « أما بعد فقد بلغنى كتابك ، وقد وليتك جند مصر وانا عارف ضعفك ، وقد أمرت رسولى بضربك على رأسك عشرين

---

(١) ابن الاثير ٢٩ جـ ٥ (٢) ابن الاثير ٢٩ جـ ٥
(٣) ابن الاثير جـ ٤ ص ١٦٤ (طبعة المطبعة المنيرية ، القاهرة ١٣٥٧)
(*) اكتفى المؤلف بهذا القدر من كلام عمر بن عبد العزيز ، وبقيته ذات أهمية خاصة بالنسبة لبيان التحول فى سياسة الخلفاء كما صورها عمر ، وها هى : « ... ثم اختار له ما عنده ، وترك للناس نهرا شربهم (منه) سواء ، ثم ولى أبو بكر ، فترك النهر على حاله ، ثم ولى عمر فعمل عملهما ، ثم لم يزل النهر يستقى منه يزيد ومروان وعبد الملك ابنه والوليد وسليمان ابنا عبد الملك ، حتى أفضى الامر الى ، وقد يبس النهر الاعظم ، فلم يرو أصحابه حتى يعود الى ما كان عليه » فقالت : « حسبك ، قد أردت كلامك ، فأما اذا كانت مقالتك هذه فلا اذكر شيئا أبدا ، فرجعت اليهم فأخبرتهم كلامه »
(٤) الطبرى ١٣٥٤ جـ ٢ (٥) ابن الاثير ٢٤ جـ ٥

Marfat.com

سوطا • فضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك ، فان الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا ــ ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم فى الاسلام على يديه » (١)

***

وقس على ذلك عماله الآخرين ، فانه عزل من لم يوافقه منهم فأصبحت الدولة ورجالها كلها ضده ، لأنه حاول اصلاح الامور بالعنف دفعة واحدة والطفرة محال • وما فى بنى أمية وعمالهم الا من كره ذلك منه ، فلم يصبروا على خلافته . وانتهت خلافته فى ظروف غامضة سنة ١٠١ هـ (٧٢٠ م) ويعده المؤرخون من الخلفاء الراشدين ، واذا قالوا « العمرين » أرادوه وعمر بن الخطاب (٢)

فترى مما تقدم أن القواعد الاساسية التى قام عليها الاسلام تدعو الى الانصاف والرفق ، ولكن تطبيق هذه القواعد اختلف باختلاف الذين يتولون شؤونها • ولو أتيح لعمر بن عبد العزيز أن يعيدها الى ما كانت عليه فى عهد ابن الخطاب لامحت مظالم بنى أمية ، ولكنه جاء فى غير أوانه فذهب سعيه هدرا • ولما مات عادت الامور الى مجاريها ورافقها رد الفعل فصارت الى أشد مما كانت عليه قبله ، وبالغ العمال فى الاستبداد والعسف وشددوا فى استخراج الخراج وزادوه ، حتى اضطر بعض اصحاب الارض الى الالجاء ، اى ان يلجئوا أراضيهم الى بعض أقارب الخليفة أو العامل تعززا به من جباة الخراج كما سيأتى

أما الخلفاء فانهم زادوا انغماسا فى الترف ، وأولهم يزيد بن عبد الملك فانه انقطع الى اللهو والخمر ، واشتغل عن مصالح الدولة بجاريتيه سلامة وحبابة وحديثهما مشهور (٣) وخلفه أخوه هشام وكان بخيلا ، وفى أيامه زيدت الضرائب فى مصر على يد الحبحاب كما تقدم(*) • وجاء بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك وكان مثل أبيه فى اللهو والخمر فقتله أهله وولوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ١٢٦ هـ ، وكان عازما على اصلاح الامور اقتداء بعمر بن عبد العزيز ، كما يؤخذ من خطاب ألقاه عند مبايعته (٤) فأصابه من الفشل نحو ما اصاب عمر

---

(١) المقريزى ٧٨ جـ ١ (٢) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ص ١٥٥

(٣) انظر الفخرى : الآداب السلطانية (طبعة محمود توفيق الكتبى ، القاهرة ص ٩٥)

(*) وضعت دراسات جديدة عن هشام بن عبد الملك بن مروان وسياسته المالية ، ونخص بالذكر منها كتاب Gabrieli, Il Califatto de Hisham II. Alessandria 1930
وقد ذهب فيه الى أن بخل هشام لم يكن مجرد تقتير ، بل سياسة مالية ترجع الى اهتمام الامويين عادة بالشئون المالية وبراعتهم فيها

(٤) ابن الاثير ٣١٧ جـ ٥

لان الاحوال كانت غير ملائمة . وفى ايام خلفه مروان بن محمد تغلب بنـــو العباس وصارت الخلافة اليهم

وكان بنو أمية قد انغمسوا فى الترف واللهو والخمر ، وأصبحوا لاينظرون الى ما يؤيد سلطانهم ولايبالون فى انتقاء عمالهم ، وربما ولوا العامل عملا باشارة جارية أو مكافأة على هدية كما فعل هشام بن عبدالملك بالجنيد بن عبدالرحمن . وكان الجنيد قد أهدى امرأة هشام قلادة من جوهر فأعجبت هشـــاما فأهدى هشاما قلادة اخرى فولاه هشام على خراسان سنة ١١١ هـ (١) وبلغ ثمن الجارية فى أيام بنى أمية ... ١٠٠٠ درهم وهى الذلفاء (٢) واصبح العمال لاهم لهم الا حشد الاموال والاستكثار من الصنائع والموالى ، ولم يعـد أهل العدل يرضون بولاية الاعمال مخافة أن يقصروا بالمال الذى يطلبه الخلفاء، كما حدث ليزيد بن المهلب لما ولاه سليمان بن عبـد الملك العراق ، فقال يزيد فى نفسه : « ان العراق قد أخربها الحجاج وأنا اليوم رجاء أهـل العـراق ، ومتى قدمتها وأخذت الناس بالخراج وعذبتهم عليه صرت كالحجاج ، ادخـل على الناس الحرب وأعيد عليهم تلك السجون التى قد عافاهم الله منها ، ومتى لم آت سليمان بمثل ما جاء به الحجاج لم يقبل منى » (٣) وقس على ذلك رأى غيره ممن يؤثرون الرفق . فلم يرغب فى الولايات الا أهل المطامع . وجعل الخلفاء من الجهة الاخرى يطمعونهم بالرواتب الفادحة ، فبلغ رزق يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق فى أواخر ايام بنى أمية ... ٦٠٠ درهم (٤) وكان العمـــال يبذلون جهدهم فى اختزان الاموال لانفسهم لعلمهم أن الولاية غير ثابتة لهم . فكثرت أموالهم واتسعت ثروتهم فبلغت غلة خالد القسرى أمير العراق فى ايام هشام ... ... ١٣ درهم (٥) أى نحو مليون دينـــار . فأصبح الخلفاء لا يعزلون عاملا عن عمله الا حاسبوه على ماعنده من المال ، وكانوا فى أيام معاوية يشاطرون العمال اقتداء بعمر بن الخطاب . ثم صاروا يحاكمونهم ويستخرجون كل ما تصل اليه معرفتهم من أموالهم ، كما فعلوا بخالد القسرى اذ وشى به كاتبه حيان النبطى انه فرق ... ٣٦٠٠٠ درهم ، فبعث هشام اليه من أخـرج معظم هذا المال منه ومن عماله (٦) ويسمون هذا العمل « استخراجا » وكانوا يستخدمون الشدة فيه فوقع بين العمال والخلفاء تنافر زاد الخطر على دولة بنى امية

أما ارتفاع الدولة الاسلامية فى أيام بنى امية ، أى مقدار ماكان يجتمع لهم

---

(١) ابن الاثير ٧٢ جـ ٥ (٢) أعلام الناس ٣٥

(٣) الطبرى ١٣٠٦ جـ ٢ (٤) ابن خلكان ٢٨١ جـ ٢

(٥) ابن خلدون ٩٦ جـ ٣ (٦) اليعقوبى ٢٨٨ جـ ٢ وابن الاثير ١٠٤ جـ ٥

Marfat.com

من الخراج والجزية وغيرهما ، فقد ضاع تفصيله فى جملة ماضاع من اخبارهم فى الفتن . على أن المملكة الاسلامية بلغت فى أيامهم اتساعاعظيما يعدلاتساعها فى أيام العباسيين ، ولكن عمدتهم كانت على العراق والجزيرة والشام ومصر . وأما الاطراف فقد كان خراجها يذهب بين العمال والكتاب والجباة . على ان كثيرا منها لم يكن يدفع شيئا يستحق الذكر لان قدم الامويين لم تكن راسخة فيها

***

واختلفت جباية العراق والشام ومصر باختلاف السنين والعمال ، وقد فصلنا ذلك فى الجزء الاول من هذا الكتاب وخلاصته ان متوسط جباية العراق فى أيامهم نحو ... ... ١٣٠ درهم وجباية مصر ... ٤٠٠٠ دينار (أو ... ... ٤٨ درهم) وجباية الشام ... ١٧٢٠ دينار (أو ... ... ٢٠ درهم) فيكون ارتفاع هذه البلاد نحو ... ١٩٨٠٠٠ درهم يضاف اليه أموال البلاد الاخرى مما لا نعرف مقداره

وخلاصة ماتقدم أن الاموال كانت تستخرج فى ايام بنى امية بكثرة ،ولكنها لا تسمى ثروة لانها كانت تصرف فى الحروب لتأييد شوكتهم . فقد حاربوا عليا ، والحسين بن على ، والمختار بن أبى عبيد ، وعبد الله بن الزبير ، وحاربوا الخوارج وغيرهم ، ناهيك بما كان يقوم من الفتن بين القبائل العربية اليمنية والمضرية وبين العرب والموالى ، فضلاعما كان ينفقه الخلفاء والامراء فى البذخ واللهو والقصف

٤ ــ الدولة العباسية

للدولة العباسية عصران ، يختلف أحدهما عن الآخر اختلافا عظيما : العصر الاول وهو ما يعبرون عنه بالعصر الزاهر ، يمتد من أول نشأة هذه الدولة سنة ١٣٢ هـ الى آخر ايام المأمون سنة ٢١٨ هـ ، وفيه بلغت الدولة العباسية قمة مجدها وانشأت التمدن الذى نحن فى صدده ، وفيه أدركت ثروة الدولة الاسلامية اعظم مابلغت اليه فى عصر من العصور ، وعليها مدار الكلام فى هذا الكتاب

والعصر الثانى ، ويعبرون عنه بعصر التقهقر أو الاضمحلال ، يبتدىء بخلافة المعتصم سنة ٢١٨ هـ وينقضى بانقضاء الدولة العباسية من بغداد ، وفيه تقهقر التمدن الاسلامى وقلت الثروة وضعفت الدولة ، حتى انحلت عراها وانقضت أيامها

Marfat.com

العصر العباسى الاول
من سنة ١٣٢ الى ٢١٨ هـ

سبب قيام هذه الدولة

رأيت فى ماتقدم أن العصر الاموى يمتاز عن عصر الراشدين بانقلاب الحكومة فيه من الخلافة الدينية الى السياسية الدنيوية ، وأن خلفاءها وعمالها انما كان همهم جمع المال ، وانه يمتاز عن العصر العباسى بتعصب أهله للعرب واحتقارهم سائر الامم ، وخصوصا الشعوب التى كانت تحت سلطانهم فى البلاد التىدانت لهم ، فىمصر،والشام،والعراق،وفارس ، وخراسان، وغيرها ، وفيهم : القبط،والنبط،والروم،والسريان،والكلدان،والفرس،والترك، والسودان وغيرهم ــ حتى الذين أسلموا منهم . فأصبحت تلك الامم تئن من معاملتهم ، وزادها نفورا ماكانوا يتخذونه من العنف فى تحصيل الخراج ، وأصبحوا يودون الخروج من حوزتهم وينصرون كل من دعا الى خلعهم (١) وخصوصا الموالى ، فانهم باعتناقهم الاسلام خسروا أراضيهم ومنازلهم ،وأصبحوامطالبين بالذهاب الى الحرب لحماية الدولة . فكان بنو أمية يخرجونهم الى القتال مشاة بلارزق ولافىء . وكان خصوم هذه الدولة يفتنمون الفرص ويستنصرونالموالى عليها ويجعلون لهم الارزاق(*) وأول من فعل ذلك المختار ابن أبى عبيد سنة ٦٦ هـ اذ جاء للانتقام من قتلة الحسين بالكوفة ، فعظم ذلك على العرب وقالوا : « ان المختار قد آذى بموالينا فحملهم على الدواب وأعطاهم فيئنا » فقال لهم المختار يومئذ : « اذا أنا تركت مواليكم وجعلت فيئكم لكم تقاتلون معى بنى أمية وابن الزبير ، وتعطوننى علىالوفاء عهد الله وميثاقه وما اطمئن اليه من الايمان ؟ » فتفاوضوا فيما بينهم فقال أحدهم : « ان أطعتمونى لم تخرجوا » فقالوا له : « لم ؟ » فقال : « لانى أخاف أن تتفرقوا وتختلفوا ، ومع الرجل شجعانكم وفرسانكم مثل فلان وفلان ثم

---

(١) ابن الاثير ١٨٩ ج ٣

(*) سبق أن ناقشنا موضوع خروج أهل الذمة عن أملاكهم بدخول الاسلام ، وأثبتنا أن الواقع يخالف ذلك . أما اخراج الموالى للقتال بلا رزق ولا فىء ، فلم تكن هذه سياسة بنى امية ، بل كان الخلفاء ينكرون ذلك على من يفعله من قوادهم . والثابت عندنا أن بعضالعمال كانوا ينكرون على الموالى حقهم فى الرزق ، وهى المئونة التى تعطى للجندى اذا خرج للحرب ، وهى غير « العطاء » وهو مرتب الجندى ، ولكن أحدا من الولاة أو القواد لم ينكر على الموالى المحاربين حقهم فى الفىء ، بل انهم كانوا لا يؤدون اليهم الارزاق اكتفاء بنصيبهم من الغنائم ، وقد اعتمد المؤلف فى قوله ذلك على اليعقوبى وابن طباطبا ، وكلاهما معروف بنزعته العلوية وتعصبه على بنى امية . وقد ناقش هذا الموضوع مناقشة مستفيضة يوليوس فلهاوزن فى كتابه عن « الدولة العربية وسقوطها » الذى أشرنا اليه

انظر الترجمة العربية التى قام بها الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة « الدولة العربية الى نهاية الدولة الاموية » ــ القاهرة ١٩٥٧ ، فصل : عمر بن عبد العزيز والموالى

Marfat.com

معه عبيدكم ومواليكم وكلمة هؤلاء واحدة ، ومواليكم اشد حنقا عليكم من عدوكم ، فهم مقاتلوكم بشجاعة العرب وعداوة العجم » (١)

وكان ذلك شأن الموالى مع كل من قام يدعو الى خلع بنى امية ، ولذلك كثر الخوارج فى ايامهم وقام فى نفوس العرب ان الخلافة لايشترط فيها القرشية(٢) على ان هذا الاعتقاد لم يتمكن من نفوس المسلمين الا بعد اجيال . اما يومئذ فكان الدعاة اكثرهم من اهل بيت النبى ، وفيهم العلويون من نسل الامام على ابن عم النبى ، والعباسيون من نسل العباس عمه . وكان الخراسانيون من أكثر الناس نقمة على بنى امية للاسباب التى قدمناها . فأخذوا بيد العباسيين وقائدهم ابو مسلم الخراسانى . ولما نهضوا نهض معهم اعداء بنى امية من العرب وغير العرب فى كل انحاء المملكة الاسلامية ، فضلا عن اهل البلاد غير المسلمين . فدارت الدائرة على بنى امية وانتصر العباسيون ، فجعلوا عاصمتهم فى العراق بالقرب من نصرائهم

وعرف العباسيون علة سقوط بنى أمية، فتجنبوا الوقوع فى مثلها ، فاتخذوا الجند والاعوان من الفرس ، واستبقوا الجند العربى ايضا من ربيعة ومضر، رغبة فى المحافظة على العصبية العربية لانها عماد الاسلام . ولم يكونوا يستطيعون التوفيق بين العنصرين ، لانهم انساقوا بطبيعة الامور الى الاختلاط بالفرس والتزيى بألبستهم من القلانس ونحوها ـ جعلوا ذلك فرضا واجبا عليهم . وأول من أخذ الناس بلبسها المنصور سنة ١٥٣ (٣) فأمرهم بلبس القلانس الطوال المفرطة الطول ، فقال ابو دلامة :

وكنا نرجى من امام زيادة ... فزاد الامام المصطفى فى القلانس
نراها على هام الرجال كأنها ... دنان يهود جللت بالبرانس

على ان غضب العرب لم يغير شيئا من مجارى الامور ، فاتخذ الخلفاء امهات أولاد من الفرس ، أولدوهن اولادا تولوا الخلافة ، وفيهم ميل فطرى الى العنصر الفارسى . وازداد هذا العنصر تغلبا فى بلاط الخلفاء بما اتخذوه من الوزراء ورجال الشورى منهم : كالبرامكة وغيرهم . وكان الفرس يبذلون جهدهم فى خدمة الدولة العباسية بنصح وصدق نية ، لان فى قيامها صلاح بلادهم

العرب والبيعة

على أن الخلفاء لم يكن لهم غنى عن جزيرة العرب، وفيها الحرمان : الكعبة وقبر النبى (صلعم) وفى احترامهما احترام الدين الاسلامى ، وعليه تقوم

---

(١) ابن الاثير (القاهرة ١٣٥٦) ٤/٣٦٥ ـ ٣٦٦
(٢) الاستقصا ٦٠ ج ١
(٣) الطبرى ٣٧١ ج ٣

Marfat.com

دعائم الخلافة . وزد على ذلك أنهم كانوا يخافون أهلَ الحرمين من التشيع لآل على ، وهم فى حاجة الى بيعة فقهاء المدينة لما لهذه البيعة من الاهمية فى تأييد الخلافة وتوكيد البيعة ، وكان أهل الورع من الخلفاء لا يقطعون أمرا دونهم (١) فشق ذلك على الفرس وخافوا أن يرجع النفوذ الى العرب ، فينتقموا منهم وتذهب مساعيهم ادراج الرياح ، فسعوا فى اغفال بلاد العرب . ولاسبيل الى اغفالها والكعبة فيها ، وهى حج المسلمين والحج من أركان الاسلام . فحبب بعضهم الى المنصور أن يستبدل الكعبة بما يقوم مقامها فى العراق وتكون حجا للناس ، فبنى بناء سماه القبة الخضراء تصغيرا للكعبة (٢) (*) وقطع الميرة فى البحر عن المدينة (٣) فاتخذ العرب ذلك حجة على العباسيين ، وأظهروا البيعة لمحمد بن عبد الله من آل على ، وخلعوا بيعة المنصور ، وقد أفتى لهم بذلك مالك بن انس الامام الشهير (٤) . وكان بنو أمية فى الاندلس قد قطعوا دعوة بنى العباس بعد أن دعوا لهم مدة قصيرة (٥) عند دخول عبد الرحمن بن معاوية كما ذكرنا فى الجزء الاول من هذا الكتاب واستقل عبد الرحمن بالاندلس لبعدها عن دار الخلافة . ثم استولى محمد ابن عبد الله على المدينة فخافه المنصور ، وبذل قصارى همه فى قتله ، ولم يستطع ذلك الا بعد العناء الشديد

***

فكان ماقاساه المنصور من عواقب اهماله الحرمين عبرة لخلفائه ، فلما تولى ابنه المهدى أكرم أهل الحرمين ، وكسا الكعبة كسوة جديدة ، وفرق هناك مالا عظيما جاء به معه من العراق مقداره ... ... ٣٠ درهم ، وجاءه وهو فى المدينة ... ٣٠٠ دينار من مصر ، و ... ٢٠٠ دينار من اليمن ففرقها

---

(١) أبو الفداء ٢٠٩ جـ ١ (٢) الطبرى ١٩٧ جـ ٣

(*) لم أجد عند الطبرى أو ابن الاثير ما يؤيد القول بأن المنصور ابتنى القبة الخضراء ليصرف الناس بها عن الكعبة أو ليصغر من شأنها . وليست هناك علاقة بين ذلك وثورة محمد بن عبدالله (النفس الزكية) واخيه ابراهيم على المنصور ، بل ان مقدمات ثورتهما ترجع الى ما قبل اختطاط بغداد ، ثم ان العداء بين العرب والفرس لم يظهر فى أيام المنصور وان كانت جذوره ترجع الى طبيعة قيام الدولة العباسية

راجع الخطابين المتبادلين بين المنصور ومحمد بن عبدالله عند الطبرى ، القاهرة ١٩٣٩ ج ٦ ص ١٩٥ وما يليها

ولم يرد ذكر هدف المنصور من القبة الخضراء الا فى سياق خطبة لمحمد (النفس الزكية) أوردها الطبرى ، جاء فيها : « أما بعد ، أيها الناس ، فانه كان من أمر هذا الطاغية عدو الله أبى جعفر ما لم يخف عليكم ، من بنائه القبة الخضراء التى بناها ، معاندا الله فى ملكه ، وتصغيرا للكعبة الحرام ، وانما أخذ الله فرعون حين قال : انا ربكم الاعلى ... » — الطبرى ، نفس الطبعة ١٩٨/٦ ، وواضح انها من الدعاوى التى استخدمها محمد (النفس الزكية) لتأييد دعوته ، وليست حقيقة تاريخية

(٣) ابن الاثير ٢٦١ جـ ٥ (٤) ابن الاثير ٢٥١ جـ ٥
(٥) ابن الاثير ٢٣٥ جـ ٥ و ٤٥ جـ ٦ وابن خلدون ٢٨٠ جـ ٣

Marfat.com

كلها وفرق ... ١٥٠ ثوب ، ووسع المسجد واتخذ حرسا من الانصار عددهم ٥٠٠ رجل حملهم معه الى بغداد واقطعهم الارض (١) وأمر بحفر نهر الصلة بواسط وأحيا ماعليه من الارض ، وجعل غلته لصلات اهل الحرمين والنفقات هناك (٢) وأصبح اكرام الحرمين على هذه الصورة سنة فى بنى العباس فى أثناء حجهم ، أو عند طلب البيعة لاولادهم ، فان الرشيد حج سنة ١٨٦ هـ ومعه ابناه الامين والمأمون ، فلما وصل المدينة أعطى فيها ثلاثة أعطية عنه وعن ولديه . وفعل نحو ذلك فى اهل مكة وبلغ ما فرقه ١٠٥٠٠٠ دينار وكتب هناك كتابا بولاية العهد للأمين وآخر للمأمون ووضع الكتابين فى الكعبة (٣) وأصبحت النفقة على الحرمين من جملة نفقات الدولة الضرورية . وعاد شأن العرب الى الظهور ، والخلفاء يرون ذلك ضروريا لتثبيت أقدامهم فى الملك

على أنهم كانوا من الجهة الاخرى لا يستغنون عن الفرس ، وهم وزراؤهم ومشيروهم ، فزادت المنافسة بين العنصرين حتى كان ماكان بين الامين والمأمون ، واستنصر المأمون جند خراسان وهم اخواله (٤) لان أمه فارسية وقام العرب ينصرون أخاه الامين ، وأمه عربية هاشمية (٥) وجنده ينصرون العرب فغلب جند المأمون فقبض على أزمة الملك فعاد النفوذ الى الفرس ، فشق ذلك على العرب ونقموا عليه وأرادوا البيعة لسواه واخراج الامر من يده (٦) فازداد كرها لهم ورذلهم ، فعوتب فى ذلك مرة وهو فى الشام فقال له رجل : « ياأمير المؤمنين ، انظر لعرب الشام كما نظرت لعرب خراسان » فقال له : « أكثرت على . والله ما انزلت قيسا من ظهور خيلها الا وانا ارى انه لم يبق فى بيت مالى درهم واحد . واما اليمن فوالله ما أحببتها ولا احبتنى قط ، وأما قضاعة فساداتها تنتظر السفيانى حتى تكون من اشياعه ، واما ربيعة فساخطة على ربها مذ بعث نبيه من مضر » (٧)

***

ولما تولى المعتصم سنة ٢١٨ هـ واصطنع الاتراك والفراغنة ازداد العرب هوانا فى عيون اهل الدولة وتقاصرت ايديهم عن اعمالها حتى فى مصر ، فان آخر عربى تولاها عنبسة بن اسحق الضبى سنة ٢٣٨ هـ (٨) واراد المعتصم ان يستغنى عن بلاد العرب جميعا ، وكان قد بنى سامرا بقرب بغداد واقام فيها جنده فأنشأ فيها كعبة وجعل حولها طوافا واتخذ منى وعرفات ، غرر به

---

(١) الطبرى ٤٨٣ جـ ٣ (٢) قدامة ٢٤٢ (٣) ابن الاثير ٦٩ جـ ٦
(٤) ابن الاثير ٩٠ و ٩٢ ج ٦ (٥) الطبرى ٩٣٧ ج ٣ (٦) ابن الاثير ١٢٦ ج ٦
(٧) ابن الاثير ١٧٦ ج ٦ (٨) المقريزى ٤٥٥ ج ٢

امراء كانوا معه لما طلبوا الحج خشية أن يفارقوه (١) فأصبح لفظ « عربى » مرادفا لاحقر الاوصاف عندهم . ومن أقوالهم : « العربى بمنزلة الكلب ، اطرح له كسرة واضرب رأسه » (٢) وقولهم : « لا يفلح أحد من العرب الا أن يكون معه نبى ينصره الله به » (٣) وأصبح الامراء والوزراء وسائر رجال الدولة من الفرس والترك والديلم وغيرهم ، وصار الخلفاء يؤيدون مناصبهم بالاجناد وبذل المال ، وقلت العناية بالعرب وأحزابهم

وكان العرب من الجهة الاخرى يجاهرون بكره الفرس وغيرهم من الاعاجم ، ويطعنون فيمن يميل اليهم ولو كان من الخلفاء ، ولذلك فلما مات المعتصم وتولى بعده الواثق كان دعبل الخزاعى الشاعر المشهور فى الصميرة ، فلما جاءه نعى المعتصم وقيام الواثق أنشد هذين البيتين :

الحمد لله لا صبر ولا جلد ولا عزاء اذا أهل البلا رقدوا
خليفة مات لم يحزن له أحد وآخر قام لم يفرح به أحد

وخلاصة ماتقدم أن الجامعة الاسلامية كانت فى عصر الراشدين عربية وكان غرضهم الاول نشر الاسلام فى الارض ، يدفعهم الى ذلك اعتقادهم المتين بصدق الرسالة وان الله يدعوهم الى ذلك . فلما تولاها بنو أمية استعاضوا عن ذلك الاعتقاد بطلب المال ، وتحول الغرض الى السلطة الزمنية السياسية وظلت الجامعة العربية متينة . وفى عصر العباسيين استبدلوا العصبية العربية بالاعاجم ، واحتاجوا فى اصطناعهم أو استخدامهم الى المال وانخرطوا هم فى سلكهم بواسطة الامهات . ثم أصبح الاعاجم من الفرس والترك والديلم والصقد والفراغنة وغيرهم يتسابقون الى الاستئثار بالنفوذ بواسطة المال كما سترى

---

(١) المقدسى ١٢٢ (٢) ابن الاثير ٢١١ ج ٦ (٣) الطبرى ١٥٨٨ ج ٣

ثروة الدولة العباسية

فى العصر العباسى الاول

وصلنا الى موضوع هذا الكتاب بعد هذا العرض لاحوال الدولة الاسلامية حتى العصر العباسى ، لان الثروة الاسلامية لم تنضج الا فى هـذا العصر وعليه سيكون مدار كلامنا . وتقاس ثروة الدولة المالية بما يبقى فى بيت مالها من دخلها بعد النفقات لا بمقدار الدخل على الاطلاق ، اذ قد يكون الدخل كثيرا والنفقة أكثر منه وتقع الدولة تحت العجز . فاذا اعتبرنا ذلك كانت ثروة الدولة العباسية فى العصر الاول طائلة ـ وان كنا لم نقف على ميزانيتها فىعهد الخلفاء الخمسة الاولين فلم نعلم مقدار جبايتها فى العام مما يعبرون عنه « بارتفاع الدولة » لضياع حساباتها فى الفتنة بين الامين والمأمون اذ احترقت الدواوين (١) وضاعت الدفاتر كما احترق ديوان بنى أمية عام الجماجم (٢) ولكننا نعلم مقدار الثروة فى ايامهم مما كانوا يختزنونه من المـال فى أثنـاء حكمهم

الثروة فى اوائل الدولة

فالخليفة الاول ابو العباس السفاح لم يحكم الا اربع سنوات (من سنة ١٣٢ ـ ١٣٦ هـ ٧٤٩ ـ ٧٥٣ م)قضاها فى الحروب ولم يجمع مالا . ولمامات لم يجدوافى بيته الاتسع جبات واربعة اقمصة وخمسةسراويلات واربعةطيالسة وثلاثة مطارف خز (٣) . واما المنصور فانه حكم ٢٢ سنة (١٣٦ـ١٥٨ هـ ٧٥٣ ـ ٧٧٤ م) وكان رجلا حازما كثير الاحتياط شديد الحرص على المال واختزانه ، لاعن بخل ولكنه كان يخاف الفتن . فلما مات خلف فى بيت ماله ٦٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم و ١٤٠٠٠ ٠٠٠ دينار (٤) وبتحويل هذه الدنانير الى دراهم باعتبار الدينار ١٥ درهما ـ وهى قيمته فى ذلك العصر تقريبا ـ كان مجموع ماخلفه المنصور ٨١٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم (والدرهم نحو خمسة واربعين مليما) . فلما دنا اجله اوصى ابنه المهدى قائلا : « قد جمعت لك فى هذه المدينة من الاموال ماان كسر عليك الخراج عشر سنين كانعندك كفاية لارزاق الجند والنفقات وعطاء الذرية ومصلحة الثغور ، فاحتفظ بها فانك

---

(١) قدامة ٢٣٦
(٢) الماوردى ١٨٣
(٣) الطبرى ٨٨ ج ٣
(٤) المسعودى ١٧٧ ج ٢

Marfat.com

لا تزال عزيزا مادام بيت مالك عامرا » (١) ويدل ذلك على دهاء المنصور واحتياطه للزمان . على أن سيرته كلها تدل على الحزم والعظمة والدهاء ، وهو فى الحقيقة مؤيد دولة بنى العباس ، حارب فى سبيل سلامتها حروبا كثيرة انفق فيها أموالا طائلة منها ... ٦٣٠٠٠ درهم أنفقها فى حرب الخوارج بأفريقية سنة ١٥٤ هـ ، فاعتبر ما انفقه فى الحروب الاخرى وهى كثيرة ، فضلا عما كان يبذله لاهله فانه بذل لجماعة منهم فى يوم واحد ... ١٠٠٠٠ درهم (٢) وأنفق على بناء بغداد وحدها ... ٤٨٣٣ درهم (٣) ناهيك بما كان ينفقه على اصلاح الرى وبناء الجسور . فاذا اعتبرت ذلك كله هان عليك تقدير ما وصل الى بيت المال فى أيام المنصور بمليار درهم (... ... ... ١٠٠٠) على الاقل . فاذا قسمت ذلك على سنى حكمه (٢٢) لحق السنة ... ٤٥٠٠٠ درهم سوى الاموال التى كان يأخذها من العمال اذا عزلهم واستخرج أموالهم . لانه كان اذا عزل عاملا أخذ ماله وتركه فى بيت مال مستقل سماه « بيت مال المظالم » وكتب على كل مال اسم صاحبه . ولما أحس بدنو الاجل أوصى ابنه المهدى فى ذلك قائلا : « قد هيأت لك شيئا ترضى به الخلق ولا تغرم من مالك شيئا ، فاذا أنا مت فادع هؤلاء الذين أخذت منهم هذه الاموال التى سميتها المظالم فاردد عليهم كل ما أخذ منهم ، فانك ستحمد بذلك اليهم والى العامة » (٤) ففعل المهدى ذلك لما تولى . وقد يتبادر الى الذهن أن المنصور استكثر المال بما أخذه من أموال بنى أمية بعد قهرهم وهى كثيرة ، ولكن تلك الاموال ظلت منفردة فى خزانة خاصة يسمونها « مال أهل بيت اللعنة » (٥)

وثروة المنصور قد تعد قليلة بالنظر الى ثروة الرشيد ، فقد خلف فى بيت المال عند وفاته (سنة ١٩٣ هـ) ... ... ٩٠٠ درهم ونيفا (٦) ومدة حكمه نحو مدة حكم المنصور غير ما انفقه الرشيد ومابذله وأسرف فيه وكرمه مشهور . وقد يخطر فى البال أن هذا المال تجمع من أيام المنصور فالمهدى فالهادى فالرشيد ولم يجتمع كله فى أيام الرشيد ، ولكن الواقع أن المهدى أنفق كل ماخلفه المنصور وكل ماجباه فى أثناء خلافته (من سنة ١٥٨ ــ ١٦٩) (٧) لانه كان كثير السخاء . ولم يحكم الهادى الاسنة وبعض السنة ، ويروى من فرط سخائه انه اعطى عبد الله بن مالك أربعمائة بغل موقرة دراهم وغيرها ، فلا يعقل أن يجتمع عنده مال يستحق الذكر . فما خلفه الرشيد فى بيت المال انما جمع فى أيامه ، واذا قدرناه باعتبار مدة حكمه لم يزد كثيرا عما تركه المنصور لما بينهما من البون الشاسع فى السخاء . فقد

---

(١) الطبرى ٤٤٤ ج ٣ (٢) ابن الاثير ١٣ ج ٦ (٣) المقدسى ١٢١ وسير الملوك ٥٤
(٤) الطبرى ١٥٨/٦ (٥) ابن الاثير ٤٠/٦ (٦) الطبرى ٧٦٤ ج ٣ وابن الاثير ٨٥ ج ٦
(٧) المسعودى ١٧٧ ج ٢

Marfat.com

كان الرشيد كريما حتى انه لم يكن يعرف للمال قيمة (١) وكان المنصور متهما بالبخل (٢) ناهيك بما كان من امر البرامكة فى ايام الرشيد وما امتلكوه من الضياع وبذلوه من الاموال مما هو معلوم

ولما مات الرشيد سنة ١٩٣ تنازع ولداه الامين والمأمون على الخلافة وتحاربا ، وكان الامين فى بغداد وقد أتته امه زبيدة بخزائن أبيه (٣) والمأمون فى خراسان ودامت الحرب بينهما بضع سنوات انفق الامين فى اثنائها كل ماكان فى بيت المال مع ما انفقه فى خاصته . لانه انقطع فى أثناء خلافته الى اللهو والخمر وبذل الاموال فى طلب الملهين وضمهم اليه ، واجرى عليهم الارزاق واحتجب عن اخوته واهل بيته وقسم الاموال والجواهر فى خواصه من الخصيان والنساء (٤)

فلما قتل الامين سنة ١٩٨ استوثق الامر فى المشرق والمغرب للمأمون ، وزاد نفوذ الخراسانيين فى أيامه لانهم هم الذين أعادوا الملك اليه ، واستتبت السكينة فى المملكة العباسية واشتغل المأمون فى نقل العلوم الى العربية، وسنأتى على تفصيل ذلك فى جزء آخر من هذا الكتاب خاص بالعلم والادب

***

أما الثروة فى ايام المأمون فانها اتسعت لاستكانة الناس الى العمل واجتماع القلوب ، ومدة حكمه ٢٢ سنة نحو مدة ابيه الرشيد وأبى جده المنصور ، ولكننا لم نقف على مقدار ماخلفه فى بيت المال عند وفاته ، ولعل خبر ذلك ضاع فى جملة ماضاع من هذا القبيل لقلة عناية مؤرخى تلك الايام بهذه الابحاث

على أن ادخار المال أصبح بعد الخلفاء الراشدين من الامور المألوفة عند ملوك المسلمين فى كل الممالك والعصور . قيل ان عبد الرحمن الناصر خليفة الاندلس الشهير (تولى سنة ٣٠٠ ــ ٣٥٠) جمع فى بيت ماله الى سنة ٣٤٠هـ نحو ٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار (٥) وكانت جباية الاندلس فى أيامه ٥٤٨٠ ٠٠٠ دينار ومن السوق والمستخلص ٧٦٥ ٠٠٠ دينار فالجملة ٦ ٢٤٥ ٠٠٠ ماعدا أخماس الغنائم فانها كانت كثيرة (٦) وكان الناصر ينفق على جنده ثلث هذا المال فقط وينفق ثلثها على شئون الدولة ويدخر الباقى (٧) وقد بالغ ابن خلدون فى مقدار ما خلفه الناصر فى بيت المال فجعله ٥ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار ولم يذكر ذلك جزافا ولا خامر كلامه شك بل هو حولها الى الوزن فكانت على تقديره ٥٠٠ ٠٠٠ قنطار (٨) وهو قول بعيد لاندرى كيف تطرق

---

(١) الطبرى ١٣٣ ج ٢
(٢) اقرأ أخبار بخله وتقتيره عند الطبرى ، تاريخ ٣٠٩/٦ وما بعدها وابن الاثير ١٢ ج ٦
(٣) ابو الفداء ٢٠ ج ٢ (٤) ابو الفداء ٢٢ ج ٢ (٥) ابن حوقل ٧٧
(٦) نفح الطيب ١٧٩ ج ١ (٧) ابن خلكان ٣٠ ج ٢ (٨) ابن خلدون ١١٥ ج ١

Marfat.com

الى قلم هذا الفيلسوف . ويدل على بعده عن المعقول ان ابن حوقل وهو من معاصرى تلك الدولة قدر ما اجتمع فى بيت مال الحكم المستنصر بن الناصر بعد موت أبيه من خدمه والمصادرين وغيرهم فلم يزد على ٤٠ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار وعد ذلك كثيراً لم يجتمع لدولة من الدول فى ذلك العصر (١) وكانت بغداد يومئذ فى عصر الاضمحلال وخلفاؤها وقوادها ووزراؤها يتقاتلون على المال ويصادر بعضهم بعضا

أما فى أيام المأمون فالمال الذى كان يجتمع من صوافى الجباية فى بيت المال كل عام لم يجتمع فى دولة من دول المسلمين ولا غيرهم . وقد وقفنا على مقدار تلك الجباية فى مقدمة ابن خلدون نقلا عن « جراب الدولة » (٢) وهى أقدم جريدة أو قائمة وصلت الينا من حسابات الدول الاسلامية ، تليها جريدة أخرى نقلها قدامة بن جعفر وأخرى رواها ابن خرداذبة ، وكلها لا تتجاوز أواسط القرن الثالث للهجرة ، وسنذكر كلا منها ونقابل بينها ليتبين لنا مقدار تلك الثروة

ولكننا نرى قبل التقدم الى ذكر الجباية أن نأتى على فذلكة فى جغرافية المملكة الاسلامية فى أيام المأمون ، لتتضح نسبة أعمال تلك المملكة بعضها الى بعض والى عاصمة المملكة العباسية

جغرافية مملكة الاسلام
فى عصر المأمون

حدودها

يحدها من الشرق أرض الهند بما يلى حوض نهر السند شرقا وبعض الصين وبحر فارس ، ومن الغرب مملكة الروم ، ويعبر عن تلك الحدود الآن بالبحر الاسود وآسيا الصغرى وبحر الروم والروس والبلغار . ومن الشمال بلاد السرير والخزر واللان فى آسيا وجبال البيرينيه فى أوربا . وفى خريطة هذه الايام بلاد سيبيريا وبحر قزوين وبحر الروم . ومن الجنوب بحر فارس وما يلى مصر من بلاد النوبة (*) وقد بينا مساحتها وعدد سكانها فى الجزء الاول من هذا الكتاب

وتقسم هذه المملكة الى عدة أعمال تختلف مساحتها ونسبتها بعضها الى

---

(١) ابن حوقل ٧٧ (٢) ابن خلدون ١٥٠ ج ١

(*) تركت تحديد المؤلف على حاله ، فهو يعطى اسماء هذه النواحى كما كانت أيام تأليف هذا الكتاب ، ونذكر هنا التحديد بحسب الاسماء الحالية

من ناحية الشرق يقول المؤلف : البحر الاسود وآسيا الصغرى وبحر الروم والروس والبلغار ، وهى تعادل اليوم : البحر الاسود وتركيا والبحر الابيض وروسيا وبلغاريا واليونان، ونظن ان الاصح أن يقال ان هذه حدود مملكة الاسلام من الشمال . اما من الشرق فبلاد

بعض باختلاف الدول والازمنة ، وسنبين ما كانت عليه حـوالى عصر المأمون نقلا عن جغرافيى العرب فى تلك الايام وخصوصا الاصـطخرى وابن حوقل وابن الفقيه • فهى تقسم الى سبعة وعشرين اقليما ، منها سبعة فى المغـرب وعشرون فى المشرق وهى :

أقاليم المغرب		أقاليم المشرق	
ديار العرب	العراق	ارمينية	قومس
بحر فارس	خوزستان(الاهواز)	اذربيجان	مفازة خراسان
ديار المغرب	فارس	بلاد الران	سجستان
مصر	كرمان	الجبال	ما وراء النهر
الشام	مكران	الديلم	خوارزم
بحر الروم	طوران	طبرستان	
الجزيرة	السند	جرجان (*)	

واليك وصف كل من هذه الاقاليم بما يمكن من الايجاز :

ديار العرب

وهى جزيرة العرب يحيط بها بحر فارس من عبـادان ـ وهو مصب ماء دجلة فى البحر ـ فيمتد على البحرين حتى ينتهى الى عمان ، ثم ينعطف عـلى سواحل مهرة وحضرموت وعدن حتى ينتهى الى سواحل اليمن الى جدة ، ثم يمتد الى مدين حتى ينتهى الى ايلة (وهى ايلات الحالية على خليج العقبة) • فهم يريدون ببحر فارس كل ما يحيط ببلاد العرب من المياه ، ولكنهم يعبرون عن الجزء الممتد من باب المندب الى ايلة ببحر القلزم وهو البحـر الاحمر • ويحدها من الغرب الشمالى برا بلاد الشام وفلسطين بخط منحن يمتد من ايلة الى البحيرة المنتنة (أى البحر الميت) فالشراة فالبلقاء فأذرعات وسلمية

التبت وبورما والهند ، بحسب الحدود القديمة • أما اليوم ، فقد اتسعت رحاب بلاد الاسـلام حتى شملت الملايو واندونيسيا ووصلت الى الفيليبين

ومن الشمال بلاد السرير واللان فى آسيا وجبال البيرنيه فى اوربا : السرير شعب لم نستطع التعرف عليه ، وان كان يغلب على ظننـا ان قراءته الصحيحة سربز Cervos وهو الاسم القديم لشعب الصرب ، وكانت مساكنه الاولى عند ما يعرف الآن ببحر أورال بين الجمهوريات الاسلامية السوفيتية الثلاث اوزبكستان وتركمانستان وكازاكستان ، وقـد ذهب المؤلف الى ان بلاد السرير هى بلاد سيبريا الحالية ، وهو فرض مقبول ، واللان من الشعوب التى كانت تجاور بلاد الاسلام حول بحر قزوين ، اما جبال البيرنيه ، فتعرف اليوم خطأ بالبرانس وصحتها جبال البرت بضم الباءأو البرتات أى جبال الباب أو الابواب ، وهى ممرات الجبال

ومن الجنوب بحر فارس وما يلى مصر من بلاد النوبة ، وبحر فارس غير الخليج الفارسى ، وهو الذى يعرف اليوم بالمحيط الهندى ، وبلاد النوبة تقابل السـودان الحالى ، وقد ظلت مسيحية الى القرن الرابع عشر الميلادى ثم انتشر فيها الاسلام بعد ذلك

(*) عن تحقيق هذه الاقاليم كلها انظر :

Guy Le Strange, Lands of the Eastern Califate

فالخنـــاصرة الى الفرات الى الرقة وقرقيسيا والرحبـــة فالكوفة الى البطائح فواسط الى عبادان

وتقسم ديار العرب الى الحجاز وفيـــه مكة والطائف والمدينـــة واليمامة ومخاليفها ، ونجد الحجاز المتصل بأرض البحرين ، وبادية العراق ، وبادية الجزيرة ، وبادية الشام ، واليمن المشتملة على تهامة (*) ونجد اليمن وعمان ومهرة وحضرموت وبلاد صنعاء وعـدن وســائر مخاليف اليمن

بحر فارس

ويراد به عندهم كل البحور المحيطة ببلاد العرب من مصب ماء دجلة فى العراق الى ايلة (١) فيدخل فيه ما نعبر عنه اليوم بخليج فارس وبحر العرب وخليج عدن والبحر الاحمر وخليج العقبة ولا يهمنا وصفه فى هذا المقام

ديار المغرب

يراد بها فى اصطلاحهم كل سواحل افريقيا الشمالية وراء حدود مصرغربا ويدخل فى ذلك (١) برقة (٢) افريقية وهى تونس (٣) تاهرت فى الجزائر (٤) طنجة والسوس وزويلة فى مراكش

أما برقة فهى مدينة وسط ، واقعة فى مستو من الارض خصبة تطيف بها البادية يسكنها طوائف من البربر ، وبينها وبين افريقية مدينـــة طرابلس الغرب ، وهى من عمل افريقية مبنية من الصخر ويليها المهـدية ثم تونس ، وهى كبيرة خصبة ثم القيروان وهى عاصمة افريقية وأكبر مدينة فيها واقعة فى البر • وكذلك تاهرت فان عاصمتها تاهرت • ومن مدنها أيضا سجلماسة وهى بعيدة فى الصحراء

ويجعلون الاندلس جزءا من بلاد المغرب لانها كانت تابعة لها عند فتحها • والاندلس (اسبانيا) مملكة كبيرة عاصمتها قرطبة وحدودها معروفة ، ومن أشهر مدنها جيان وطليطلة وسرقسطة ولاردة ووادى الحجارة وترجالة وقورية وماردة وباجة وغافق ولبلة وقرمونة واستجة ورية • وعلى سواحلها شنترين ومالقة وجبل طارق وغير ذلك

مصر

وحدود مصر فى تلك الايام مثل حدودها اليوم تقريبا ويلحقون بها البجة والنوبة الى حدود البحر الاحمر فالعقبة

(*) يريد أن تهامة تدخل فيها ، والمعروف أن تهامة من الحجاز
(١) الاصطخرى ٢٨

Marfat.com

الشام

ويراد بها سوريا على العموم وتقسم الى سبعة أقسام :

(١) جند فلسطين (٢) جند الاردن (٣) جند حمص (٤) جند دمشق (٥) جند قنسرين (٦) العواصم (٧) الثغور

فجند فلسطين أول أجناد الشـــام غربا ، يحده من جهة مصر رفح ، ومن الشمال اللجون وفيه يافا وأريحا وبيت لحم وغزة والشراة والبحيرة المنتنـة وغوربيسان ونابلس ، وكانت قصبة فلسطين الرملة ويليها فى الـكبر بيت المقدس

وجند الاردن قصبته مدينة طبرية

وأما جند دمشق فقصبته مدينة دمشق ، وهى أعظم مدن الشام على الاطلاق وهى معروفة

وأما جند حمص فقصبته مدينة حمص وهى مشهورة ، ويتبعها انطرطوس وسلمية بطرف البادية وشيزر وحماه وكانتا صغيرتين

وجند قنسرين قصبته حلب وهى مشهورة الى اليوم ، وكان لها شأن كبير لوقوعها فى طريق العراق الى الثغور والعواصم • ومن مدنها مدينة قنسرين وهى صغيرة ومعرة النعمان

وأما العواصم فيراد بها أعالى الشام وراء حلب الى اسكندرونة وقصبتهـا انطاكية ، وهى تلى دمشق فى النزاهة ، وكانت عاصمة الشام على عهد الروم، وكان عليها سور ضخم للغـــاية قيل ان دوره للراكب يومين (١) ومن مدن العواصم بالش على ضفة الفرات ومنبج فى البرية

أما الثغور فهى ما وراء العواصم الى حدود جبل طورس فى آسيا الصغرى، ومن مدنها الشهيرة سميساط على الفرات وملطية وهى أكبر الثغور ،وحصن منصور ومنها الحدث ومرعش وزبطرة والهارونية والمصيصة وأذنة وطرسوس• وقد يدخلون الثغور فى العواصم ويطلقون عليها جميعا اسم العواصم•والمراد بالثغور عندهم (أى عند المسلمين) المدن الواقعة على الحدود بينهم وبين الروم، ولذلك كان عندهم ثغور شامية أى الحدود مما يلى الشام وحدود جزرية أى الحدود مما يلى الجزيرة

بحر الروم

ويراد به وصف ما فيه من الجزائر مما لا دخل له فى غرضنا الآن

Marfat.com

الجزيرة

بين دجلة والفرات بلاد واسعة تعرف بما بين النهرين ، يسمى القسم الشمالى منها الجزيرة والجنوبى العراق ، والفاصل بينهما تكريت على دجلة والانبار أو هيت على الفرات • ويلحق الجزيرة بعض البلاد وراء الضفتين فى بعض المواضع • يحدها من الشمال ميافارقين وما يليها غربا الى الفرات قرب ملطية ، ومن الجنوب هيت على نهر الفرات وتكريت على دجلة ، ويحدها من الغرب الجنوبى بادية الجزيرة ومن الشرق الجبال وأذربيجان

والجزيرة بلاد خصبة جدا مثل بلاد العراق • ومن أشهر مدنها الموصل على دجلة من جهة الغرب وسنجار فى وسط البرية بديار ربيعة ، ليس فى الجزيرة بلد فيها نخل مثلها ، ونصيبين وكانت أنزه بلد فى الجزيرة ، ودارا وهى صغيرة ، ورأس عين مدينة مستوية الارض فى دار مضر ، وآمد فى أعالى دجلة وجزيرة ابن عمر على دجلة أيضا ، ومن مدنها على الفرات الرقة وقرقيسيا والحديثة وهيت • وفى أواسطها أيضا حران وهى مدينة الصابئين ، والرها وهى قديمة مشهورة بالمدارس والعلوم أيام السريان • وسروج مدينة خصبة كثيرة الاعناب

وفى الجزيرة مفاوز يسكنها قبائل من ربيعة ومضر ، تقيم ربيعة فى الشمال الشرقى ومضر فى الجنوب الغربى وقد كانوا هناك قبل الاسلام • وهم أهل خيل وغنم وابل على أنهم متصلون بالقرى والمدن فهم بادية حاضرة •وتكريت آخر حدود الجزيرة على دجلة وكان أكثر أهلها نصارى

العراق

هو القسم الجنوبى من بين النهرين وما يجاوره ، طوله من تكريت على دجلة من الشمال الى عبادان على بحر فارس فى الجنوب ، وعرضه من قادسية الكوفة فى الغرب الى حلوان فى الشرق • ومحيطه اذا بدأنا من تكريت نسير شرقا الى شهرزور ثم جنوبا شرقيا الى حلوان فالسيران والصيمرة فحدود السوس الى عبادان ، ثم ينعطف الى البصرة ومنها صعداً نحو الشمال والغرب فى البادية على سواد البصرة وبطائحها الى الكوفة ، ثم على الفرات الى الانبار ومن الانبار شمالا الى تكريت • ويسمى ما بين دجلة والفرات السواد • هذه حدود العراق فى ابان التمدن الاسلامى ، وهى تختلف عن حدوده الآن وخصوصا لان مجارى الانهر تغيرت ، وسنعود الى تفصيل ذلك فى مكان آخر

وأشهر مدن العراق بغداد وهى قصبته ، وعاصمة المملكة الاسلامية فى ابان مجدها ، بناها المنصور • والبصرة وهى مدينة عربية ، بناها المسلمون فى أيام عمر بن الخطاب ، وللبصرة بطائح سيأتى تاريخها فى موضع آخر •

Marfat.com

وواسط مدينة عربية أيضا بناها الحجاج فى وسط السواد • والكوفة غربى الفرات وهى من بناء العرب • ومن مدن العراق النهروان شرقى دجلة على نهر اسمه النهروان جف الآن • وحلوان فى آخر حدود العراق شرقا،وكانت مدينة كبيرة بقرب الجبل • والحيرة قرب الكوفة والابلة قرب البصرة

خوزستان

هى شرقى العراق بينها وبين فارس يحدها من الشمال كور الجبال ، ومن الشرق فارس وأصبهان ، ومن الغرب العراق ، ومن الجنـــوب خليج فارس عاصمتها مدينة الاهواز ، واليها تنسب خوزستان فيقال لها الاهواز•وتقسم الى كور أولها كورة الاهواز • ثم جندى سابور والسوس وتستر ورامهرمز وسرق وعسكر مكرم • وقصبة كل كورة المدينة المسماة باسمها

بلاد فارس

وهى واقعة بين خوزستان فى الغرب وكرمان فى الشرق ، ويحدها شمالا أصفهان وبادية خراسان ، ومن الجنوب والغرب بحر فارس • وتقسـم بلاد فارس الى خمس كور أكبرها كورة اصطخر ، قصبتها اصـــطخر ثم كورة اردشير خرة (*) وقصبتها جور ، وفيها أيضا مدينة شيراز وهى عاصمة بلاد فارس بها دواوينها ودار الامارة • ثم كورة دارابجرد وكورة ارجان قصبتها مدينة أرجان ، ثم كورة سابور وهى أصغر كور فارس وفيها مدينةكازرون• ومن بلاد فارس بقاع يقيم فيها قبائل من الاكراد يزيدون على مئة حي يتعيشون بالمرعى والحرث فى بقاع يقـال لها رموم (**) • ويقدرون تلك القبائل فى بلاد فارس وحدها بنحو ٥٠٠ر٠٠٠ بيت (***) ينتجعون المراعى فى المشتى والمصيف على مذاهب العرب(****)•وقد يكون فى البيت الواحد من الارباب والاجراء والرعاة (*****)نحوعشرة رجال،فاذا اعتبرنا معدل الرجال فى كل

(*) كذا فى الاصطخرى ، بالخاء المضمومة ، وفى نسخ اخرى جره بالجيم ودره بالدال (ص ٩٧) (ص ٩٧)

(**) كذا فى الاصل (الاصطخرى ، ص ٦٧) ونظن أن صحتها زموم بالزاى ، جمع : زم ومعناه الزمام ، وهكذا يستعملها الادريسى وياقوت والاصطخرى نفسه يقول فى ص ٦٨ فى الكلام على كورة سابور : « واما رومها فهى خمسة واكبرها رم جيلويه ويعرف برم الزيمجان ، ثم الذى يلى هذا الرم فى الكبر رم أحمد بن الليث ... الخ » مما يفهم منه انه يتحدث عن أزمة سابور ومن المعروف أنه كان من دواوين الدولة العباسية ديوان يعرف بديوان الازمة

(***) فى الاصل (الاصطخرى ، ص ٩٩) ٥٠٠ الف بيت شعر ، ويراد بها الخيام التى كانت قبائل الاكراد تصنعها من الشعر فتقيم بها ، وكل خيمة لاسرة

(****) يريد انه كان لكل قبيلة موضع تقضى فيه الصيف يسمى المصيف وموضوع تقضى فيه الشتاء يسمى المشتى كما كانت العرب تفعل

(*****) الارباب هم ارباب البيوت اى اصحابها ، وهم الافراد الذين يملكون الماشية ، والاجراء من يعملون فى خدمتهم لقاء أجر ، والرعاة يرعون لهم لقاء نصيب من نتاج الماشية

Marfat.com

بيت خمسة كان عدد الرجال الاكراد ٢ر٥٠٠ر٠٠٠ رجل ، وباعتبار مايلحقهم من النساء والاولاد يزيد عددهم على عشرة ملايين

كرمان

هى أكبر من فارس واقعة بين فارس فى الغــرب ومكران وسجستان فى الشرق ، ويحدها من الشمال مفازة خراسان ومن الجنوب بحر فارس ، واشهر مدنها الشيرجان وبم وجيرفت وهرموز

مكران

هى شرقى كرمان والى شرقيها طوران وبعض بلاد السند ، وفى الشمال سجستان وبلاد الهند وفى الجنوب بحر فارس ، وهى أكبر من كرمان ومن مدنها التيز وكيز ودرك وراسك

طوران

هى أصغر من فارس واقعة بين مكران فى الغرب وبلاد السند فى الشرق والشمال وبحر فارس فى الجنوب ، وأشهر بلادها محالى وكيزكانان وقصدار

السند (*)

والسند آخر حدود مملكة الاسلام فى الشرق وأشهر مدنها المنصورة وهى بلسان الهنود برهماناباذ ومنها الديبل على شاطىء البحر والملتان وغيرها . أما المنصورة فانها واقعة على خليج من نهر مهران يحيط بها فى شبه الجزيرة وأهلها مسلمون . ويطلق الاصطخرى على مكران وطوران والسند اســـم السند (**)

(*) جعل الاصطخرى ، والمؤلف يتابعه هنا كرمان وطوران داخلة فى بلاد السند وقال ، « وأما بلاد السند وما يصاقبها مما قد جمعناه فى صورة واحدة فهى بلاد السند وشىء من بلاد الهند ومكران وطوران والبدهة ، وشرقى ذلك كله بحر فارس ... » ثم يقول : « والذى يقع من المدن فى هذه البلاد : فبناحية مكران التيز وكيز وقنزبور ودرك وراسك .. » . (الاصطخرى ١٧٠ — ١٧١)

(**) نورد هنا نص الاصطخرى ، نظرا لاهميته بالنسبة لتقرير حدود مملكة الاسلام ، من ناحية الشرق على أيامه : «وأما مدن الهند فهى قامهل (أيضا فامهل ، وعند الادريسى مامهل ، وفى جيهان نامة : فامهل وتامهل) وكبناية (أيضا كنباته وكنيانه وكيناته ، وفى جيهــان نامة : كسانة) وسوبارة (فى جيهان نامة : جوبارة) وسندان وصيمور والمتان وجندراور (عند الادريسى : الجندور ، والمقدسى : جندوار ، وفى نسخة: الجندرور ، وكنبها ياقوت : جندراون) وبسمد . فهذه من مدن هذه البلاد التى عرفناها . ومن كبناية الى صــيمور من بلد بلهرا بعض ملوك الهند ، وهى بلاد كفر ، الا ان هــذه المدن فيها المسلمون ، ولا يلى عليهم من قبل بلهرا الا مسلم ، وبها مساجد يجمع فيها الجمعات ، ومدينة بلهرا التى يقيم فيها مانكير ، وله مملــكة عريضة »

الاصطخرى : مسالك الممالك ، ص ١٧٢ — ١٧٣

Marfat.com

ارمينية

هى فى أعالى مملكة الاسلام فوق الجزيرة تحدها من الشرق أذربيجـــان والران ومن الغرب بلاد الروم (فى آسيا الصغرى) ومن الشمال جبالالقبق (القوقاس) ومن الجنوب الجزيرة قصبتها ديبل وفيها دار الامارة والنصارى بها كثيرون ، ومن مدنها خلاط وارزن وقاليقلا وميافارقين ، ويعدها بعضهم من الجزيرة وهكذا فعلنا (*)

اذربيجان

فى شرقى الجزيرة يحدها من الغرب الجزيرة وأرمينيـة ومن الشرق بحر الخزر وبلاد الديلم ومن الشمال بلاد الران ومن الجنوب كور الجبال• عاصمتها مدينة أردبيل وفيها العسكر ودار الأمارة طولها ميلان فى ميلين،ويلى اردبيل فى الكبر المراغة وكانت قبـلا دار الامارة وتليهـا أرمية على شـاطىء بحيرة الشراة • ومن مدنها سلماس ومرندوشيز

بلاد الران

هى شمالى أذربيجان يحدها من الشرق بحر الخزر ومن الغرب أرمينيـة ، ومن الشمال جبل قبق ومن الجنوب أذربيجان • أكبر مدنها مدينة برذعة،ثم تفليس والباب ومنها بيلقان والشاوران وغيرها

الجبال

يراد بالجبال جبال فارس وهى تقسم الى كور أشهرها ماه الـكوفة وهى الدينور ، وماه البصرة وتسمى نهاوند . ويحدالجبال منالشرق مفازةخراسان وفارس ، ومن الغرب العراق والجزيرة ، ومنالشمال أذربيجانوالديلم والرى وقزوين ، ومن الجنوب خوزستان والعراق • وهى تشتمل على مدن مشهورة أعظمها همذان والدينور وماسبذان وأصبهان وقم وقاشان ونهـاوند واللور والكرج وقزوين وشهرزور وحلوان • مساحة همذان فرسخ فى فرسخ وكان لها سور ابوابه من حديد . والدينور (ماه الكوفة) نحو ثلثيها . واصبهان مدينتان بينهما ميلان • ونهاوند (ماه البصرة) واقعة على جبل بناؤها من طين • وحلوان مدينة فى سفح الجبل المطل على العراق • وشهرزور قريبة من

(*) جاء فى الاصـــطخرى (ص ١٨٠ ــ ١٨١) : « فأما ارمينية والران وآذربيجان فانا جمعناها فى صورة واحـدة ، وجعلناها اقليماواحدا ،والذى يحيط بها مما يلىالمشرقالجبال والديلم وغربى بحر الخزر ، والذى يحيط بها مما يلى المغرب حدود الارمن واللان وشىء من حد الجزيرة ، والذى يحيط بها مما يلى الشـمال اللان وجبال القبق ، والذى يحيط بها مما يلى الجنوب حدود العراق وشىء من حدود الجزيرة »

Marfat.com

العراق • وقزوين فى أعالى فارس وهى ثغر بلاد الديلم • وقم مدينة عليهـا سور وهى خصبة • وقاشان مدينة صغيرة

الديلم

هى جبال مطلة على بحر الخزر (بحر قزوين) يحـدها من الجنوب قزوين وبعض أذربيجان ، ومن الشمال بحر الخزر ومن الشرق قومس ومن الغرب أذربيجان • وأهل الديلم صنفان : سكان الجبال وسكان السـهول ، ومن توابعها الرى وأبهر وزنجان والطالقان وقزوين والرويان

طبرستان

وهى تلى الديلم شرقا واقعة على بحر الخزر أيضا يحدها من الشرق جرجان ومن الغرب الديلم • أكبر مدنها آمل وهى مركز الولاية وسارية وهى بلاد كثيرة المياه ودماوند (أو دنباوند)

جرجان

هى شرقى طبرستان وشماليها يحدها من الشمال تركستان ومن الجنوب قومس ومن الشرق خراسان ومن الغرب بحر الخزر • أكبر مدنها مدينـة جرجان وهى أكبر من آمل • ثم استراباد فى الجنوب ودهستان على شاطىء البحر

قومس

هى جنوبى جرجان وطبرستان وهما يحدانها من الشمال • وأما منالجنوب والشرق فحدودها مفازة خراسان ، ومن الغرب تحـدها بلاد الرى قصبتها مدينة الدامغان

مفازة خراسان

هى بادية واقعة فى أواسط بلاد المشرق يحـدها من الشمال قومس ومن الجنوب بلاد فارس وسجستان ، ومن الشرق سجستان وخراسان ومنالغرب الجبال والرى وهى أقل من بادية العرب سكانا ، وبعض هـذه المفازة تابع لخراسان والبعض الآخر تابع لعملى فارس وكرمان ، وهى وعـرة ويصعب سلوكها بالخيل لقلة الماء فيها

سجستان

هى واقعة فى شمالى مكران يحدها من الشرق مفازة بينها وبين السند • ومن الجنوب مكران ومن الشمال أرض الهند ومن الغرب مفازة خراسـان • اكبر مدنها زرنج وبست والطاق وغيرها

Marfat.com

خراسان

هى من أخصب بلاد المشرق وأوسعها يحدها من الشرق الشمالى ما وراء النهر ومن الشرق الجنوبى بلاد السند وسجستان • ومن الشمال خوارزم وبلاد الغز فى تركستان • ومن الجنوب مفازة خراسان وفارس • ومن الغرب قومس • وتقسم خراسان الى كور أعظمها نيسابور ومرو وهرات وبلخ يليها كور قوهستان وطوس ونسا وابيورد وسرخس واسفزار وبوشنج وياذغيس وكنج ــ رستاق ومروروذ وجوزجان وطخارستان وزم وآمل

عاصمة خراسان مدينة نيسابور وهى أعظم مدنها جميعا وتسمى أيضا أبو شهر ، واقعة فى أرض سهلة أبنيتها من طين سعتها فرسخ فى فرسخ • ومدينة مرو وتعرف بمرو الشاهجان وهى قديمة البناء• ومدن خراسان كثيرة وبلادها آهلة وتربتها خصبة وقد كان للمسلمين منها ارتفاع عظيم

ما وراء النهر

هى آخر بلاد الاسلام شمالا شرقيا يحدها من الشمال بلاد تركستان وبلاد الهند ، ومن الغرب الجنوبى خراسان يفصل بينهما نهر جيحون ، ومن الشمال الغربى خوارزم ومن الجنوب طخارستان • وهو من أخصب أقاليم الاسلام وأنزهها وأكثرها خيرا • وأشهر نواحيها بخارى وسمرقند وكش ونخشاب وبيكند والساغانيان وفرغانة والسغد والشاش وأشروسنة وخوجند

خوارزم

ويعدها الاصطخرى تابعة لما وراء النهر فانها مستطيلة الشكل تمتد على ضفاف نهر جيحون فى الشمال • يحدها من الشمال بحر خوارزم ومن الجنوب خراسان وبلاد الصغد وتحدق بهذا الاقليم المفاوز من الشرق والغرب• قصبته مدينة خوارزم

هذه خلاصة جغرافية المملكة الاسلامية حوالى عصر المأمون ونسبة أقاليمها بعضها الى بعض ، تمهيدا لما سنذكره من جباية المملكة العباسية ،وهى تشمل كل هذه الاقاليم الا الاندلس• ولم يكن كل اقليم منها قائما بذاته يؤدى خراجه باسمه ، فان بعض هذه الاقاليم كان داخلا فى عمل البعض الآخر • وقد اختلف ذلك باختلاف الاعصر ، فربما ورد فى قائمة الجباية ذكر خراج اقليم ، ويكون المراد خراج اقليمين أو أكثر مما دخل تحت سيطرة عامله ، اذ كثيرا ما كان الخلفاء يولون العامل عدة أقاليم يسمونها باسم واحد منها لاسباب لا يمكن حصرها

وقبل الشروع فى ايراد خراج الاعمال العباسية واستخراج ارتفاع الدولة،

Marfat.com

لابد لنا من بيان علاقة تلك الاقاليم أو الاعمال ببغداد عاصمة المملكة بالنظر الى توريد الخراج

علاقة الاعمال العباسية بالعاصمة

قلنا فى كلامنا عن ولاية الاعمال فى الجزء الاول انها كانت فى بادىء الرأى أشبه بالاحتلال العسكرى منها بالتملك • وكان العمال فى عهد الراشـدين هم قواد الجند الذين فتحوا تلك الاقاليم ، وواجباتهم مراقبة سـير الاحكام فى البلاد التى افتتحوها واقامة الصلاة واقتضاء الخراج،وظلت أعمال الحكومة فى داخل البلاد المفتوحة جارية على ما كانت عليه قبل الفتح • وكان الذين يباشرون جباية الخراج ويتولون أعمال الحكومة فى البلاد موظفين من أهلهـا الاصليين ، فاذا اجتمع الخراج والجزية أنفقوا من مجموعهما ما تحتاج اليـه ناحيتهم من نفقات ، ودفعوا الباقى الى الحاكم المسلم ، وهذا يدفع منه رواتب الذين معه من القوادوالجند وما يقتضيه اصلاح الرى من اقامةالجسوروالسدود ويرسل الباقى الى بيت المال فى عاصمة الخلافة

ذلك كان شأن الاعمال الاسلامية فى زمن الراشدين ، ولما أفضى الامر الى بنى أمية واضطر معاوية الى اكتساب الانصار زاد فى نفوذ العمال وجعـل بعض الاعمال طعمة لهم ، فازدادوا استقلالا فى أعمالهم • ثم دعت الاحـوال الى تمكين المسلمين من البلاد المفتوحة واستلام أزمة الاحكام بأيديهم وتحويل الدواوين الى لسانهم فى أيام عبد الملك ومن جاء بعده ـ الا جباة الخراجفانهم ظلوا من اهل البلاد الاصليين : القبط فىمصر والدهاقين فى العراق وفارس . وظل العمال يقبضون صـوافى الخراج والجزية وينفقون النفقات الـلازمة ويرسلون الباقى الى بيت المال فىدمشق،وهو ما يعبرون عنه بارتفاعالجباية. واذا لم تكف الجباية للقيام بالنفقات طالبوا الخليفة بالباقى (١)

ولما تولى بنو العباس ظلت الاعمال على نحو هذا الشكل • ويهمنا فى هذا المقام تتبع تلك العلاقة من حيث الجبـاية فقط • والظاهر أن العمال زادوا استقلالا من هذا القبيل عما كانوا عليه فى أيام بنى أميـة ، حتى آل الامر أخيرا الى تضمين الخراج أى تقبيله (*) ، وهو أن يوظف على العامل مال معين

---

(١) المقريزى ٧٧ ج ١

(*) تقبيل الخراج او اىمصدر منمصادرالايراد الثابت للدولة معنـاه العهود به الى رجل يلتزم بأدائه الى الدولة على أقساط ثم يقوم بزراعة الارض واستغلالها بنفسه . فالمتقبل على ذلك يختلف عن الملتزم اختلافا واضحا : ان المتقبل كان يتعهـد بنفسه بالزراعة والعمـل ، اى انه مزارع ، أما الملتزم فى العهد التركى فكان يدفع قيمة الالتزام للدولة مقدما ثم يجمعه كيف شاء . وقد لجأت الدولة الاسلامية الى تقبيل الارض من أوائل أيام الدولة العباسية ، فكانت كل ناحية تقسم قبالات اى أقساما مالية ، وتوكل كل قبالة الى المتقبل الذى يعرض مبلغا اكبر . وقد عثر جروهمان على أوراق بردية مصرية تثبت أن نظام القبالات عرف فىمصر

Marfat.com

يدفعه فى السنة الى بيت المال فى بغداد ، وهو يتولى قبض الخـــراج والجزية وسائر الضرائب وينفق ما ينفقه كما يشاء لا يطالبه الخليفة الا بالمال المضروب، ويكون ذلك فى امارة الاستيلاء • كذلك فعل الرشيد مع ابراهيم بن الاغلب عامله على افريقية ، وكان هذا الاقليم عالة على الحكومة يحمل اليه من مصر كل سنة ١٠٠ر٠٠٠ دينار معونة له ، فلما تولاه ابن الاغلب تنازل عن هذا المال وبذل أن يحمل كل سنة ٤٠ر٠٠٠ دينار (١) وفعل الرشيد نحو ذلك ببرقة وانه جعلها قانونا قائما ، فوجه بمولى له فوزع خراج الارض بأربعة وعشرين ألف دينار (٢) وكذلك فعل المأمون مع عبد الله بن طاهر فانه وظف عليه خراج خراسان وما يتبعه سنة ٢١١ هـ و ٢١٢ هـ قدرا معينا سيأتى ذكره ، وقس عليه ما قبله الفضل بن مروان من فارس والاهواز وما تقبله عمران بن موسى من السند (٣) ثم صار التوظيف المذكور ضمانا وتكاثر حتى آل الى استقلال الأمراء بولاياتهم

وجملة القول أن المال الذى كانوا يعبرون عنه بخراج البلد الفـلانى انما يراد به ما يرد على بيت المال من خراج ذلك البلد بعد اداء اعطيـات الجنـد المقيم فيه ونفقات الجباية واصلاح الرى وسائر الكلف (٤) أو بطريق التوظيف كما تقدم فما يجتمع من جبايات الاعمال يعبرون عنه بارتفاع الدولة أو جباية الدولة أى مجموع صافى الدخل ، لا ينفق منه الا على موظفى الدواوين ورجال الدولة فى بغداد غير ما يأخذه الخليفة وأهله مما سيأتى تفصيله • وقد صرح ابن خلدون فى مقدمة كلامه عن مقدار تلك الجبـاية فى أيام المأمون بقوله : « ما يحمل الى بيت المال ببغداد فى أيام المأمون من جميع النواحى نقلته عن جراب الدولة » (٥) فبالقياس على ما تقـدم يعتبر كل ما يرد من الـكلام عن ارتفاع الدولة انه صافى أموال الجباية

من أوائل العصر العباسى ، وان القبالة كانت تعطى لمدة أربع سنوات ، ووصف المقريزى فى الخطط (١/٩٨) الطريقة التى كان يتم التقبيل بها فقال : « ان متولى خراج مصر كان يجلس فى جامع عمرو بن العاص من الفسطاط فى الوقت الذى تتهيأ فيه قبالة الاراضى ، وقد اجتمع النـاس من القرى والمدن ، فيقوم رجل ينادى على البـلاد صفقات صفقات ، وكتاب الخراج بين يدى متولى الخراج يكتبون ما انتهى اليه مبالغ الـكور والصفقات على من يتقبلها من الناس • وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالاربع سنين من أجل الظمأ أو الاستبحار وغير ذلك فاذا انقضى هذا الامر خرج كل من كان تقبل أرضا وضمنها فى ناحيته ، فيتولى زراعتها واصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك ، ويحمل ما عليه من الخراج فى اباته على اقساط ، ويحسب له من مبلغ قبالته وضمانه لتلك الاراضى ما ينفقه فى عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجها بضرابة (أى بحساب) مقدرة فى الخراج • ويتأخر من مبلغ الخراج فى كل سنة فى جهات الضمان والمتقبلين »

(١) ابن الاثير ٦٣ ج ٦ (٢) اليعقوبى (كتاب البلدان) ١٣٣ (٣) ابن خرداذبة ٣٤ و ٤٣ و ٤٨ و٥٧ (٤) المقريزى ٩٧ ج ١ (٥) ابن خلدون ١٥٠ ج ١

Marfat.com

جباية الدولة العباسية

فى العصر الاول

فلنتقدم بعد هذا التمهيد الى تفصيل جباية الدولةالعباسية فى أيام المأمون باعتبار ما يرد من كل عمل فى السنة • والتوفق الى ذلك نادر فى تاريخ الاسلام لأن القوم قلما يدونون غير حوادث الحرب والفتح والثورات وما الى ذلك

أما قوائم ابن خلدون وقدامة وابن خرداذبة فقد عثرنا عليها عرضا ، وهى :

(١) قائمة ابن خلدون : هى أقدمها كلها ، وقد أوردها ابن خلدون فى مقدمته فى عرض كلامه عن « أن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها فى أصلها»، وقال انه نقلها عن جراب الدولة ، وفيها مقدار الخراج الذى كان يرد على بيت المال فى بغداد فى أيام المأمون • وقبل تحقيق ذلك الزمن نوجه التفات القارىء لما تطرق الى هذه القائمة من الخطأ بتوالى الأعوام • وقد تصفحنا النسخ المطبوعة من مقدمة ابن خلدون فى مصر والشام ، فرأينا خطأ فى أسماء بعض البلاد الواردة فى تلك القائمة ، نظنه وقع من النساخ لتشابه فى أشكال بعض الالفاظ . فلا بد من التنبيه الى ذلك واصلاحه قبل ايراد القائمة المذكورة ، لأن الخطأ اللفظى المشار اليه يجر الى الخطأ المعنوى ، لوقوعه فى أسماء البلاد أو الاقاليم التى حمل الخراج منها ، وهاك اصلاحها :

١ ـ كنكر (١) : هى لفظة لا معنى لها فى هذا المقام ، وصوابها «كسكر» ، وهو أقليم من أقاليم السواد

٢ ـ طبرستان والروبان ونهاوند(٢) ، فالروبان بالباء صوابها «الرويان» بالياء ، وهى من أقليم الديلم وقد ذكرناها فى محلها ، ونهاوند قصبة كورة ماه البصرة من كور الجبال كما تقدم • ونظرا لبعدها من طبرستان والرويان، فالغالب أن يكون المراد بها بلدا آخر قريبا من هناك ، نظنها « دماوند » ، وهى من كور طبرستان

---

(١) فى السطر الثامن من طبعة بولاق صفحة ١٥٠
(٢) فى السطر ٢١ من الصفحة المذكورة

Marfat.com

٣ ـ ما بين الكوفة والبصرة (١) : لم نر فى سائر القوائم ولا فى غيرها من التقاويم كورة بهـــذا الاسم • وقد لاحظ ذلك البارون فون كريمر المـؤرخ الالمانى ، ولكنه حسبها كورة من كور السواد واقعة وراء الفرات بين الكوفة والبصرة ، دخلت فى القوائم الأخرى باسم آخر (٢)•والصحيح على ما نرى أن النساخ أخطأوا فى قراءتهم « مابين » ، وصوابها « ماها » أو « ماهين » : مثنى «ماه» ، فيكون المراد «ماها البصرة والكوفة » وهما كورتان من كور الجبال، قصبة الاولى نهاوند ، وقصبة الثانية الدينور كما تقدم • ويؤيد ذلك سقوط هاتين الكورتين من قائمة ابن خلدون بالكلية

٤ ـ ماسبذان والدينار (٣) : ماسبذان من كور الجبال ، تقـدم ذكرها ، وأما « الدينار » فلا مسمى لها فى بلاد الاسلام ، وقد يتبادر الى الذهن أنها تحريف « الدينور » قصبة ماه الكوفة لو لم نكن قد وقفنا على اسم الماهين معا فى هذه القائمة ، فهى على الغالب مبدلة من « الريان » وهى كورة بقرب كسكر فى العراق (*)

وهناك غلط نسخى فى تعيين مقدار الخراج فى بعض الاقاليم صوابه ظاهر، مثل قوله عن خراج كور دجلة انه عشرون ألف ألف درهم وثمانية دراهم ، والعادة أن لا يدونوا فى الديوان آحاد الدراهم (٤) فالغالب أن يكون صوابها وثمانمائة ألف درهم • وكذلك قوله عن جباية الاهواز انها خمسة وعشرون ألف درهم ، والصواب ٢٥ ألف ألف درهم ، لأنهـا نحو ذلك فى القائمتين الأخريين • وكقـوله فى طبعة بولاق عن خـراج قومس « ألف ألف مرتين وخمسمائة ألف من نقر الفضة » ونظن الصواب « ومن نقر الفضة ألف » ، فيكون خراجهـا ٥٠٠ ٠٠٠ ١ درهم و١٠٠٠ من نقر الفضة . وكقـوله عن العسـل الوارد من الموصـل انه ٠٠٠ ٠٠٠ ٢٠ رطل والأقرب الى الصواب أن يكون ٢٠٠٠٠ رطل فقط . ومن هذا القبيل خراج مصر ، فقد ورد هناك أنه « ألف ألف ألف الخ » ، والصواب على مانرى « ألفا ألف الخ » بالقيـاس على جبايتها فى ذلك العصر • والخطأ انما وقع فى النسخ لتشابه اللفظين خطا

اما زمن هـذه القائمـة ، فقد عينه ابن خلدون صريحا فقال انه فى أيام المأمون ، ولكنه لم يعين السنة • والمأمون حكم ٢٢ سنة من سنة ١٩٦ ـ ٢١٨، وحساب بيت المال فى بغداد احترق فى الفتنة بين الأمين والمأمون ثم لم يدون

---

(١) فى السـطر ٢٦ من تلك الصـفحة (٢) Cult. gesch. des Orients 1.356 (٣) فى السـطر ٢٧ من تلك الصـفحة

(*) مما يؤسف له أن كل طبعات المقدمة ،بعد طبعة بولاق ، وقعت فى هذه الاخطاء ، ومن الغريب أن الذين أشرفوا على الطبعة الانيقة التى أخرجتها مطابع بيروت سنة ١٩٥٦ لم يعنـوا بتصويب الالفاظ التى تنبه اليها العلامة المحقق جرجى زيدان منذ نيف وأربعين سنة ، ثم يقال بعد ذلك انها طبعات علمية مراجعة مصححة ..

(٤) الطبرى ١٤٦٨ ج ٣

الحساب الا بعـــد ســـنة ٢٠٤ هـ (١) فالقائمــة المذكورة كتبت فى ما بين ٢٠٤ و٢١٨ هـ ونظراً لاختلاف خراج خراسان فيها عما وظفه المأمون على ابن طاهر سنة ٢١١و٢١٢ هـ ، فالأرجح أنها كتبت بين ٢٠٤و٢١٠ هـ

ورأينا للبارون فون كريمر المذكور انتقادا على تاريخ قائمة ابن خلدون ، خلاصته : أنها كتبت قبل عصر المأمون بعشرات من السنين ، بحيث تتصل بعصر المهدى أو الهادى أى بين سنة ١٥٨ و١٧٠ هـ ، ومن أدلته على ذلك «أنه ورد فيها ذكر خراج السند وافريقية وكانتا فى أيام المأمون قد استقلتا عن سلطة بغداد ، ولم يذكرهما قدامة ولا ابن خرداذبة » • والبارون فون كريمر لا يستخف برأيه فى تاريخ الاسلام وتمدنه وآدابه ، لأنه من أهل التحقيق والبحث ومن أكثر الألمان تمحيصا للحقائق • ولكننا نراه واهما فى حكمه على هذه القائمة للأسباب الآتية :

أولا : أن استقلال الاقاليم عن سلطة بغداد لم يكن يستلزم استقلالها عن الخلافة العباسية ، وقطع المال عنها • نعم ان افريقية استقل بها الأغالبة ، وتوارثوا الحكم فيها من سنة ١٨٤ ــ ٢٩٦ هـ ، ولكن استقلالهم هــذا لايمنع تأديتهم مالا معينا كما كان يفعل معظم الأمراء المستقلين فى مصر وخراسان وغيرهما • فانهم كانوا يخطبون لخليفة بغداد ويعتبرون أنهم تابعون له دينيا فقط ــ كذلك كان شــأن الدولة الطاهــرية فى خراسان ، والطولونيــة فى مصر (٢) ، وكان بعضهم يقــدم المال باسم الهــدية ، والبعض الآخر باســم الخراج ، أو الضمان أو غيرهما • وزد على ذلك أن افريقية لم تكن تحمل مالا الى بيت المال الا بعد سنة ١٨١ هـ ، أى بعد أن تولاها ابراهيم بن الأغلب ، وهو الذى فرض على نفسه ٤٠ ٠٠٠ دينار • فلا يبعد أن يستمر الأغالبــة على دفع مثل هذا المال الى أيام المأمون • لأن الخلفاء العباسيين ظلوا يعدون افريقية من مملكتهم كل أيام الأغالبة ، وكانوا يعينون الولاة عليها من بغداد باعتبار أن الأغالبة تحت هؤلاء الولاة (٣) ويقال نحو ذلك فى الســنــد ، بل نرى فى هذا شاهدا أقرب على صحة رواية ابن خلدون ، فان المأمون نفسه اســتعمل على السند ســنة ٢١٦ هـ عاملا اســمه عمران بن موسى العتكى(٤) على أن يحمل اليه منها مليون درهم بعــد كل نفقة (٥) ويدل ذلك على سيادته عليها ، وان كان المال المذكور أقل كثيرا ممــا ذكره ابن خلدون ، اذ يختلف المراد بحدود السند باختلاف الأزمنــة • أما عدم ورود هــذين البلدين فى قائمتى قدامة وابن خرداذبة فقــد يكون ســببه عارضا ، اما لانقطاع الخراج منهما بعد قائمة ابن خلدون ، أو لأسـباب أخرى راجعــة الى دخول بعض

---

(١) قدامــة ٢٣٦ (٢) المقريزى ٣٢١ ج ١ (٣) ابن الاثير ٤٥ ج ٧ (٤) ابن الاثير ١٧١ ج ٦
(٥) ابن خرداذبة ٥٧

Marfat.com

الاقاليم فى بعض أو غير ذلك كما سيتضح من مقابلة القائمتين التاليتين . وعلى كل حال فان افتراض هذه الاسباب أقرب الى الصواب من اتهام ابن خلدون بالخطأ أو الوهم ، وهو ثقة كثير التبصر والتمحيص (*) . وقد قال صريحا أن هذه الجباية وردت على بيت المال فى أيام المأمون

ثانيا : ان ابن خلدون استحوز على أوراق رسمية من أيام المأمون عن الدخل والخرج ، كان يرجع اليها فى تحقيق مايكتبه فى هذا الشأن ونحوه(١)

ثالثا : أن الديوان احترق فى أيام الأمين ، وقد قدمنا انه لم يدون فيه حساب الا بعد سنة ٢٠٤ هـ ، وأما ما كان منها قبل ذلك فقد ضاع

فبناء على ذلك يترجح عندنا أن يكون الحق فى جانب ابن خلدون ، وأن يكون البارون فون كريمر واهما فى اعتراضه وفوق كل ذى علم عليم

(٢) قائمة قدامة : دونها قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى فى كتابه المسمى : « كتاب الخراج » ولم يصل الينا منه الا نتف طبعت فى لايدن بعناية دى خويه المستشرق الهولندى الشهير ، وقد توفى قدامة سنة ٣٣٧هـ ، وكان أبوه نصرانيا وأسلم فى أيام المكتفى (من ٢٨٩ ـ ٢٩٥ هـ) وتولى منصبا كبيرا من مناصب الدولة العباسية ، وألف كتبا كثيرة من جملتها كتاب الخراج هذا. ويظهر أنه كتبه نحو سنة ٣١٦هـ نقلا عن أوراق رسمية اتصلت به. ويستدل من مطالعة الكتاب أن ماورد فيه من جباية البلاد يراد به جبايتها نحو سنة ٢٢٥ هـ (**)

(*) لانظن أن ابن خلدون معصوم عن الوهم فى مسائل المال والجبايات خاصة ! بل ربما كان وهمه فى هذه الناحية من أقوى المآخذ على تاريخه ، واليك امثلة بسيطة نأخذها من فصل واحد ، هو ذلك الذى يتحدث عنه المؤلف هنا وعنوانه « فى ان آثار الدولة كلها على نسبة قوتها فى أصلها » (بولاق ، المقدمة ص ١٤٨ وما يليها ـ بيروت ١٨٨٦ ص ١٥٤ وما يليها ـ بولاق ، طبعة ثانية ١٣٢١ هـ . ص ١٦٧ وما يليها) :

ـ « ... واعتبر ذلك بجوائز ابن ذى يزن لوفد قريش ، كيف أعطاهم من أرطال الذهب والفضة والاعبد والوصائف عشرا عشرا ، ومن كرش العنبر واحدة ، وأضعف ذلك بعشرة أمثاله لعبد المطلب ، وانما ملكه يومئذ قرارة اليمن خاصة تحت استبداد فارس ، وانما حمله على ذلك همة نفسه ، وما كان لقومه التبابعة من الملك فى الارض والغلب على الامم فى العراقين والهند والمغرب ... »

ـ « ... وكان الصنهاجيون بافريقية ايضا اذا أجازوا الوفد من أمراء زناتة الوافدين عليهم ، فانما يعطونهم المال احمالا والكساء تخوتا والحملان جنائب عديدة ... »

ـ « ... هذا جوهر الصقلى الكاتب قائد جيش العبيديين لما ارتحل الى فتح مصر استعد من القيروان بألف حمل من المال ، ولا تنتهى اليوم دولة الى مثل هذا ... »

وفى هذه الامثلة كفاية ...

(١) ابن خلدون ٣٢٩ ج ١

(**) ثبت الآن ان قدامة بن جعفر الكاتب لم يؤلف كتابه فى الخراج وحده ، وانما وضع موسوعة شاملة لكل ما يحتاج اليه كتاب الدولة من المعارف ، أى ان كتاب قدامة كان شبيها بكتاب صبح الاعشى للقلقشندى مثلا ، وقد عثرنا عليه قطعا متفرقة ، احداها تلك التى نشرها دى خويه عن الخراج وأخرى نشرها الدكتور طه حسين والاستاذ عبد الحميد العبادى عن « نقد النثر » ، ثم عثرنا على قطعتين اخريين الاولى هى أول الكتاب ، وفيها يعرض قدامة لمنهج كتابه وما يحويه من المباحث ، والثانية عن نقد الشعر ، ويعدهما للنشر الآن احد الاساتذة السوريين

Marfat.com

(٣) قائمة ابن خرداذبة : هوعبدالله بنخرداذبة ، وذكر صاحبالفهرست أنه كانيتولىالبريد فى بلاد الجبال،ويظهر أنه كتب وهوفىهذا المنصب كتابه « المسالك والممالك » وفيه هذه القائمة ، ويظن دى خويه ناشر هذا الكتاب أن ابن خرداذبة كتبه سنة ٢٣٢ هـ ، ثم أضاف اليه بعض الزيادات فيما بعد بحيث لا يتجاوز حوالى سنة ٢٥٠ هـ

هذه هى القوائم الثلاث ، وفيها جباية الدولة العباسية فى ابان ثروتها ، فلنوردها باعتبار قدمها.وأقدمها قائمة ابن خلدون،ثم قدامة،ثم ابنخرداذبة:

١ ـ جباية الدولة العباسية

(فى ايام المأمون ـ نقلا عن ابنخلدون) (*)

أسماء الأقاليم	من الدراهم	من الأموال والغلال
السواد	٢٧ ٨٠٠ ٠٠٠	ومن الحلل النجرانية ٢٠٠ حلة ومن طين الختم ٢٤٠ رطلا
كسكر	١١ ٦٠٠ ٠٠٠	
المجموع	٣٩ ٤٠٠ ٠٠٠	

(*) قائمة ابن خلدون التى نقلها من خط كاتبمنكتاب الخراج يسمى أحمد بن محمد بن عبد الحميد لا تخلو من مشاكل تجعل الاعتماد عليها واستخراج نتائج منها أمرا عسيرا . مثال ذلك انه يقول : غلاتالسواد ٢٧ ألف ألفدرهم **مرتين** و ٨٠٠ ألف درهم ٠٠٠ الخ ويقول فى غلات حلوان : ٤ آلاف الف درهم **مرتين** و ٨٠٠٠ درهم ، وفى خراج كرمان : ٤ آلافألف درهم **مرتين** ومائة ألف درهم . ثم يجىء الىمكران فيقول : ٤٠٠ ألف درهم **مرة** ، وبعد أن ينتهى من القائمة يقول : « وأما الاندلس فالذى ذكره الثقات أن عبد الرحمن الناصر خلف فى بيوت أمواله ٥ آلاف ألف دينار مكررة **ثلاثمرات** ، يكون جملتها بالقناطير ٥٠٠ ألفقنطار» فما معنى المرة والمرتين والثلاث مرات ؟ هل المراد أن هذا المبلغ كان يدفع على دفعتين ، كل دفعة نصف القيمة أم المراد أن هذا المبلغ يؤدى مرتين ، وبذلك تكون جباية هذه النواحى ضعف الرقم المذكور ؟

ربما شرحت لنا هذه الناحية عبارته الاخيرة عن الاندلس ، فهو يقول ان الناصر خلف فى خزائنه ٥ مليون دينار مكررة ثلاث مرات ، أى انه خلف ١٥ مليون دينار

وعلى هذا يكون المراد بلفظ مرتين هو « مكررة مرتين » وهى طريقة غير طبيعية فى تدوين الارقام

ثم ان ابن خلدون يحول مبلغ ١٥ مليون دينار الى قناطير فيقول انها ٥٠٠٫٠٠٠ قنطار من الدنانير ، وعلى هذا فيكون القنطار الواحد ٣٠ دينارا وهى قيمة غريبة للقنطار

ومع ذلك ، فنريد أن نعتمد عليها لعلنا نخرج منها بشىء

يقول ابن خلدون انه راى فى بعض التواريخ ان المحمول الى بيت مال الرشيد بلغ ٧٥٠٠

Marfat.com

أسماء الأقاليم	من الدراهم	من الأموال والغلال
	٣٩ ٤٠٠ ٠٠٠	مجموع ماقبله
كور دجلة	٢٠ ٨٠٠ ٠٠٠	(*)
حلوان	٤ ٨٠٠ ٠٠٠	
الاهواز	٢٥ ٠٠٠ ٠٠٠	وسكر ٣٠ ٠٠٠ رطل
فارس	٢٧ ٠٠٠ ٠٠٠	ومن ماء الورد ٣٠ ٠٠٠ قارورة ومن الزيت الاسود ٢٠ ٠٠٠ رطل
كرمان	٤ ٢٠٠ ٠٠٠	ومتاع يمانى ٥٠٠ ثوب و٢٠٫٠٠٠ رطل من التمر
مكران	٤٠٠ ٠٠٠	
السند وما يليه	١١ ٥٠٠ ٠٠٠	و١٥٠ رطلا من العود الهندى
سجستان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	ومن الثياب المعينة ٣٠٠٠ ثوب ومن الفانيد ٢٠ رطلا
خراسان	٢٨ ٠٠٠ ٠٠٠	ومن نقر الفضة ٢٠٠٠ نقرة و ٤٠٠٠ برذون و١٠٠٠ رأس رقيق و٢٠٠٠٠ ثوب متاع و٣٠٠٫٠ رطل أهليلج
(المجموع)	١٦٥ ١٠٠ ٠٠٠	درهم

قنطار ، فاذا قلنا ـ على حساب ابن خلدون ـ ان القنطار ٣٠ دينارا لكانت قيمة ما حمل الى الرشيد بالدنانير ٢٣٥٫٠٠٠ دينار ، وهو مبلغ غير معقول يجعلنا نشك فى قيمة هذه التقديرات التى يوردها ابن خلدون . والراى عندى أن المراد بلفظ مرتين ان هذا القدر يحمل الى الخليفة مرتين فى موعدين مختلفين ، بدليل انه يقول فى بعض الحالات : مرة فقط ، وبذلك تتغير أرقام القائمة تماما . ومن الغريب ان حسن ابراهيم حسن نقل هذه القائمة عن جرجى زيدان دون اشارة ودون تغيير فى حرف واحد

ثم ان القائمة تهمل قيمة الاشياء الاخرى التى كانت ترسل مع الاموال ، كأنها كانت هدايا ، أو زيادة على المال يرسلها الوالى من عنده ، والحقيقة أنها جزء لا يتجزأ من الخراج ، فقد كان بعضه يرسل مالا وبعضه عينا ، وهذا ثابت من أوراق البردى المصرية التى نشرها ادولف جروهمان . ومن البيانات التى نجدها فى هذه الاوراق نستطيع ان نستنتج ان هذه الاشياء العينية كانت تقدر بثلث قيمة الخراج كله أو نصفه على أكثر تقدير

وهذه حقيقة اخرى تقلل من قيمة الارقام التى يوردها ابن خلدون

وعلى اى الاحوال ، فقد تركنا الارقام فى الاصل على حالها ، على اعتبار انها تعطى فكرة عامة عن « نسب » جبايات الاقاليم بعضها الى بعض

(*) الاصل ٢٠٠٠٠٠٨ درهم وقد صوبها المؤلف وهو على حق فى تصويبه

Marfat.com

أسماء الاقاليم	من الدراهم	من الأموال والغلال
(مجموع ما قبله)	١٦٥١٠٠ ٠٠٠	درهم
جرجان	١٢٠٠٠ ٠٠٠	و ١ ٠٠٠ شقة ابريسم
قومس	١٥٠٠ ٠٠٠ (*)	ومن نقر الفضة ١ ٠٠٠ نقرة
طبرستان والريان ودماوند	٦٣٠٠ ٠٠٠	و ٦٠٠ قطعة من الفرش الطبرى و ٢٠٠ كساء و ٥٠٠ ثوب و ٣٠٠ منديل و ٢٠٠ جامة
الرى	١٢٠٠٠ ٠٠٠	و ٢٠ ٠٠٠ رطل عسل
همذان	١١٣٠٠ ٠٠٠	و ١ ٠٠٠ رطل من رب الرمانين و ١٢ ٠٠٠ رطل عسل
ماها البصرة والكوفة	١٠٧٠٠ ٠٠٠	
ماسبذان والريان**	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	و ٢٠ ٠٠٠ رطل من العسل الأبيض
شهر زور	٦٧٠٠ ٠٠٠	
الموصل وما يليها	٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠	و ١٠٠٠ رأس من الرقيق و ١٢ ٠٠٠ زق عسل وعشر بزاة و ٢٠ كساء
اذربيجان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	
الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات	٣٤ ٠٠٠ ٠٠٠	و ٢٠ من القسط (***) المحفور و ٥٣٠ رطلا من الرقم (ضرب من الوشى) و ١٠ ٠٠٠ رطل من المسايح السورماهى و ١٠ ٠٠٠ من الصوغ (نوع من الأسماك البحرية) و ٢٠٠ بغل و ٣٠ مهرا
أرمينية	١٣ ٠٠٠ ٠٠٠	
برقة	١ ٠٠٠ ٠٠٠	
إفريقية	١٣٠٠٠ ٠٠٠	و ١٢٠ بساطاً
(المجموع)	٣١٨٦٠٠ ٠٠٠	درهم

(*) فى الاصل : «الفالف مرتين وخمسمائة الفمن نقر الفضة » وقد اقترح المؤلف قراءتها هكذا : الف الف مرتين وخمسمائة (و) الف من نقر الفضة . ونظن ان الاصل مستقيم فيكون حساب خراج قومس على هذا : ١٠٠٠٫٠٠٠ مرتين + ٥٠٠٠٠٠ من نقر الفضة

(**) فى الاصل الدينار ، وقد رأى المؤلف تصويبها الى «الريان» مع ان هذا الموضوع قدذكر آنفا ، وقد استبعد أن تكون الدينور

(***) فى الاصل : البسط وفى نسخه القسط ، وقد اختار المؤلف القراءة الثانية . ونظن أن البسط اصبح فهى نوع من النسيج

Marfat.com

والجهات التالية وردت جبايتها بالدنانير:

أسماء الاقاليم	من الدنانير	من الأموال والغلال
قنسرين	٤٠٠ ٠٠٠	و ١ ٠٠٠ حمل زيت
دمشق	٤٢٠ ٠٠٠	
الأردن	٩٧ ٠٠٠	
فلسطين	٣١٠ ٠٠٠	و ٣٠٠ ٠٠٠ رطل زيت
مصر	٢ ٩٢٠ ٠٠٠	
اليمن	٣٧٠ ٠٠٠	سوى المتاع (لم يذكر)
الحجاز	٣٠٠ ٠٠٠	
(المجموع)	٤ ٨١٧ ٠٠٠	دينار وتساوى ٧٢ ٢٥٥ ٠٠٠ درهم باعتبار الدينار ١٥ درهماً وهو تقديره فى ذلك العصر
فيكون المجموع بالدراهم	٧٢ ٢٥٥ ٠٠٠	
يضاف اليه جباية الأقاليم المذكورة قبله	٣١٨ ٦٠٠ ٠٠٠	
(الجملة)	٣٩٠ ٨٥٥ ٠٠٠	درهم

وترى من النظر فى هذه القائمة أن خراج أقاليم المشرق كانوا يقدرونه بالدراهم ، وخراج أقاليم المغرب بالدنانير (الا برقة وافريقية) وسترى نحو ذلك أيضا فى القائمتين الاخريين ، والسبب على ما يظهر أن مناجم الفضة كانت أكثر فى أقاليم المشرق منها فى المغرب ، وبعكس ذلك مناجم الذهب

فمجموع جباية أقاليم المشرق (مع برقة وافريقية) ٣١٨ر٦٠٠ر٠٠٠ درهم ، ومجموع خراج سائر أقاليم المغرب ٤ر٨١٧ر٠٠٠ دينار ، حولناها الى دراهم باعتبار الدينار ١٥ درهما ، وهو صرفه فى ذلك العصر فبلغت ٧٢ر٢٥٥ر٠٠٠ درهم ، وباضافتها الى جباية أقاليم المشرق بلغ المجموع كله ٣٩٠ر٨٥٥ر٠٠٠ درهم

ورأينا فى مانقله فون كريمر من قائمة ابن خلدون بلدين هما الكرج والجيلان غير موجودين فى ما لدينا من النسخ ـ نظنه وجدهما فى نسخة فون همر برجشتال المستشرق النمسوى . خراج الاولى ٣٠٠ر٠٠٠ درهم ، والثانية ٥ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم ، وليس هنا مكان التحقيق عن صحة هذه الرواية أو عدم صحتها

Marfat.com

فيكون مجموع جباية المملكة العباسية فى أيام المـأمون نحو ٤٠٠ مليون درهم ، ما عدا الاموال والغلات مما لانعلم حقيقة قيمته ، واذا أعدت النظر فيه رأيته شيئا كثيرا . والعادة فى تقدير الجباية أن تقدر هذه الغلات بما تساويه من النقد ، ويضاف مبلغها الى مبالغ النقد ، كما فعل صاحب جراب الدولة فى غلات السواد ومعظمها فى الاصل من الحنطة ، وكمـا سترى فى تفصيل طساسيج السواد بقائمتى قدامة وابن خرداذبة

وقد تقدم أن الجباية التى كانت ترد الى بيت المـال فى بغداد انما هى صوافى ما تحصـل منها فى الاقاليم ، بعد دفع أموال الجند ونفقـات الجباية واصلاح الرى ونحو ذلك من نفقات الاقاليم ، ولم يبق على هذا المـال الا نفقات الدواوين فى بغداد للخليفة ووزرائه وكتابه ورجال بطانته . وقـد يرتاب القارىء فى رواية ابن خلدون لبعـدها عما هو مألوف عنـدنا من ميزانيات دول هذه الايام ، وما فيهن من يبقى فى صندوقها معشار هـذا المال ــ ولذلك فنأتى بالروايتين الاخريين للمقابلة بينهما وبين رواية ابن خلدون

٢ ــ جباية الدولة العباسية

(فى ايام المعتصم ــ نقلا عن قدامة بن جعفر)

كانت جباية السواد معظمها من الحنطة والشعير ، وقد ذكر قدامة مقدار كل منهما مفصلا باعتبار طساسيج السواد ، أى نواحيه فى الشرق والغرب

طساسيج السواد فى الجانب الغربى : (*)

اسم الناحية	مقدار الحنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدراهم
الانبار ونهر عيسى	١١٨٠٠	٦٤٠٠	٤٠٠٠٠٠
طسوج مسكن	٣٠٠٠	١٠٠٠	١٥٠٠٠٠
طسوج قطربل	٢٠٠٠	١٠٠٠	٣٠٠٠٠٠
« بادوريا	٣٥٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠
بهر سير	١٧٠٠	١٧٠٠	١٥٠٠٠٠
الرومقان	٣٣٠٠	٣٣٠٠	٢٥٠٠٠٠
كوثى	٣٠٠٠	٢٠٠٠	٣٥٠٠٠٠
(المجموع)	٢٨٣٠٠	١٦٤٠٠	٢٦٠٠٠٠٠

(*) يلاحظ ان قائمة ابن خلدون تختلف عن قائمة قدامة بن جعفر اختلافا واضحا ، فان ابن خلدون يذكر الجباية بحسب الاقاليم، والاقليم تقسيم جغرافى، أما قدامة فيذكرها بحسب الطساسيج، والطسوج هو القسم المالى المقابل للكورة ، وقد حاول ليسترينج فى كتابه عن « بلاد الخلافة الشرقية : Lands of the Eastern Califate » أن يحدد معنى الطسوج فلم يوفق الى نتيجة نستطيع التعويل عليها ، وحاول ذلك فيليب حتى فى ترجمته الانجليزية لفتوح البلدان للبلاذرى . وما يهمنا هنا هو أن قدامة كان كاتبا من كتاب الخراج ، فهو خبير فى هـذا الموضوع أولا وينقل عن وثائق رسمية ثانيا ، فأرقامه أولى بالثقة ، خاصة وقد عنى بتقدير قيمة الحنطة والشعير وهو الذى حدد لنا قيمة الكر ، ومن الغريب أن نتيجة الحساب عند ابن خلدون وقدامة اتفقتا تقريبا آخر الامر ، فقدامة يقدر المجموع بمبلغ ٣٨٨ر٢٩١ر٣٥٠ درهما وابن خلدون : ٣٩٠ر٨٥٥ر٠٠٠ درهم ، والموضوع كله فى حاجة الى دراسة شاملة

Marfat.com

اسم الناحية	مقدار الحنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدراهم
(مجموع ما قبله)	٢٨٣٠٠	١٦٤٠٠	٢٦٠٠٠٠٠
نهر درقيط	٢٠٠٠	٢٠٠٠	٢٠٠٠٠٠
نهر جوبر	١٥٠٠	٦٠٠٠	١٥٠٠٠٠
باروسما ونهر الملك	٣٥٠٠	٤٠٠٠	١٢٢٠٠٠
الزوابى الثلاثة	١٤٠٠	٧٢٠٠	٢٥٠٠٠٠
بابل وخطرنية	٣٠٠٠	٥٠٠٠	٣٥٠٠٠٠
الفلوجة العليا	٥٠٠	٥٠٠	٧٠٠٠٠
الفلوجة السفلى	٢٠٠٠	٣٠٠٠	٢٨٠٠٠٠
طسوج النهرين	٣٠٠	٤٠٠	٤٥٠٠٠
« عين التمر	٣٠٠	٤٠٠	٤٥٠٠٠
« الجبة والبداة	١٥٠٠	١٦٠٠	١٥٠٠٠٠
سوراو وبرنسيما	١٥٠٠	٤٥٠٠	٢٥٠٠٠٠
البرس الأعلى والأسفل	٥٠٠	٥٥٠٠	١٥٠٠٠٠
فرات بادقلى	٢٠٠٠	٢٥٠٠	٦٢٠٠٠
طسوج السيليحين	١٠٠٠	١٥٠٠	١٤٠٠٠٠
روذستان وهرمزجرد	٥٠٠	٥٠٠	٢٠٠٠٠
تستر	٢٢٠٠	٢٠٠٠	٣٠٠٠٠٠
ايغار يقطين	١٢٠٠	٢٠٠٠	٢٠٤٨٠٠
كسكر	٣٠٠٠٠	٢٠٠٠٠	٢٧٠٠٠٠
طساسيج السواد فى الجانب الشرقى :			
طسوج بزرجسابور	٢٥٠٠	٢٢٠٠	٣٠٠٠٠٠
« الرذانين	٤٨٠٠	٤٨٠٠	١٢٠٠٠٠
« نهر بوق	٢٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠
كلواذى ونهر بين	١٦٠٠	١٥٠٠	٣٣٠٠٠٠
جازر والمدينة العتيقة	١٠٠٠	١٥٠٠	٢٤٠٠٠٠
روستقباد	١٠٠٠	١٤٠٠	٢٤٦٠٠٠
سلسل ومهروذ	٢٠٠٠	١٥٠٠	١٥٠٠٠٠
(المجموع)	٩٦٢٠٠	٩٨٩٠٠	٧٠٤٤٨٠٠

Marfat.com

اسم الناحية	مقدار الحنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدراهم
(مجموع ما قبله)	٩٦ ٣٠٠	٩٨ ٩٠٠	٧ ٤٤ ٨٠٠
جلولا وجللتا	١ ٠٠٠	١ ٠٠٠	١٠٠ ٠٠٠
الذيبين	١ ٩٠٠	١ ٣٠٠	٤٠ ٠٠٠
الدسكرة	١ ٨٠٠	١ ٤٠٠	٦٠ ٠٠٠
البذنيجين	٦٠٠	٥٠٠	٣٥ ٠٠٠
طسوج برز الروذ	٣ ٠٠٠	٥ ١٠٠	١٢٠ ٠٠٠
النهروان الأعلى	١ ٧٠٠	١ ٨٠٠	٣٥٠ ٠٠٠
النهروان الأوسط	١ ٠٠٠	٥٠٠	١٠٠ ٠٠٠
بادرايا وباكسابا	٤ ٧٠٠	٥ ٠٠٠	٣٣٠ ٠٠٠
كور دجلة	٩٠٠	٤ ٠٠٠	٤٣٠ ٠٠٠
نهر الصلة	١ ٠٠٠	٣ ١٢١	٥٩ ٠٠٠
النهروان الأسفل	١ ٧٠٠	١٣ ٠٠٠	٥٣ ٠٠٠
مجموع خراج السواد	١١٥ ٦٠٠	١٣٥ ٦٢١	٨ ٨٢١ ٨٠٠

فمجموع جباية السواد باعتبارنواحيه ١١٥ر٦٠٠ كر حنطة ، و١٣٥ر٦٢١ كر شعير ، و ٨ر٨٢١ر٨٠٠ درهم . على أن هذا المجموع يختلف عما قاله قدامة المذكور بعد أن أورد خراج كل ناحية بالتفصيل ، كما تقدم ، فقد قال فى ايراد المجموع : « ذلك ارتفاع السواد سوى صدقات البصرة من الحنطة ١٧٧ر٢٠٠ كر ، ومن الشعير ٩٩ر٧٢١ كرا ، ومن الورق ٨ر٠٩٥ر٨٠٠ درهم(١) ولعل السبب فى هذا الفرق خطأ فى قراءة بعض الاعداد . على ان الفرق على كثرته لا يعتد به فيما نحن فيه . بقى علينا أن نحول الحنطة والشعير الى دراهم ، وقد فعل جعفر ذلك فحولهما باعتبار ثمن الكرين المقرونين من الحنطة والشعير ستين دينارا ، والدينار على صرف خمسة عشر درهما بدينار ، فبلغ ذلك ١٠٠ر٣٦١ر٨٥٠ درهما وقال ان صدقات البصرة ترتفع فى السنة ٦ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم ، فاذا جمعت ذلك كله بلغ ١١٤ر٤٥٧ر٦٥٠ درهما على هذه الصورة

٨ر٠٩٥ر٨٠٠ الدراهم المجموعة ورقا
١٠٠ر٣٦١ر٨٥٠ قيمة الحنطة والشعير بالدرهم
٦ر٠٠٠ر٠٠٠ صدقات البصرة
١١٤ر٤٥٧ر٦٥٠ درهما

هذا هو ارتفاع السواد ، فلنتقدم الى ايراد جبايات سائر الاقاليم فى المشرق والمغرب . وهى مع السواد :

(١) كتاب الخراج (طبعة ليدن) ٢٣٩

أقاليم المشرق	درهم	أقاليم المشرق	درهم
السواد	١١٤ ٤٥٧ ٦٥٠	آذربيجان	٤ ٥٠٠ ٠٠٠
الاهواز	٢٣ ٠٠٠ ٠٠٠	الرى ودماوند	٢٠ ٠٨٠ ٠٠٠
فارس	٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠	قزوين وزنجان وابهر	١ ٨٢٨ ٠٠٠
كرمان	٦ ٠٠٠ ٠٠٠	قومس	١ ١٥٠ ٠٠٠
مكران	١ ٠٠٠ ٠٠٠	جرجان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠
أصبهان	١٠ ٥٠٠ ٠٠٠	طبرستان	٤ ٢٨٠ ٧٠٠
سجستان	١ ٠٠٠ ٠٠٠	تكريت والطيرهان	٩٠٠ ٠٠٠
خراسان	٣٧ ٠٠٠ ٠٠٠	شهرزور والصامغان	٢ ٧٥٠ ٠٠٠
حلوان	٩٠٠ ٠٠٠	الموصل وما يليها	٦ ٣٠٠ ٠٠٠
ماه الكوفة	٥ ٠٠٠ ٠٠٠	قردى وبذيدى	٣ ٢٠٠ ٠٠٠
ماه البصرة	٤ ٨٠٠ ٠٠٠	ديار ربيعة	٩ ٦٣٥ ٠٠٠
همدان	١ ٧٠٠ ٠٠٠	أرزن وميافارقين	٤ ٢٠٠ ٠٠٠
ماسبذان	١ ٢٠٠٠ ٠٠	طرون	١٠٠ ٠٠٠
مهرجان قذق	١ ١٠٠ ٠٠٠	آمد	٢ ٠٠٠ ٠٠٠
الايغارين	٣ ١٠٠ ٠٠٠	ديار مضر	٦٠٠٠ ٠٠٠
قم وقاشان	٣ ٠٠٠ ٠٠٠	أعمال طريق الفرات	٢ ٩٠٠ ٠٠٠
		(المجموع)	٣١١ ٥٨١ ٣٥٠

أقاليم المغرب	دينار	أقاليم المغرب	دينار
قنسرين والعواصم	٣٦٠ ٠٠٠	مصر والاسكندرية	٢ ٥٠٠ ٠٠٠
جند حمص	٢١٨ ٠٠٠	الحرمين	١٠٠ ٠٠٠
« دمشق	١١٠ ٠٠٠	اليمن	٦٠٠ ٠٠٠
« الأردن	١٠٩ ٠٠٠	اليمامة والبحرين	٥١٠ ٠٠٠
« فلسطين	٢٩٥ ٠٠٠	عمان	٣٠٠ ٠٠٠
		(المجموع)	٥ ١٠٢ ٠٠٠

وبتحويلها الى دراهم باعتبار الدينار ١٥ درهما تساوى ٧٦ر٧١٠ر٠٠٠ درهم وباضافتها الى مجموع جباية أقاليم المشرق والجزيرة أعلاه يكون مجموع ذلك كله ٣٨٨ر٢٩١ر٣٥٠ درهما ، وهو ارتفاع الخراج على تقدير قدامة (١)

٣ ـ جباية الدولة العباسية

(فى أواسط القرن الثالث للهجرة ـ على رواية ابن خرداذبة)

فصل ابن خرداذبة جباية أعمال السواد كما فصلها قدامة ، وزاد على ذلك

(١) وقد رأينا اختلافا فى قائمة قدامة بين التفصيل والاجمال لعله تطرق اليها من النساخ فمحصناه بقدر الامكان

Marfat.com

عدد الشون والبيادر مما يطول بنا ايراده ، فنكتفى بذكر جملته من الحنطة والشعير والفضة ، وذلك عبارة عن ٦٣ر٤٠٠ كر حنطة ، و ٩١ر٨٥٠ كر شعير ، و ٨ر٤٥٦ر٨٤٠ درهما نقدا . وبتحويل الحنطة والشعير الى دراهم باعتبار الكرين المقرونين ستين دينارا ، والدينار ١٥ درهما كما تقدم ، بلغت قيمتها ٦٩ر٨٦٢ر٥٠٠ درهم ، وباضافة ذلك الى الدراهم المجموعة نقدا تصير الجملة ٧٨ر٣١٩ر٣٤٠ درهما

ثم فصل جباية خراسان وما يلحق بها من الاقاليم فى الدولة الطاهرية ، باعتبار ما وظف عليها سنة ٢١٢ هـ ، ومقدار ذلك جملة ٤٤ر٨٤٦ر٠٠٠ درهم ، و ١٣ دابة للركوب ، و ٢٠٠٠ شاة من الغنم ، و ٢٠٠٠ رأس من السبى الغزية ما قيمته ٦٠٠ر٠٠٠ درهم ، ومن الكرابيس الكندجية ١١٨٧ ثوبا ، ومن المرور وصفائح الحديد ١٣٠٠ قطعة نصفين . وكانت خراسان يومئذ تشمل نحوا من خمسين عملا فى جملتها الرى ، وقومس ، وجرجان ، وكرمان ، وسجستان ، ونيسابور ، وطخارستان ، والطالقان ، وأعمال ماوراء النهر ، وفيها بخارى ، والصغد ، وغيرهما . وكان الطاهريون مستقلين بها ويدفعون عنها هذه الوظيفة (أى هذا القدر من المال) . وقد اقتصرنا على اجمال ذلك خوف التطويل ، ومن أراد تفصيل جباية أعمال السواد وأعمال خراسان فليراجعها فى كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة . ولنتقدم الى اتمام قائمته عن الاعمال الاخرى مع الاجمال الذى ذكرناه :

أقاليم المشرق	دراهم	أقاليم المشرق	دراهم
السواد	٣٤٠ ٣١٩ ٧٨	قم	٢ ٠٠٠ ٠٠٠
خراسان وتوابعها	٠٠٠ ٨٤٦ ٤٤	الاهواز	٣٠ ٠٠٠ ٠٠٠
شهرزور والصامغان	٠٠٠ ٧٥٠ ٢	فارس	٣٣ ٠٠٠ ٠٠٠
ماسبذان ومهرجان قذق	٠٠٠ ٥٠٠ ٣	قزوين	١ ٢٠٠ ٠٠٠
		(المجموع)	١٩٥ ٦١٥ ٣٤٠

أقاليم المشرق	دراهم	أقاليم المغرب	دنانير
(ما قبله)	١٩٥ ٦١٥ ٣٤٠	قنسرين والعواصم	٤٠٠ ٠٠٠
ماه الكوفة	٣ ٨٠٠ ٠٠٠	جند حمص	٣٤٠ ٠٠٠
اصبهان	٧ ٠٠٠ ٠٠٠	« دمشق	٤٠٠ ٠٠٠
ديار مضر	٥ ٦٠٠ ٠٠٠	« الأردن	٣٥٠ ٠٠٠
الموصل	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	« فلسطين	٥٠٠ ٠٠٠
ديار ربيعة	٧ ٧٠٠ ٠٠٠	مصر	٢ ١٨٠ ٠٠٠
أرمينية	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	اليمن	٦٠٠ ٠٠٠
(المجموع)	٢٢٧ ٧١٥ ٣٤٠	(المجموع)	٤ ٧٧٠ ٠٠٠

Marfat.com

وبتحويل هذه الدنانير الى دراهم تبلغ ٧١ر٥٥٠ر٠٠٠ درهم ، تضاف الى مجموع جباية اقاليم المغرب اعلاه على هذه الصورة :

درهم	
٢٢٧ر٧١٥ر٣٤٠	جباية اقاليم المشرق
٧١ر٥٥٠ر٠٠٠	جباية اقاليم المغرب
٢٩٩ر٢٦٥ر٣٤٠	الجملة

مجمل جباية الدولة العباسية

وخلاصة ما تقدم أن ارتفاع الدولة العباسية كان على معظمه فى أيام المأمون ، ثم أخذ فى التناقص بعده ، ولم يظهر ذلك النقص الا بعد أواسط القرن الثالث للهجرة ، لاسباب سيأتى بيانها . واما قبل ذلك فان ارتفاع هذه الدولة كان عظيما جدا ، كما تبين من القوائم الثلاث التى ذكرناها ، وهاك ملخص لها :

درهم	
٣٩٦ر١٥٥ر٠٠٠	جباية الدولة العباسية فى ايام المأمون بين سنة ٢٠٤ و ٢١٠ هـ
٣٨٨ر٢٩١ر٣٥٠	جباية الدولة العباسية فى ايام المعتصم او بعيده الى سنة ٢٢٥.
٢٩٩ر٢٦٥ر٣٤٠	جباية الدولة العباسية فى اواسط القرن الثالث (١)
١ر٠٨٣ر٧١١ر٦٩٠	الجملة (*)

فترى من مقابلة هذه الارقام ان الفرق فى الجباية ظهر حتى فى النصف الاول من القرن الثالث ، وخصوصا اذا اعتبرت ما اغفلناه من قائمة ابن خلدون من الاموال والامتعة والمحصولات وهى من جملة الخراج . فمعدل الوارد الى بيت المال فى العام نحو ٣٦٠ مليون درهم ، وهى صوافى جباية الاعمال كما قدمنا ، مما لم نسمع بمثله فى الدول قديما ولا حديثا ـ الا اذا

---

(١) لا يخفى على المتأمل أننا عينا هذه الازمنة بالتقريب ، اذ قد يرد فى قائمة ابن خرداذبة مثلا خراج اقليم كما وظف عليه فى عهد قائمة ابن خلدون او قدامة وبالعكس ، وانما اعتبرنا فى تعيينها الاغلبية

(*) لا نظن ان هذه الارقام تعين ارتفاع الدولة الاسلامية فى عصور المأمون والمعتصم والواثق (منتصف القرن الثالث الهجرى) لاننا لا نعلم على وجه التحقيق ان كانت قائمة قدامة تعين الخراج على أيامه ، وكذلك يقال فى قائمة ابن خرداذبة ، لم اننا رأينا أن ملاحظة ابن خلدون عن خراج الدولة أيام الرشيد لا يمكن ان تكون صحيحة . وكل ما يمكن أن يقال ان هذه كلها أرقام يمكن الاستئناس بها فى اقامة دراسة شاملة للموضوع

اعتبرنا ما أورده بعضهم اجمالا بطريق العرض عن دولتى الروم والفرس . فقد قال جبن مؤرخ الدولة الرومانية أن جباية هذه الدولة ابان سطوتها ومعظم سعتها تساوى نحو ٤٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم ، منها ١٣٥ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم من آسيا (الصغرى) (١) ، وذكر ابن خرداذبة ان جباية مملكة الفرس فى ايام كسرى برويز بلغت ٤٢٠ر٠٠٠ر٠٠٠ مثقال ، او نحو ٧٢٠ مليون درهم . فاذا سلمنا بصحة هذه الارقام أعوزنا الاطلاع على طريقة الانفاق عندهم ، اذ ربما كانت تستغرق معظم هذه الجباية بخلاف الدولة العباسية كما سترى . أما ماخلا هاتين الدولتين فالفرق بين جبايتها وجباية هذه الدولة عظيم جدا . فالدولة العثمانية بلغت معظم سعتها فى ايام السلطان سليمان القانونى فى أواسط القرن العاشر للهجرة ، ولم يزد ارتفاع جبايتها فى ايامه على ٨ر٠٠٠ر٠٠٠ دوكات (٢) أو نحو ٢ر٨٤٣ر٧٥٠ جنيها مصريا ، فأين ذلك من جباية الدولة العباسية فانها تزيد على اضعافه ؟ وقس على ذلك دول هذه الايام باعتبار ما يبقى فى صندوقها كما سيأتى

ولنتقدم الى الكلام فى الجهات التى كانت تنفق فيها الاموال

نفقات الدولة العباسية

لم نر فيما كتبه المؤرخون القدماء فى العربية نصا يتعلق بهذا الشأن ، ولا ندرى اذا كانوا فعلوا ذلك عمدا أو ضاع ماكتبوه فى ثنيات الزمان . على أن مؤرخى المسلمين قلما دونوا حوادث التمدن الاسلامى أو ما هو فى معناه ، كمقدار الدخل أو الخرج وثروةالمملكة وحال العلم ، أو نظام الهيئةالاجتماعية غير ما جاء عرضا فى أثناء ذكر الوقائع الحربية ، أو وصف مجالس الطرب — الا ابن خلدون ، فقد أورد جباية الدولة فى عرض الكلام عن بذخها فى ابانها . وأما قدامة وابن خرداذبة فقد ذكر مقدار الخراج فى عرض الكلام عن طرق البريد . وقد ذكر الخراج ايضا بعض أصحابالتقاويم (الجغرافية) ولكن احدا منهم لم يذكر شيئا عن الشؤون التى تنفقفيها الاموال المجموعة من الخراج فى العصر الذى نحن فى صدده

على أننا بالقياس على ما عرفناه من أحوال ذلك التمدن ، نرجح أن المال المشار اليه كان يوضع فى بيت المال ، بعد دفع رواتب الجند والكتاب والقضاة وسائر ارباب المناصب فى دواوين الحكومة فى بغداد ، والموظفين الذين قد تعينهم الحكومة من بغداد وتدفع رواتبهم من بيت مالها ولو كانت

---

(١) Gibbon's Roman Empire 1.110

(٢) Porter's Conts, Hist. of Turkey, Ms.

Marfat.com

اعمالهم فى الخارج مثل عمال البريد (١) وغيرهم . وما بقى من اموال الجباية بعد هذه النفقات يوضع فى بيت المال تحت اجتهاد الخليفة (٢)

أما مقدار ما كان ينفق على الجند المقـــيدين فى الدواوين وغيرهم فمما لايمكن القطع فيه ، لانه يختلف باختلاف العصور واحوال الخلفاء ، ولم نقف على شيء صريح فى هذا الشأن فى العصر العباسى الاول ولا فى غيره

على أننا توفقنا بهمة البارون فون كريمر الى قائمة تشمل ما اشـــترطه احمد بن محمد الطائى على نفسه أن يقدمه من ضمانه الى بيت المـال ـ وفيه ما كان ينفقه بيت المال فى بغداد فى السنين الاولى من خلافة المعتضد العباسى (سنة ٢٧٩ هـ) (٣) وقد عين فيه مقدار المال اللازم لـكل فئة من فئات الموظفين الذين تدفع رواتبهم من بيت المال ، وجملة ذلك ٢ر٥٠٠ر٠٠٠ دينار فى السنة ، تدفع مياومة باعتبار كل يوم سبعة آلاف دينار ، تفرق فى الجند وموظفى الدواوين والخدم وغيرهم على هذه الصورة :

نفقات الدولة العباسية

فى أيام المعتضد بالله سنة ٢٧٩ هـ بالمياومة

دينار فى اليوم	
١٠٠٠	ارزاق أصحاب النوبة(*) ومن يرسمهم من البوابين وفيهم البيضان(**) من الجنابيين (***) والبصريين واصحاب المصاف (****) بباب العامة وغيرهم والسودان واكثر مماليك الناصر
١٠٠٠	أرزاق الغلمان الذين اعتقهم الناصر (هو الموفق بن المتوكل) (*****) ويعرفون بالغلمان الخاصة
٢٠٠٠	المجموع

(١) ابن خرداذبة ١٥٣

(٢) الماوردى ١٧٩

(٣) Einnahmebudget des Abbasiden Reiches

(*) اى الذين يقومون بحراسة القصر بالمناوبة

(**) اى الذين يلبسون الخوذات الحديدية المسماة بالبيضات

(***) اى الذين يأتون من خارج بغداد من الجانبين الشرقى والغربى

(****) اى الجند القائم بالحراسة بباب العامة

(*****) لم أفهم هذه الاشارة

Marfat.com

دينار فى اليوم	
٢٠٠٠	(مجموع ما قبله)
١٥٠٠	أرزاق الفرسان من الأحرار المميزين
٦٠٠	أرزاق المختارين ، وهم جنود منتخبون من كل قيادة ، وقد عرفوا بالشهامة والشجاعة
٥٠٠	أرزاق المثبتين فى أيام الناصر
١١٠	أرزاق سبعة عشرصنفا من المرسومين بخدمة الدار ، والرسائل الخاصة ، والقراء ، وأصحاب الاخبار ، والمؤذنين ، والمنجمين، والفنجاميين ، وأصحاب الاعلام ، والبوقيين ، والمضحكين ، والطالبين ، وغيرهم
٥٠	المرتزقة برسم الشرطة فى مدينة السلام ، وغيرها
٣٠٠	أثمان أنزال المماليك ، وغيرهم
٢٣٣٠½	نفقات المطابخ الخاصة والعامة ، والمخابز ، وانزال الحرم ، والحشم ، ومخابز السودان
١٠٠	ثمن وظائف الشراب للخاصة والعامة ، وآلاته ، ونفقات خزائن الكسوة ، والخلع ، والطيب،وحوائج الوضوء ، وخزائن السلاح ، والفرش الخ
٤	أرزاق السقائين بالقرب فى القصر ، والخزائن ، والمخابز ، والدور ، والحجر ، والخدم ، الخ
١٦٧	أرزاق الخاصة ومن يجرى مجراهم من الغلمان والمماليك ، دون الاكابر الاحرار ، ومن أضيف اليهم من الحشم القدماء
١٠٠	أرزاق الحشم من المستخدمين فى شراب العامة ، وخزائن الكسوة ، والصناع من الصاغة ، والخياطين ، والعقادين ، والاساكفة ، والحدادين ، والرفائين ، والمطرزين ، والنجادين، والوراقين، والعطارين ، والمشهرين ، والنجارين ، والخراطين، والاسفاطيين ، وغيرهم الخ
١٠٠	أرزاق الحرم
٤٠٠	ثمن علوفة الكراع فى الاصطبلات الخمسة
٦٦٠½	ما يصرف من ثمن الكراع ، والابل ، والخيل الخ
٦٣٠١	(المجموع)

Marfat.com

دينار فى اليوم	
٦٣٣١	(مجموع ما قبله)
٣٠	أرزاق المطبخيين
٣٠	« الفراشين ، والمحلبيين ، وخزان الفرش ، والحمالين
	« أصحاب الركاب ، والجنائب ، والسروج ، ومن يخدم فى دواب البريد
٤٤	« الجلساء ، وأكابر الملهين ، ومن يجرى مجراهم
٢٣½	« جماعة من المتطببين ، وتلامذتهم الخ
٧٠	« أصحاب الصيد من البازياريين ، والفهادين ، والكلابزريين وغيرهم
١٦⅔	« الملاحين فى الطيارات ، والشذات ، والحراقات ، وغيرها من السفن
٤	ثمن النفط والمشاقة للنفاطات ، والمشاعل وأجرة الرجال لخدمتها
١٥	الصدقة التى تحضر كل يوم عند صلاة الصبح فى خرقة سوداء
٣⅓	جارى أولاد المتوكل
١٦⅔	« « الواثق
١٦⅔	« « الناصر
٢٠	أرزاق مشائخ بنى هاشم ، وأصحاب المراتب ، والخطباء فى المساجد
٣٣⅓	أرزاق جمهور بنى هاشم من العباسيين ، والطالبيين
٣٣⅓	جارى عبيد الله بن سليمان (الوزير) مع خمس مئة دينار للقاسم ابنه (فى الشهر) برسم العرض
١٥٦⅔	ارزاق اكابر الكتاب ، واصحاب الدواوين ، والخزان،والبوابين والمديرين ، والاعوان ، وسائر منفىالدواوين ، وثمنالصحف والقراطيس والكاغد ــ سوى كتاب دواوين الاعطاء وخلفائهم على مجالس التفرقة وأصحابهم ، وأعوانهم ، وخزان بيتالمال، فانهم ياخذون ارزاقهم بما يوفرونه منأموال الساقطين،وغرم المخلين بدوابهم
١٦⅔	جارى اسحق بن ابراهيم القاضى ، وخليفته يوسف بن يعقوب والد ابى عمر ، واولادهما ، وعشرة نفر من الفقهاء
٥٠	نفقات السجون ، وثمن أقوات المحبسين
٦٩٤٥⅔	(المجموع)

Marfat.com

دينار فى اليوم	
٦٩٤ د ٢/٣	(مجموع ما قبله)
٣ ١/٣	جارى المؤذنين فى المسجدين ، والمكبرين ، والقوام ، والائمة ، وثمن الزيت للمصابيح ، والحصر ، والبوارى ، والماء ، وثمن الستار للصيف ، والجلباب والخزف ، والعمارة فى شهر رمضان
١٩	نفقات الجسرين ، وثمن ما يبدل من سفنهما ، وأرزاق الجسارين
١٥	نفقات البيمارستان الصاعدى ، ولم يكن يومئذ غيره ، وأرزاق المتطببين والمأانين والكحالين ، ومن يخدم المغلوبين على عقولهم ، والبوابين ، والجنازين ، وغيرهم ، وأثمان الطعام والادوية والاشربة
٦٩٧٤	(الجملة)

فالمجموع نحو سبعة آلاف دينار ، وذلك نفقات الدولة العباسية فى اليوم الواحد من أيام المعتضد (سنة ٢٧٩هـ) ، ومجموع ذلك فى السنة نحو مليونين ونصف(٠٠٠ ٥٠٠ ٢ دينار) • فاذا فرضنا نفقاتها فى أيام المأمون والمعتصم نحو ذلك ــ وهى فى اعتقادنا يجب أن تكون أقل من ذلك بالنظر الى تكاثر الغلمان والمماليك فى أواخر القرن الثالث عما كان فى أوائله ــ فاذا فرضنا النفقات واحدة فى أيام المأمون والمعتضد ، وحولناها الى دراهم باعتبار الدينار عشرين درهما على الاكثر ، بلغ ذلك ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٥٠ درهم ، فاذا أسقطناها من معدل الجباية الذى ذكرناه وهو ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٣٦٠ درهم ، كان انباقى ٠٠٠ ٠٠٠ ٣١٠ درهم ، أو قل ٣٠٠ مليون فقط . فالدولة التى يبقى فى بيت مالها هذا المبلغ العظيم كل سنة تعد فى معظم الثروة ، لأننا لم نسمع بدولة من الدول يبقى فى صندوقها نصف هذا المال ، أو ربعه ، أو عشره ، الا ما قدمناه عن دولتى الروم والفرس

وزد على ذلك أن هذه النفقات جزء صغير من مال الجباية ، لأنها عبارة عن خراج ما ضمنه الطائى من البلاد ، وهى سقى الفرات ، ودجلة ، وجوخى ، وواسط ، وكسكر ، وطساسيج نهربوق ، والذيبين ، وكلواذى ، ونهربين ، والرذانين وطريق خراسان ، وكلها من العراق ، وهى بعضه كما يتضح ذلك من مراجعة قائمة قدامة ــ فلا مشاحة فى أن نفقات الدولة العباسية كانت تستخرج من خراج بعض أعمالها

تقدير هذه الثروة بنقود هذه الايام (سنة ١٩٠٣)

ولكى ينجلى لنا مقدار هذه الثروة بالنظر الى التمدن الحديث ، يجب أن نحولها الى نقود هذه الايام • وقد تقدم أن الدينار كان صرفه فى النصف

الاول من القرن الثالث ١٥ درهما ، فمقدار هذه الثروة بالدنانير ٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار ، ويقدرون الدينار بنقود هـذه الايام بنصف جنيـه ، فيكون مجموع الباقى فى بيت المال فى السنة يساوى عشرة ملايين من الجنيهات

ثم ان قيمة النقود تختلف باختلاف ما تستبدل به من المحصـولات ، او ما يستخدم به من الرجال، فصـاحب الف جنيه فى بلاد يباع فيهـا اردب الحنطة بخمسين قرشا ، يعد بمنزلة صاحب الفين فى بلاد يباع فيها الاردب بمائة قرش

ويختلف ذلك فى البلد الواحد باختلاف العصور ، فصاحب بضعة آلاف قرش كان يعد عندنا فى أوائل القرن الماضى من الاغنياء ، لأن حاجيات الحياة كانت رخيصة جدا، ثم أخذت أثمانها تتصاعد بتكاثر الناس، وتفننهم فى طرق المعائش ، ولأسباب أخرى ، حتى أصبح هذا المبلغ مما ينفقه أوساط الناس فى شهر واحد • وقد لاحظنا فرقا واضحا فى سعر الذهب فى الاعوام الاخيرة بمصر ، يجدر بالحكومة أن تتنبه له وتراعيه لعلاقته برواتب مستخدميها ـ وذلك أنه بالنظر الى تصاعد أثمـان المآكل وأجـور المساكن ، زادت نفقات البيوت نحو الربع عما كانت عليه منذ خمسة أعوام أو ستة ، فالموظف الذى كان ينفق على عائلته ألف قرش فى الشهر مثلا أصبح لايكفيه أقل من ١٢٥٠ أو ١٣٠٠ قرش ، والراتب الذى كان يتقاضاه لا يزال واحدا، ويعبر عن ذلك بنزول قيمة الذهب ـ فأصـحاب الرواتب المعينـة ينبغى أن تزداد رواتبهم كلما غلا السعر (*)

فللوقوف على حقيقة ثروة المملكة العباسية بالنظر الى قيمة نقود هذه الايام، يجب أن نقابل بين أثمان المحصولات يومئذ وأثمانها اليوم وأجور العمـال فى العصرين • وقد رأيت فيما تقدم أن ثمن الكر من الحنطة والشعير فى أيام قدامة (١) ثلاثون دينارا ، والكر العـراقى أربعون أردبا (٢) ، والاردب من الحنطة والشعير اليوم يقدر بنحو جنيه ، فالاربعون أردبا بأربعين جنيها أو ثمانين دينارا أى نحو ثلاثة أمثاله فى تلك الايام

وكانت أجرة الاستاذ البناء فى أيام المنصور قيراط فضة ، والروزكارى (الفاعل) حبتين (٣) والقيراط فى العراق جـزء من عشرين من الدينار (٤) والحبـة جزء من ستين منـه فكأن أجرة الاسـتاذ بنقود هـذه الايام

(*) تركنا هذه الفقرة على حالها لاهميتها الكبرى بالنسبة لمن يؤرخ لتطور الحياة الاقتصادية فى مصر الحديثة ، والمؤلف مشكور على ايرادها ، وان كان مكانها الحقيقى فى الهامش

(١) قدامة ٢٣٩ (٢) محيط المحيط

(٣) ابن الاثير ٢٧٢ ج٥ (٤) محيط المحيط

ثلاثة أرباع الدرهم أى نحو ثلاثة قروش · وأجرة الفاعل قرش ، وذلك نحو ثلث أجرته اليوم (سنة ١٩٠٣) أو ربعها · فالنقود فى ايام العباسيين كانت تساوى ثلاثة اضعاف ما تساويه اليوم على الاقل (*) · فالباقى فى بيت مال العباسيين فى السنة يساوى ثلاثين مليون دينار بنقود هذه الايام ، وكانت توضع فى بيت المال تحت تصرف الخليفة واجتهاده ، يستخدمها فى الجهات التى يريدها أو تتراءى له فيها مصلحة للدولة ـ فهل نستغرب بعد ذلك اذا قيل لنا ان الخليفة الفلانى أعطى شاعرا مائة ألف درهم أو عشرة آلاف دينار ، ونحن نرى أغنياءنا اليوم يبتاعون الصورة القديمة بمائة ألف جنيه ، والقطعة من الآثار القديمة (الانتيكة) بنصف مليون جنيه أو مليون ؟ وانما ذلك من نتائج الغنى الفاحش

وليس فى دول هذه الايام (سنة ١٩٠٣) ما يزيد الباقى فى صندوقها على مليون واحد الا نادرا ، مع أن مصادر الدخل عندها زادت عما كانت عليه فى أيام العباسيين · خذ انجلترا مثلا ، وهى من أعظم الدول الآن ، فان دخلها لعام ١٩٠٠ بلغ نحو ١٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه منها :

جنيه		
٢٢ ٠٠٠ ٠٠٠	ضرائب المشروبات الروحية والتبغ والشاى	
٣٢ ٠٠٠ ٠٠٠	قيمة الرخص على بيع هذه المشروبات ونحوها	
١٨ ٥٠٠ ٠٠٠	ضريبة الايراد	
١٣ ٠٠٠ ٠٠٠	طوابع البريد	
٣ ٠٠٠ ٠٠٠	من التلغراف	
٨ ٥٠٠ ٠٠٠	طوابع للعقود ونحوها	
٩٧ ٠٠٠ ٠٠٠	(المجموع)	

فترى من هذا المجموع أن نحو أربعة أخماس دخل هذه الدولة من مصادر لا يكاد يكون لها أثر فى صدر الدولة العباسية

(*) اذا اخذنا تقدير المؤلف أساسا استطعنا أن نقول ان مستوى الحياة فى مصر ارتفع نحو سبع مرات منذ سنة ١٩٠٣ الى اليوم، فهو يقول ان اجر عامل البناء أيام الدولة العباسية كان قرشا فى اليوم واجره فى سنة ١٩٠٣ ثلاثة أضعاف ذلك أو أربعة أى أن أجره كان ما بين ثلاثة قروش او اربعة ، فاذا أخذنا المتوسط وهو ٣٫٥ قرشا وذكرنا أن أجر الفاعل اليوم ٢٠ قرشا فى اليوم فمعنى ذلك أن الاجور ارتفعت سبع مرات تقريبا ، ومعنى ذلك أن مستوى الاسعار يبلغ اليوم سبعة أضعافه بالنسبة لسنة ١٩٠٣ فى مصر

اما قوله ان قيمة النقود أيام العباسيين كانت ثلاثة أضعاف قيمتها سنة ١٩٠٣ (و ٢١ مرة قدر قيمتها اليوم) فملاحظة طيبة ، وانما ينبغى ان نذكر أن الناس اذ ذاك كانوا يتعاملون بالمعدن نفسه ، أى أن الدينار كان دينارا ذهبيا والدرهم كان درهم فضة ، ومن الطريف أن نلاحظ أن قيمة الجنيه الذهب ارتفعت منذ سنة ١٩٠٣ سبعة أضعاف بالنسبة لسعر الجنيه الورق ، اى ان قيمة الذهب لا زالت كما هى تقريبا

Marfat.com

ويغلب فى نفقات الدول الحديثة أن تساوى دخلها او يبقى لها باق قليل جدا يندر أن يزيد على مليون جنيه ، وكثيرا ما يعجز صـندوقها عن القيـام بالنفقات كلها ، لحدوث ما يدعو الى زيادة النفقة كالحروب ونحوها ، كماحدث لانجلترا فى الاعوام الاخيرة أثناء حربها فى جنوبى افريقيا حتى اضطرت الى الاستقراض كما هو مشهور ـ فما هو السبب فى الفرق بين ميزانيـة دول هذه الايام وميزانية الدولة العباسية ؟ لا يتضح لنا ذلك الا اذا ذكرنا اسباب الثروة العباسية فنقول :

Marfat.com

أسباب الثروة العباسيَّة

من القضايا البديهية أن مثل هذه الثروة لا يتأتى الا اذا كان الدخل كثيرا وكانت النفقة قليلة • والثروة المشار اليها عبارة عن الباقى من اسقاط الخرج وهى سبل النفقة ونرى الفرق بينهما ، ونبين أسباب كثرة الاولى وقلة الثانية

مصادر الجباية

كانت الجباية فى أوائل الهجرة قاصرة على الزكاة ، ثم حدثت الغنائم بعد واقعة بدر الكبرى ثم الجزية لمن صالح على نفسه من نصارى جزيرة العرب ويهودها. وتوفى النبى (صلعم) ومصادر الجباية الزكاة والغنائم والجزية • فلما كانت الفتوح فى الشام والعراق ومصر وضعوا الخراج والعشور على الارض والمكس على التجارة ، وانقضت دولة الراشدين وهذه مصادر الجباية • وما زال الحال على ذلك فى أيام بنى أمية مع ما فرضوه من الضرائب غير القانونية واستخدموه من العنف فى تحصيلها كما تقدم • ومما وضعوه فى أيامهم ضرائب الاسماك وضعها محمد بن مروان فى أثناء ولايته أرمينيا سنة ٧٢ هـ (١) ونظنهم وضعوا أيضا أعشار السفن وهى العشور التى تؤخذ من المراكب المارة فى البحار • واخماس المناجم التى تحفر لاستخراج المعادن منها • وما زالت مصادر الجباية تزداد وتتفرع حتى أصبحت فى أيام العباسيين عديدة ترجع الى أحد عشر وهى :

(١) الصدقة أو الزكاة
(٢) الجزية
(٣) الخراج
(٤) المكوس (الفردة)
(٥) الملاحات والأسماك
(٦) أعشار السفن
(٧) أخماس المعادن (أى المناجم)
(٨) المراصد (الجمارك)
(٩) غلة دار الضرب (*)
(١٠) المستغلات
(١١) ضرائب الصناعة وغيرها

---

(١) ابن الاثير ١٩٦ ج ٤

(*) كانت العملة فى العصور الاسلامية سلعة كغيرها تباع وتشترى ، وكانت أسعارها تقدر بمقدار ما فيها من الذهب والفضة ، وكان الناس يأخذونها لهذا وزنا لا عدا ، لان وسائل سك النقود لم تكن دقيقة ، فكان بعض الدنانير والدراهم يخرج من السك ووزنه اقل أو أكثر من الوزن الرسمى ، ولهذا يقولون : « وزن له ألف دينار » ومعناه انه أخذ وزن ألف دينار صحيحة ، وقد يكون ما يأخذه اقل أو أكثر من ألف دينار صحيحة الوزن . وكانت الدولة توكل الى بعض الناس أمر سك النقود فى مقابل دفع مبلغ للدولة ، فيحصل على الذهب من أى طريق يريد ويسكه نقودا صحيحة وازنة ويبيعها للناس بسعر العملة الرسمية ، ويكسب الفرق ، وهذا المبلغ الذى تتقاضاه الدولة من صاحب احتكار سك العملة هو الذى يسمى غلة دار الضرب أو غلة السكة

على أن العمدة فى زيادة الثروة انما هى على الخراج ، حتى انهم سموا مجموع الجباية خراجا باطلاق البعض على الكل . فاذا قالوا خراج فارس مقداره كذا وكذا أرادوا مجموع جبايتها من كل الضرائب . وعليه فلنبحث أولا فى الخراج وسبب كثرته فى العصر العباسى الاول ، ثم نلم بالضرائب الاخرى على وجه الاختصار

اسباب كثرة الخراج

الخراج ما يوضع من الضرائب على الارض او محصولاتها ، ولكثرته فى الدولة العباسية اسباب اهمها أربعة ، وهى :

١ ــ سعة المملكة العباسية

لما كان المعول فى مقدار الجباية على الخراج ، فجباية المملكة تتعاظم بزيادة مساحة أرضها وخصب تربتها . والمملكة الاسلامية فى العصر العباسى الاول كانت عظيمة الاتساع جدا ،بل هى أوسع ممالك التمدن القديم (وخصوصا اذا اعتبرنا أسبانيا منها) الا مملكة الاسكندر فربما قاربتها

أما مساحة المملكة العباسية فتقديرها انما يعرف من مساحات الممالك التى قامت مقامها اليوم ، وهى :

مساحة المملكة العباسية
فى القرن الثالث للهجرة

أسماء البلاد	الدولة التابعة لها سنة ١٩٠٣	مساحتها بالأميال
ايران كلها	شاه العجم	٦٢٨ ٠٠٠
أفغانستان	مستقلة	٢١٥ ٠٠٠
بلوجستان	انجلترا	١٢٠ ٠٠٠
السند	انجلترا	٤٨ ٠٠٠
تركستان روسيا فقط	روسيا	٢٥٧ ٠٠٠
بلاد القوقاز (تفليس)	روسيا	١٥ ٣٠٠
أرمينية وكردستان	تركيا	٧٢ ٥٠٠
العراق والجزيرة	تركيا	١٠٠ ٢٠٥
سوريا وفلسطين	تركيا	١٠٩ ٥٠٩
جزيرة العرب (منها)	تركيا	٢٠٠ ٠٠٠
القطر المصرى	تركيا	٤٠٠ ٠٠٠
النوبة وبعض السودان	السودان	٣٠٠ ٠٠٠
(المجموع)		٢ ٥٧٥ ٥١٤

Marfat.com

أسماء البلاد	الدولة التابعة لها سنة ١٩٠٣	مساحتها بالأميال
	« مجموع ماقبله »	٢ ٥٧٥ ٥١٤
طرابلس الغرب	تركيا	٣٩٨ ٠٠٠
جزائر الغرب	فرنسا	١٨٤ ٥٠٠
تونس	فرنسا	٥١ ٠٠٠
مراكش (*)	مستقلة	٢١٩ ٠٠٠
	(المجموع)	٣ ٣٢٨ ٠١٤

فمجموع مساحة هذه المملكة ١٤ .ر٣٢٨ر٣ ميلا مربعا ، وذلك نحو مساحة أوربا كلها . فخراج ممالك أوربا لو جباه المسلمون لم يزد على خراج مملكتهم ، فاعتبر عدد تلك الممالك وفيها أعظم دول الارض اليوم . فلو كان اعتماد تلك الدول فى جبايتها على الخراج لما استقام أمرها ، وانما عمدتها على ضرائب المشروبات الروحية والجمارك كما تقدم

على أن سعة المملكة العباسية لا تكفى وحدها لتعليل ثروتها ، لان المملكة العثمانية بلغت من السعة فى ايام السلطان سليمان القانونى مايقرب من سعة مملكة بنى العباس ، ومع ذلك فان الجباية فى أيامه لم تزد على ٧٥٠ر٨٤٣ر٢ جنيها مصريا كما رايت ، وانما ساعد الدولة العباسية على ذلك اهتمام الناس بالزراعة وثقل الضرائب وخصب الارض وغير ذلك

٢ ـ اشتغال الناس بالزراعة

قلنا فى كلامنا عن بيت المال فى عصر الامويين أن عمالهم كانوا يسيئون الى أصحاب الخراج من الرعايا ، بما يستعملونه من العنف والعسف فى تحصيلها ، فتشاغل الناس عن الزرع فأهملت الارض ، وزادها اهمالا انتشاب الفتن والحروب فى العراق وفارس وسائر انحاء المملكة الاسلامية ، ونقم الناس على حكومتهم وأبطلوا الزراعة نكاية فيها ولقلة انتفاعهم بها ، فأصبح معظم البلاد خرابا من الاهمال (١) وفيها الضياع والمزارع . فلما تولى العباسيون ، ونشروا لواء العدل ، واحسنوا معاملة اهل الذمة والموالى ، وامنوهم على حقوقهم واموالهم وارواحهم ، عاد الناس الى الاشتغال بالزرع وغيره

وكان للخلفاء الاولين من بنى العباس عناية كبرى بتأييد الامن وتعمير البلاد ، ورعاية اهلها من الذميين والموالى . فالمنصور كان يتتبع العمال

(*) سبق ان اوردنا فى الجزء الاول من هذا الكتاب الوضع السياسى لكل هذه البلاد فى ايامنا هذه

(١) الفخرى ١٥٧

Marfat.com

الظالمين ويأخذ أموالهم ، ويستبدل بهم سواهم ويضع مايأخذه من اموالهم فى بيت مال مفرد سماه بيت مال المظالم (١) وكان يبعث الى الاطراف يسأل عن أسعار الغلة لئلا يظلم الناس بعضهم بعضـــا ، ويبحث عن كل ما يقضى به القضاة او يعمل به الولاة ، وعما يرد الى بيت المال وعن كل مايحدث . فاذا رأى الاسعار تغيرت سأل عن السبب ، واذا شك فى شىء مما قضى به القاضى سأله ووبخه (٢) ، وبعد أن كان الموالى كالارقاء فى أيام بنى امية اصبحوا فى أيام العباسيين هم اهل الدولة وحماة الخلافة ، يوصى الخلفاء بعضهم بعضا برعايتهم وخصوصا آل خراسان ، فقد أوصى المنصور ابنه المهـدى قائلا : « أنظر الى مواليك ، فأحسن اليهم وقربهم ، واستكثر منهم ، فانهم مادتك لشدتك اذا نزلت بك ، وأوصيك باهل خراسان خيرا ، فانهم انصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم ودماءهم فى دولتك » (٣) . وكذلك فعل المأمون وغيره . وكان المنصور يشغل نهاره فى النظر فى الخراج والنفقات ، ومصلحة معـاش الرعية والتلطف معهم مما يؤدى الى اطمئنانهم وهدوئهم . ومن وصاياه لابنه المذكور : « يا بنى لا يصلح الســـلطان الا بالتقوى ، ولا تصلح رعيتـه الا بالطاعة ، ولا تعمر البلاد بمثل العدل »

وأدلة عدل الخلفاء العباسيين الاولين وتقواهم ورفقهم كثيرة . فقد كان المهدى يجلس للمظالم فينصف الناس من عماله وقضاته وأهله . وأخبـار الرشيد فى العدل أكثر من أن تحصى ، وكان اذا ذكروا الظلم بين يديه بكى. من أمثلة ذلك أنه كان قد حبس أبا العتاهية وجعل عليه عينـــا يأتيـه بما يقول ، فرأوه يوما قد كتب على الحائط :

أما والله ان الظـلم لؤم ... وما زال المسىء هو الظلوم
الى ديان يوم الدين نمضى ... وعند الله تجتمع الخصوم

فأخبر بذلك الرشيد ، فبكى واحضره واستحله وأعطاه الف دينار . وله مع ابى العتاهية حديث أغرب من هذا ، وهو أن الرشيد اولم وليمة ووضع طعاما ، وطلب الى أبى العتاهية أن يصف ماهم فيه من النعيم ، فقال :

عش ما بدا لك ســالما ... فى ظل شـاهقة القصور
يسعى عليك بما اشتهيـ ... ـت لدى الرواح وفى البكور
فاذا النفـوس تقعقعت ... فى ظل حشرجة الصدور
فهنـــاك تعلم موقنـا ... ما كنت الا فى غـــرور

فبكى الرشيد ، فقال الفضل بن يحيى : « بعث اليك امير المؤمنين لتسره فحزنته » فقال الرشيد : « دعه . رآنا فى عمى فكره ان يزيدنا » (٤)

---

(١) ابن الاثير ١٣ ج ٦ (٢) الطبرى ٤٣٥ ج ٣
(٣) ابن الاثير ٨ ج ٦ (٤) ابن الاثير ٨٨ ج ٦

Marfat.com

وامثلة ذلك كثيرة عن الرشيد والمامون مما لا يستوعبه كتاب . فكيف لا يستتب الامن فى ظل هؤلاء ؟ ولماذا لا تخصب الزراعة وتتسع التجارة فى حمايتهم ؟ وكيف لا يتقاطر الناس الى جوارهم والاستهلاك فى خدمتهم ؟ وكيف لا تعمر البلاد فى ظل العدل وهو ميزان نصبه الله بين عباده فلاعمران الا فى ظله ولا حياة الا به ؟ ولا يتم عز للسلطان الا بالعدل ، اذ لا عز للملك الا بالرجال ، ولا قوام للرجال الا بالمال ، ولا سبيل الى المال الا بالعمارة ، ولا سبيل الى العمارة الا بالعدل (١) والعدل اساس الملك

ومما ساعد على عمران المملكة العباسية ، أن الخلفاء كانوا يبذلون جهدهم فى تعمير ما تركه الامويون خرابا من الضياع والمزارع ، بتسليمها الى من يصلحها ويعمرها (٢) فضلا عما كانوا يبذلونه من العناية فى شق الانهر (*) وانشاء السدود وغيرها مما يسهل الرى

السواد

فعمرت بذلك البلاد وكثرت غلتها ، وخصوصا السواد (أو العراق) ، فانه من اخصب بقاع الارض ، واذا راجعت ما ذكرناه من جبايته رأيت خراجه ١٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، وذلك نحو ثلث خراج المملكة كلها . والسواد كثير الجباية من أيام الفرس ، فقد جباه قباذ بن فيروز ١٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم (٣) وجباه كسرى بن قباذ ٢٨٧٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم (٤) وجباه غيرهما من ملوك الفرس ١٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، سوى ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ من الوضائع لموائد الاكاسرة (٥) ــ كانوا يجبون ذلك على غير ظلم ولا عسف ، ولكنهم كانوا يعتنون بالرى فيحفرون الترع ويبنون السدود والجسور ، ووادى الفرات كما لا يخفى كثير الشبه بوادى النيل من جملة وجوه لخصب تربته وغزارة مائه ، وهو يفيض مثله كل سنة ولكن الفرات ودجلة يجريان من الشمال الى الجنوب ويفيضان فى الشتاء ، والنيل يجرى من الجنوب الى الشمال ويفيض فى الصيف . ويحتاج السواد بعد كل فيضان الى اصلاح ما تخرب من الجسور ونحوها بطغيان الماء

وكان ماء دجلة يجرى قديما غير مجراه اليوم . اى انه كان يجرى مثل مجراه اليوم من بغداد جنوبا الى المدائن فالدير فالعاقول فجرجرايا فجابول الى ماذرايا ، ومن هناك ينعطف غربا حتى يسير سيرا عموديا الى فم الصلح فواسط ، حتى يصب فى البطائح حيث يلتقى بالفرات ومنها الى دجلة العوراء

---

(١) ابن خلدون ٢٤٠ ج ١ (٢) الفخرى ١٥٧

(*) يراد بالنهر فى مصطلح تلك الايام الترعة او القناة ، فاذا قالوا نهر عيسى كان معناه القناة التى شقها عيسى بن موسى

(٣) ابن خرداذبة ١٤ (٤) الماوردى ١٦٥ (٥) ابن الفقيه ٢٠٥

Marfat.com

بقرب البصرة ، ومنها الى خليج فارس قرب عبادان ، ثم يجرى بعد ذلك من ماذرايا شرقا ، ثم ينعطف جنوبا شرقيا على ماهو عليه اليوم . وكانالفرات فرعين : احدهما بجانب الكوفة والآخر شرقيها ، وكلاهما يصب فى البطائح

البطائح

والبطائح مستنقعات او ارض كان يغمرها الماء فى اسفل العراق بينالبصرة والكوفة . وسببها ان دجلة انبثق فى ايام قباذ بثقا كبيرا بقرب كسكر ، فأغفلامره حتىغلب ماؤه واغرق كثيرا من الارض العامرة كانت تليه وتقرب منه . فلما ولى انوشروان العادل الشهير امر بذلك الماء فزحم بالمسنيات (اى اقام الجسور على جانبى المجرى القديم) حتى عاد بعض تلك الارض الى العمارة ، ثمخلفه ابنه برويز ، وفى ايامه زاد الفرات ودجلة زيادة عظيمة (فى السنةالسادسة للهجرة) لم ير مثلها وانبثقت بثوقكبار ، فجهد برويز ان يسكرها حتى ضرب اربعين سكرا فى يوم واحد فلم يقدر على رد الماء . فظلت الحال على ذلك حتى جاء المسلمون لفتح العراق وشغل الفرس بالحرب ، فكانت البثوق تنفجر ولا يلتفت اليها احد ويعجز الدهاقين عن سدها ، فعظم ماؤها واتسعت البطيحة وعظمت (١) ومع ذلك فقد كان خراج هذه الارض المستنقعة كبيرا فان عبد الله بن دراج استغل منها ٥٠٠٠٠٠ر درهم فى خلافة معاوية بن ابى سفيان (٢) لكنهم قلما عنوا باصلاحها والانتفاع بالارض المغمورة . فلما تولى الحجاج بن يوسف اشتغل بالحروب عن اصلاح الرى . وفى ايامه انبثقت بثوق اخرى وكبرتالبطائح ، فكتب الى الخليفة الوليد بن عبد الملك بخبرها وانه قدر للنفقة على سدها ٣٠٠٠٠٠ر درهم ، فاستكثرها الوليد ، فقال لهاخوهمسلمة بن عبدالملك : « انا انفق على سدها من مالى على ان تعطينى خراج الارض المنخفضة التى يبقى فيها الماء بعد انفاق المال على ايدىثقاتك » فرضى الوليد بذلكفحصلت للوليد ارض وطساسيج كثيرة ، فحفر نهرين سماهما السيبين وتألفالاكرة (اى عمال الارض) والمزارعين وعمر تلك الارض . واستخرج للوليد ايضا من البطائح ثم لهشام بعده مالا كثيرا ، ثم جرى الناس على ذلك الى اواخر بنى امية (٣)

ولما افضت الخلافة الى العباسيين واتخذوا السواد مقر ملكهم ، جعلوا همهم احياء ارضه باحتفار الانهر وانشاء الجسور ، حتى تشابكت الترع فى السواد ، واصبح مابين دجلة والفرات سوادا مشتبكا غير مميز ، تخترق اليه انهار من الفرات (٤) ، وقس على ذلك سائر انحاء العراق . وهو لم يصر الى هذا الخصب والرخاء الا فى ايام العباسيين لارتياح الناس

---

(١) قدامة ٢٤٠ (٢) الماورى ١٧١ (٣) قدامة ٢٤١ (٤) الاصطخرى ٨٣

Marfat.com

الى العمل ورغبة الخلفاء فى تعمير البلاد مع قابلية الارض لذلك

خراسان

ومن البلاد التى زاد بها الخراج زيادة كبرى خراسان ، فقد كانت أرضا خصبة بالاضافة الى سعتها ، ورغبة أهلها فى نصرة الدولة العباسية . وخراج خراسان نحو ٤٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، اذا اضيف الى خراج العراق بلغ المجموع نحو نصف جباية المملكة كلها . ولذلك كانت عناية بنى العباس فى ابان دولتهم مبذولة فى هذين البلدين وفى الحجاز . وكان يقال : أما العراق فللمال ، وأما خراسان فللمال والرجال ، وأما الحجاز فهو مصدر الثقة فى الخلافة وتثبيت البيعة . وعمران خراسان فى ذلك الوقت مما لاريب فيه ـ قال المقدسى فى عرض كلامه عن مدائن العراق ، وقد أطنب فى عمرانها : « فهذه مدن بغداد ، وبخراسان قرى كثيرة أجل من أكثر هذه المدن » (١) وكثيرا ماكان الخلفاء العباسيون يعدون خراسان المملكة كلها (٢)

ويدخل فى ولاية خراسان بلاد ما وراء النهر ، وهى كثيرة الخصب جدا ـ قال ابن حوقل : « ولم أر ولم أسمع فى الاسلام بظاهر بلد أحسن من ظاهر بلد بخارى ، لانك اذا علوت قندهار لم يقع بصرك من جميع النواحى الا على مغارس تتصل خضرتها بلون السماء ، وكأن السماء قبة زرقاء على بساط أخضر ، تلوح القصور ما بين ذلك كالتراس اللمطية أو كالكواكب العلوية بياضا ونورا من أراضى ضياع مقومة بالاستواء كوجه المرآة » قال : « والمشار اليه من متنزهات الارض صغد سمرقند ونهر الابلة وغوطة دمشق » (٣) ناهيك بعمران سائر المدن الاسلامية فى ذلك العصر الزاهر

مصر

ولا غرابة فيما تقدم من عمران البلاد فى ظل الدولة العباسية ، فان العدالة توطد دعائم الامن ، واذا أمن الناس على أرواحهم وحقوقهم تفرغوا للعمل ، فتعمر البلاد ويرفه أهلها ويكثر خراجها . اعتبر ذلك بمصر وتاريخ جبايتها ، فقد كان عدد سكانها عند الفتح الاسلامى نحو ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ نفس على ما أجمع عليه مؤرخو العرب ، ويستبعد أهل زماننا امكان هذا . وأكثر منهم استغرابا أهل أوائل القرن الماضى ، فقد ذكر الدكتور كلوت (بك) تقدير العرب لسكان وادى النيل انه عشرون مليونا ، وعقب عليه بأنه « بعيد الاحتمال لان طبيعة الارض لا تحتمل ان يزيد عدد سكانها على ثلث هذا القدر » (٤) وقد رأينا اليوم انه زاد على نصفه ، ولا يزال آخذا فى الزيادة

أما كلوت (بك) فانه أعظم ذلك لان احصاء هذا القطر كان على عهد كتابه (سنة ١٨٤٠) ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ نفس فقط ، على أنه لما ذكر هذا الاحصاء

(١) المقدسى ١٢٢ (٢) اليعقوبى ٥٥٥ ج ٢ (٣) ابن حوقل ٢٤٥
(٤) Aperçu gén. sur l'Egypte 1.165

Marfat.com

أظهر اعجابه بزيادة سكان وادى النيل فى عهد محمد على عما كانوا عليه فى أيام المماليك

اما فى ايام الامراء المماليك قبله فلم يكن يزيد عـدد سـكان مصر على ٢ر٠٠٠ر٠٠٠ نسمة ، ولا نظن الارض المزروعة فيها كانت تزيد على مليـون فدان وبعض المليون ، بالنظر الى ماكان يقاسيه المصريون من استبداد الامراء المماليك . فلما استقرت الاحوال فى العصر الحديث تزايد السكان واتسعت مساحة الارض المزروعة ، حتى بلغت الآن ٥ر٥٠٠ر٠٠٠ فدان (سنة ١٩٠٣) وسكانها نحو عشرة ملايين وهم آخذون فى الزيادة . وبالطبع ان مقـدار الجباية يزداد بزيادة العمران وكثرة السكان ، وهمـا لا يكونان الا فى ظل العدل الصحيح ـ اعتبر ذلك فى جباية مصر بالنظر الى الدول والعصـور فترى انها تمشت على هذه القاعدة تماما :

كانت جباية مصر فى زمن الراشدين اعلى ما بلغت اليه فى الاسلام . فقد جباها عمرو بن العاص فىزمن عمر بنالخطاب ١٢ر٠٠٠ر٠٠٠دينار ومساحة الارض للزراعة على تقديرهم ٣٠ر٠٠٠ر٠٠٠ فدان . وجباها عبـد الله بن سعد فى أيام عثمان ١٤ر٠٠٠ر٠٠٠ دينـار ، ولـكنه اسـتعمل العنف فى تحصيلها (١) . فلما كانت أيام بنى أمية وكان ما كان من ظلم العمال وعنفهم انحطت الجباية ، ولم تزد فى أيامهم على ٣ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار الا فى أيام ابن الحبحاب على عهد هشام بن عبد الملك فبلغت ٤ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار ، لانه بذل الجهد فى تحصيلها وتعديلها وزاد الخراج . فلما كانت الدولة العباسية لم تزد الجباية كثيرا لبعد مصر من دار الخلافة يومئذ فظلت على نحو ماكانت عليه فى أيام بنى امية . ولمـا اخذت الدولة العباسية فى التقهقر زاد انحطاط الجباية فى مصر حتى أصبح فى بعض سنى القرن الثالث للهجرة ٨٠٠ر٠٠٠ دينار ، فلما تولاها ابن طولون سنة ٢٥٧ هـ استقصى عمارتها فبلغت جبايتها فى ايامه ٤ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار مع رخاء الاسعار،وكان القمح كل عشرة أرادب بدينار (٢) فلما انقضت دولة بنى طولون والدولة الاخشيدية ودخلت مصر فى حوزة الفاطميين سنة ٣٦٣ هـ جباها جوهر القائد ٧ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار (٣) لـكنه لم يستطع ذلك الا بزيادة الخراج على الافدنة . ثم عادت الجبـاية فانحطت وارتقت تبعا لما تناوب عليها من الدول مما يطول شرحه (*)

---

(١) ابن حوقل ٨٨ (٢) المقريزى ٩٩ ج ١ (٣) ابن حوقل ١٠٨

(*) معظم هذه الارقام موضع شك كبير اليوم، وابسط دلائل الشك قول ابن حوقل ان مساحة الارض المزروعة فى مصر كانت ٣٠ مليون فدان على ايامه ، وهى الفترة الاولى من العصر الفاطمى ، وهـذا القول لا يحتمـل الا أحد أمرين ـ اذا كان ولا بد من قبول هـذا الرقم ـ فاما أن النـاسخين اخطـأوا فكتبوا ٣٠ بدلا من ٣ وهو اقرب الاحتمالات الى الصحة ، واما أن يكون ابن حوقل قد ادخل فى حسابه اراضى مصر كلها ، بما فيهـا الصحارى ، وجـدير بالذكر أن الصحارى لم تـكن ايام دخول العرب مصر قاحلة تماما كما هو الحال اليوم ، بل كانت مراعى خضراء تتخللها واحات كثيرة ، ودليـل ذلك اننـا نقرأ على طول العصر البيزنطى

Marfat.com

وآخر عهدنا بانحطاطها على أيام الامراء المماليك فى أواخر القرن الثـــامن عشر ، كما تقدم . اذ كانت جبايتها قليلة جدا مع كثرة الضرائب والتشديد فى تحصيلها . واليك ميزانية الحكومة المصرية سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨) م :

وعرضه أخبار الرهبان والديارين الذين كانوا يقيمون فى صحارى مصر الغربيـة والشرقية ، وقـد كانت المســاحات الشاسـعة الممتدة من ســاحل الاســكندرية ومربوط الى الفيوم مراعى خضراء ، بل كان كل ما يلى مديرية البحيرة الحالية مزروعا بالعنب والزيتون ، واذا كانت مصر خـــلال العصر البطلمى من أعظم بلاد العالم انتـــاجا للزيت ، بحيث كان القمح والزيت الغلتين الرئيسيتين اللتين يعتمد عليهما اقتصـاد البلاد ، فقـــد كان القمح يزرع فى الوادى اما شجر الزيتون فكان يزرع فى الصحراء الغربية

وحتى على هـذا الاعتبـار لم تكن أراضى المراعى ممـا يقاس فى النظام الاسلامى بالفدان أو تقدر عليه ضرائب كما يقدر على الارض العامرة ، وانما كان لها حكم خاص يفصله أبو يوسف القـاضى فى كلامه عن أرض « الـكلأ والمروج » وكانت معفاة من الضرائب اذا لم يتملـكها أحد، فاذا كان لها مالك وجبت عليه الصـــدقة فقط اذا كان صاحبهـا مسلما ، فاذا كان ذميـا اكتفى منه بجزية رأسه . وعلى هذا الاساس لا يمكن ان تدخل هذه المساحات ضمن حساب الارض المزروعة سواء بالسقى والانهار أو بماء المطر ، الا اذا احتفر فيها صاحبها آبارا واتخذ فيهـا « مشارع » أى قنوات فيصير حكمها حكم الارض العـامرة . ولو أن هذه الاراضى كلهـا كانت عامرة كما يقول ابن حوقل لـكانت جبـاية مصر من خراج الارض وحده نحو ٣٠ مليونا من الدنانير ، على اعتبار دينار واحد للفدان وهو أقل ما يمكن تقـديره . ولهذا كله يرجح عندنا ان المســاحة كانت ثلاثة ملايين فحسب ، ولا ينبغى ان يغيب عن ذهننا ان ابن حوقل كان داعية فاطميا ، وانه كان لهذا يبالغ فى تقدير عمار الارض فى ظل الفاطميين

ويجمع مؤرخو مصر الاســلامية على انخراج مصر كان١٢ مليونا من الدنانير أيام عمرو بن العاص ثم ارتفع الى ١٤ مليونا أيام عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، ثم انخفض بعده بقليل الى نحو ١١ مليونا ، ثم انحط بعد ذلك الى اربعة ملايين من الدنانير أيام معاوية ، وثبت على ذلك تقريبا حتى نهاية العصر الاخشيدى ، ثم ارتفع قليلا أوائل العصر الفاطمى ، فأصبح سـبعة ملايين ، وانخفض بعد ذلك مباشرة حتى بلغ مليونين أو أقل . وما يهمنا هنا هى الارقام الثلاثة الاولى ١٢ ، ١٤ ، ١١ مليون دينار ، فهى أرقام تبدو مبالغا فيها بشكل ظاهر ، ولـكن اجماع المؤرخين عليها ، وانعدام ما ينقضها لا يدع لنا مجالا لرفضها ، وليس امامنا الا ان نبحث عن تعليـــــلات لها

ذهب كارل هاينريش بيكر الى أن العرب طالبوا أول الامر بنفس المبالغ التى كان يقتضيها البيزنطيون من المصريين ، وأخذوها منهم جملة واحدة ، وتركوا للاقباط أمر تقسيمها على القرى والافراد ، واذا كان البيزنطيون يستخرجون من مصر ما قيمته ١٨ مليون دينار ، فليس بكثير أن يستخرج العرب ١٢ أو ١٤ مليونا . وثابت من كلام عمرو بن العاص أن جباية مصر كانت تحددها مطالب الحكومة المركزية لا قدرة البلاد على الدفع ، وقد شكا اليه الاقباط ذلك وطلبوا اليه أن يخفف عنهم فلم يستمع لهم . أما قول مؤرخى العرب ان العرب جمعوا جباية مصر من أول الامر على أسس الشريعة الاسـلامية من حيث ضريبـة الارض وجزية الرءوس فقول لا يؤيده الواقع ، فقد أثبتت أوراق البردى أن الجملة العامة كانت تقرر مقدما باتفـاق بين العـامل المسلم وممثلى القبط ، ثم يقوم هؤلاء بمطالبة النواحى بما يجب عليها ، وأبسط دليل على ذلك اننـا لا نستطيـع حسـاب الاثنى عشر أو الاربعة عشر مليونا على أســاس ضريبة الارض وجزية الرءوس ، فلو قلنـا ان سـكان مصر أيام الفتح كانوا نحو خمسـة ملايين ، وهو أقرب الاقوال الى الصحة ، فان الذين تجب عليهم الجزية منهم حوالى المليونين تجب عليهم ٤ ملايين دينار ، واذا كانت مساحة مصر ٣مليون فدان ، فلا بد أن يكون باقى الاثنى عشر أو الاربعة عشر من خراج هذه الملايين الثلاثة ، أى بنسبة دينارين أو دينارين ونصف دينار للفدان ، وهو مبلغ باهظ جدا ، اذ ان متوسط ضريبة الارض على الفـدان العـامر لم يزد على نصـف دينـار ، فاذا تجاوزنا عن ذلك وقلنـا ان كل فدان كان يدفع دينـارا ، كان المجموع ٣ ملايين ، اذا اضفناها الى قيمة جزية الرءوس وهى أربعة ملايين كان المجموع ٧ ملايين ، فأين باقى الاثنى عشر أو الاربعة عشر ؟

لم يبق اذن الا أن نأخذ برأى بيكر المـؤيد بدلالات الوثائق البردية ، فنقـول ان المبلغ كان يقدر جملة واحدة ثم يوزع بعد ذلك ، وبهـذا جبى عمرو بن العاص ١٢ مليـونا وعبـد الله

Marfat.com

الوارد

	ميدة أو نصف(*)
مال الميرى على القرى والأوقاف	٨٠ ٤٦٠ ٠٦٨
« « « الايراد	١٠ ٨٧٠ ٧٧٣
« « « الصنائم والمأكولات	٢٢ ٨١١ ٨٠٥
« « « على الرؤوس	٢ ٥٠٩ ٠٨١
	١١٦ ٦٥١ ٧٢٧

الخـــارج

	ميدة أو نصف
نفقات كبار الموظفين	٢ ٩٣٩ ٢٤٧
« الجند	٢٩ ٧٧٢ ٦٥٧
« مختافة	٢ ٦٥٣ ٥٨٥
« العلماء والتعليم ووقفيات	٨ ٤٣٨ ٩٩٤
« رجال الدين والجوامع ونحوها	١٣ ٨٩٢ ١٣٩
« الحج	٤٢٠٧١ ٦٥٤
مجموع الخارج يستخرج من مجموع الوارد أعلاه	٩٩ ٨٦٨ ٢٧٦
الباقى	١٦ ٧٧٠ ٤٥١

والباقى المشار اليه كانوا يسمونه الخزنة ، وكانوا يحملونها الى الاستانة كلّ سنة . ولما تمرد حكام مصر ، حاول بعضهم اسقاطها ، والبعض الآخر تخفيضها ، ثم انتهت اخيرا الى ان يقتطعوا منها ٩ر٢٨٣ر٤٥١ نصفا فى مقابل نفقات فوق العادة على هذه الصورة :

ابن سعد ١٤ مليونا ، ومن جاء بعده ١١ . ولم يكن من الممكن أن يسير الامر على ذلك ، فقد بدأ المصريون يسلمون ويتعلمون العربية ويطلعون على الشرع واحكامه ، ولم يعد من الممكن تجاوز قواعد الشريعة ، وهذا ما حدث ابتداء من أيام معاوية بن أبى سفيان ، فأصبحت الجباية أربعة ملايين ، وثبتت على ذلك ، وربما قلت عن ذلك فى بعض السنين . أما أن جوهرا الصقلى جبى مصر للفاطميين سبعة ملايين ، فيدخل فى ذلك أموال المصادرات الكثيرة التى أوقعها جوهر بالاخشيدية وخصوم الفاطميين فى البلاد ، ثم ان الجباية عادت بعد انتقال المعز الى مصر الى الملايين الاربعة العادية

(*) الميدة ــ وتكتب أحيانا مايدى أو ميدى ــ هى اللفظ الدارج للفظ مؤيدى وهو نصف الدرهم ، سمى كذلك نسبة الى السلطان المؤيد أبى نصر الشيخ المملوكى . ولما كانت قيمتها نصف درهم فهى تسمى أيضا النصف ، وكانت الميادى رقيقة جدا لانها كانت تضرب من الفضة وقيمتها بعملتنا الحالية تزيد على القرشين قليلا ، وكانت هى العملة الاساسية فى مصر طوال العصر المملوكى الثانى

انظر : دوزى : ملحق القواميس ، لفظ ايد

Marfat.com

ميدة أو نصف	
٣ ٠٠٠ ٠٠٠	ترميم قلاع القاهرة
١ ٥٠٠ ٠٠٠	« « سائر القطر
٢ ٠٠٠ ٠٠٠	أثمان سكر وخلافه
٢ ٧٨٣ ٤٥١	نفقات أخرى يأمر بها شيخ البلد
٩٢٨٣ ٤٥١	الجملة

فاذا أسقط هذا المال من الخزنة المذكورة كان الباقى ٧ر٥٠٠ر٠٠٠ ميدة(١)

وخلاصة ما يهمنا فى هذا المقام ، أن مجموع الايراد فى عصر المماليك بلغ ١١٦ر٦٥١ر٧٢٧ نصفا ، أو ميدة ، والميدة فى تلك الايام كانت تساوى أربعة سنتيمات تقريبا (٢) أو كل ٢٨ نصفا تساوى ٤ قروش و ٣٧٥ من الف من القرش. فجباية مصر يومئذ قيمتها بالقروش نحو ١٨ر١٥٦ر٢٥٠ قرشا (*). غير أن قيمة نقود تلك الايام كانت تختلف عن قيمتها اليوم ، وقياس ذلك الاختلاف أسعار المأكولات ، فقد كان ثمن الرطل من اللحم الضانى سبعة انصاف وثمن اردب القمح ٢٤٠ نصفا (٣) فاذا قسنا ذلك بأثمانها فى هذه الايام رأينا الميدة او النصف يقابل نصف القرش المصرى تقريبا . فتكون جباية مصر فى عصر المماليك تساوى نحو ٥٨ر٠٠٠ر٠٠٠ قرش مصرى أو ٥٨٠ر٠٠٠ جنيه ، فلما تولتها العائلة الخديوية ، أخذت جبايتها فى الزيادة حتى بلغت فى العام الماضى (١٩٠٧) ١١ر٨٥٠ر٠٠٠ جنيه، أى أكثر من عشرين مرة من جبايتها فى أيام المماليك ، والتربة واحدة ، والنيل واحد ، والفصول على حالها

(٣) ثقل الخراج المضروب

كان الخراج المضروب على الارض فى المملكة العباسية يختلف نوعه باختلاف البلاد ، فبعضها بالمساحة ، أى أن يضربوا على المساحة المعلومة من الارض

---

(١) Descrip. d'Egypte XII

(٢) الخطط التوفيقية ١٥٥ ج ٢٠

(*) أورد المؤلف القيمة بالفرنك الفرنسى بحسب قيمته سنة ١٩٠٣ ، وكانت ٤ر٣٧٥ قرشا، وكان الفرنك عملة أساسية متعاملا بها فى مصر اذ ذاك ، فقال ان الجباية كانت ٤١٥٠٠٠٠ فرنك ، فحولناها الى قروش

(٣) الخطط التوفيقية ١٥٥ ج ٢٠

Marfat.com

مالا معينا فى العام ، سواء زرعت تلك الارض أم لم تزرع ، والبعض الآخر بالمقاسمة ، اى ان يكون الخراج جزءا من حاصل الارض بعد زرعها واستغلالها فما لم يزرع لايطالب بخراجه وكل من خراج المساحة والمقاسمة درجات وفئات سيأتى بيانها . ولما كان السواد (أو العراق) اهم أقاليم المملكة العباسية بالنظر الى الخراج بدأنا به

السواد

كان السواد لما فتحه المسلمون يجبى بالمساحة باعتبار « الجريب » ، وهو قطعة من الارض مساحتها ستون ذراعا فى ستين أى ٣٦٠٠ ذراع مربع ، فكل ماكانت مساحته جريبا كان الفرس يأخذون عليه قفيزا (أى محصول قفيز من الارض عينا) ودرهما (١). والقفيز عشر الجريب (أى ٣٦٠ ذراعا بلديا مربعا. وهم يقولون القفيز ويريدون غلته. أى أنهم كانوا يأخذون عشر المحصول كله عينا، لان القفيز عشر الجريب وزيادة على ذلك درهما نقدا عن الجريب) ويعبرون عن القفيز وزنا بثمانية أرطال ، ويقدرون قيمته ثلاثة دراهم (٢) وكانت ضريبة الخراج بالقفيز معروفة فى الجاهلية ، ومن ذلك قول زهير بن أبى سلمى :

تغل لكم مالا تغل لاهلها قرى بالعراق من قفيز ودرهم

فاذا اعتبرنا القفيز بثلاثة دراهم كان الجريب بثلاثين درهما ، يؤخذ عليه أربعة دراهم اى نحو ١٣ وثلث فى المئة ، وهو خراج خفيف جدا ــ لولا ان كثيرا من الاجربة تبقى بلا زرع ويدفع اصحابها الخراج عنها (*)

فلما فتح السواد على عهد عمر بن الخطاب ، وعلم بما كان الفرس يجبونه ، أمر بمساحته فمسحوه وعدلوه باعتبار نوع الفرس. وخلاصة ذلك : انه ابقى الخراج على الحنطة كما كان فى أيام الفرس ، أى على الجريب قفيز ودرهم أو أربعة دراهم . وجعل على الجريب من الكرم عشرة دراهم ، ومن النخيل ثمانية دراهم ، ومن القصب ستة دراهم ، والرطبة خمسة دراهم ، وعلى الشعير درهمين ، وعلى الرأس من الناس ١٢ درهما او ٢٤ او ٤٨ درهما ، وأخرج من ذلك النساء والصبيان (٣) وكان العمال يجبون السواد لعمر ١٢ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم باعتبار أنه ٣٠ر٠٠٠ر٠٠٠ جريب ، وظل السواد فى ايام الراشدين عامرا واكثره مزروعا. فلما كانت الفتنة بعد مقتل عثمان ، واشتغل

---

(١) الماوردى ١٦٥ (٢) الماوردى ١٤١

(*) يبدو ان هنا وهما يسيرا فى الحساب ، فقد كانت الجباية عن كل جريب عشرة اقفزة وعشرة دراهم ، فاذا كانت قيمة محصول القفيز ٣ دراهم فان قيمة المحصول الذى كان يعطى من كل جريب ٣٠ درهما يضاف اليها درهم عن كل قفيز فالمجموع ٤٠ درهما ، ولما كانت قيمة محصول الجريب كله ٣٠٠ درهم على اعتبار ان الجريب عشرة اقفزة فان نسبة الضريبة هى ٤٠ من ٣٠٠ اى ٥ر٧ فى المائة

(٣) كتاب الخراج لابى يوسف ٢٠

المسلمون بالحروب الى ايام بنى امية ، واستصفاء الاموال فى أيام معـــاوية والحجاج وغيرهما ، اشتغل أهل السواد عن الزرع كما تقدم . ومع ذلك فان الحجاج جباه نحو جبايته فى أيام عمر ، ولابد أنه استخدم العسف والشـــدة فى ذلك ، لان صاحب الارض كان يطالب بالخراج عن أرض لم يزرعها ، فاذا لم يؤد ما عليها ظل عليه الخراج دينا عاما بعد عام ، فيتراكم ذلك على أصحاب الارض وهم يزدادون ضنكا ، فخربت البلاد وهجرها أهلها ، وجـرى على ذلك معظم عمال العراق بعده حتى اضطر أصحاب الارض الى الالجـاء كما سيأتى . ناهيك بما كان فى نفوس أهل السواد وغيرهم من كره بنى أمية ، لتعصبهم للعرب ، واحتقارهم لغير العرب ولو كانوا مسلمين

فلما افضت الخلافة الى العباسيين سنة ١٣٢ هـ ، وجهوا عنايتهم الى السواد ، بنوع خاص ، وأول من فعل ذلك منهم المنصور ، فانه نظـــر فى السواد فاذا هو يكاد يكون خرابا للاسباب التى قدمناها ، فرأى أن من الظلم استبقاء الخراج عليه بالمساحة على تلك الصورة ، فجعل خراج الحنطة والشعير مقاسمة (وهما أكثر غلات العراق) أى أن يؤخذ خراج الارض من غلتهـــا اذا زرعت ، فاذا لم تزرع لا يؤخذ منها شيء ، وابقى اليسير من الحبوب والنخل والشجر من الخراج بالمساحة (١) ، ولا ندرى كم جعل حصة بيت المـال من المقاسمة المذكورة ، ولـكننا نعلم ان ابنه المهدى (من سنة ١٥٦ ــ ١٦٩) عين ذلك وحدده فجعل المقاسمة بالنصف فى الارض التى تسقى سيحا أى بدون تعب ، وبالثلث فى الارض التى تسقى بالدوالى (*) وبالربع فى الارض التى تسقى بالدواليب ، وابقى خراج النخل والكرم والشجر على المساحة (أى تركه يحسب على أساس المساحة المزروعة) وفضل بعضه على بعض باعتبار قربه من الاسواق والعرض ــ أشار عليه بذلك وزيره معاوية بن يسار (٢) ، فكان خراج العراق عبارة عن نصف غلته تقريبا ، لان أكثره يسقى سيحا ، وهو خراج ثقيل ، ولـكن الناس عدوه يومئذ فرجا ورحمة

ويظهر ان الهادى أو الرشيد زاد على ذلك الخراج العشر ، فصار خراج العراق نصف غلته وعشرها أى ستة أعشارها ، وظل ذلك شأنها الى ســنة ١٩٢ هـ فأسقط الرشيد العشر وأبقى النصف فقط (٣) وما زال أهل السواد يدفعون نصف غلتهم خراجا الى سنة ٢٠٤ هـ فجعلها المأمون خمسين (٤) فكأنه أسقط عشرين فى المائة من مقدار الخراج ، وخفض خراج بعض البلاد

---

(١) الماوردى ٧٧ و ١٦٨

(*) دوال جمع دلو وتجمع أيضا على أدلية ، ويراد بها هنا آلة من آلات الرى تشبه الشادوف المصرى ، وهى غير الدولاب وهو الساقية

(٢) الماوردى ١٦٨ والفخرى ١٦٤ والبلاذرى ٢٩١ (٣) الطبرى ٦٠٧ ج٣ وابن الاثير ٤٨ ج٦

(٤) الفخرى ١٩٨ وابن الاثير ١٤٧ ج٦ والطبرى ١٠٣٩ ج٣

الاخرى غير السواد كالرى ، فانه جاءها سنة ٢١٠ هـ فاقام فيها مدة ، وامر بتخفيف الخراج عنها . فلما انصرف وبلغ اهل (قم) ذلك طلبوا اليه ان يحط خراجهم كما فعل بالرى فأبى ، فتمردوا وامتنعوا عن اداء الخـــراج وكان مقداره ٢ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم فحـاربهم المأمون وجباه فى ذلك العـــام ٧ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم تأديبا لهم (١)

فترى مما تقدم أن خراج السواد كان ثقيلا بالنظر الى ما كان عليـــه فى أيام الراشدين على المساحة ، لانهم كانوا يأخـــذون على الجريب أربعة دراهم ونسبة الجريب الى الفدان كنسبة ١٢٦٠ : ٤٢٠٠ أونسبة ١٠٠ : ٣٣٣وثلث فاذا كان على الجريب ٤ دراهم كان على الفدان ١٣ وثلث ، وهو خراج زهيد بالنظر الى ما يبقى بورا فهو كثير ، وربماكان المعدل فى الحالين واحدا ــ يدلك على ذلك أن الفرق فى ارتفاع الخراج بين المساحة فى أيام الراشدين والمقاسمة فى ابان كثرتها لا يعتد به . أما بالنظر الى هذه الايام (سنة ١٩٠٣ م) فان ضرائب السواد ما زالت حتى فى أيام المأمون تعتبر ثقيلة بالنسبة اليها . اذ ليس فى العراق الآن أرض يزيد خراجها على خمس غلتها ، وفيها جانب كبير يؤخذ منه العشر فقط . وفى لبنان ظاهر الخراج على المساحة ولكنه مؤسس على المقاسمة . لانهم مسحوا الارض وقسموها باعتبار ما يحصل من غلتهـــا باختلاف المغروسات ، فالارض التى غلتها كيل زيتون أو حمل ورق توت أو بذار مد قمح أو ما تساوى قيمته ٣٦٠ قرشا سموها سهما ، وفرضوا عـــلى السهم ٢١ قرشا الا ربع قرش فيكون الخراج ٦ فى المئة فقط

مصر

ويلى العراق فى الخصب مصر ، وكان خراجها على المساحة باعتبار الفدان وهو قطعة من الارض كانت مساحتها عندهم ٤٠٠ قصبة ، والقصبة خمســة أذرع بذراع النجار وستة أذرع وثلثا ذراع بذراع القماش (٢) (*) وفى تعريف الحكومة المصرية اليـــوم الفدان ١ ٣/٣ قصبة ، والقصبة ٣ر٥٥ من المتر المربع ، وبتحويله الى أمتار مربعة يكون الفدان نحو ٤٢٠٠ متر مربع ، وقد تزيد أو تنقص قليلا (٣)

وقد تقدم ما كان يقاسيه المصريون فى عهد بنى أمية من العسف وزيادة الضرائب ، فدخلت الدولة العباسية مصر وأكثرها خراب لما كان يسوم أهلها عمال بنى أمية من زيادة الخراج ، وأشهر من فعل ذلك منهم عبيـــد الله بن

---

(١) الطبرى ١٠٩٣ ج ٣ (٢) المقريزى ١٠٣ ج ١

(*) ذراع النجار هو طول الذراع بحسب قياس النجارين واهل المعمار ، ولهذا يسمى فى ايامنا بالذراع المعمارى ، وذراع القماش هو طوله بحسب مقياس القماشين اى تجار القماش وغيرهم من التجار ، ولهذا يسمى اليوم بالذراع البلدى

(٣) القوانين العقارية ١٦١

Marfat.com

الحبحاب ، فى أيام هشام بن عبد الملك ، فانه زاد عـلى القبط قيراطا فى كل دينار ، كما تقدم ، فآل ذلك الى ثورة كبرى • على أن الثـورات كانت تتوالى فى مصر بسبب ضغط العمال ، فلما تولى العباســـيون بعثوا اليها العمال ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون رعاية أعمالهم ، وملاحظة ســيرهم ، كما كانوا يلاحظون سير عمال العراق لبعد وادى النيل عن مركز خلافتهم ، فكان العمال حتى فى صدر الدولة العباسية يضاعفون الخراج ، ويشددون فى تحصيله ، كما فعل موسى بن على سنة ١٥٦ هـ فى أواخر أيام المنصـور ، وموسى بن صعب فى أيام المهدى فانه ضاعف الخراج وشدد فى استخراجه (١) وربما كان ذلك بايعاز الخليفة ، لان المهدى زاد الخراج على أهل العراق كما رأيت

أما فى أيام المأمون أى فى ابان الثروة الاسلامية فقد كان الخراج المضروب على مصر دينارين عن كل فدان (٢) ، وذلك كثير بالنظر الى ما يؤخـــذ منها الآن ، اذا اعتبرنا الفرق فى الســعر بين تلك الايام واليـــوم • لان الخراج المضروب على أطيان مصر الخراجية (وهى الجانب الاكبر) يختلف مقـــداره اليوم باختلاف خصبها ، وهو وان كان على المساحة فأساسه المقاسمة • لانهم قسموا القطر المصرى الى نواح يختلف خراجها باختلاف خصبها • وأخصب النواحى لا يزيد خراج الفدان فيها على ١٨٠ قرشا (٣) ، وأمثال هذه الفدادين قليل جدا • وأما الاكثر فخراجه حوالى مائة قرش ، وفيها ما خراجه عشرون قرشا ، أو عشرة قروش • واذا اعتبرنا غلة الارض بالنظر الى خراجها ، رأينا الخراج لا يزيد على خمس الغلة بوجه التقريب ، لان الفدان الذى تقدير خراجه مائة قرش مثلا يضمن بخمسة جنيهات أو ستة

واذا استخرجنا معدل خراج مصر على كل الفدادين ، رأينا معدل خـــراج الفدان لا يزيد على ٨٥ قرشا ، لان فى القطر المصرى نحو ٥ر٥٠٠ر٠٠٠ فدان زراعى بلغ مقدار خراجها للسنة الماضية (١٩٠٢) ٤ر٦٥٢ر٥٧٠ جنيها (٤) ويلحق الفدان الواحد نحو ٨٥ قرشا ، وقد تقدم فى غير هذا المكان أن القرش اليوم يساوى ثلث قرش تلك الايام • فالدينار ان خراج الفدان فى أيام المأمون يساويان ستة دنانير فى هذه الايام أو ثلاثة جنيهات ، فيكون خراج مصر فى أيام المأمون يزيد على ثلاثة أضعافه فى هذه الايام (سنة ١٩٠٣)

ولكن يظهر أن الخراج فى مصر زاد بعد المأمون ، حتى بلغ فى أواســـط القرن الرابع للهجرة لما جاءها القائد جوهر وفتحها باســم الخلفاء الفاطميين ثلاثة دنانير ونصفا ، فجعلها هو سبعة دنانير (٥) وذلك شىء كثير

---

(١) المقريزى ٣٠٨ ج ١ (٢) المقريزى ٩٩ ج ١ (٣) القوانين المقارية ١٦٤ وما بعدها
(٤) ميزانية مصر لسنة ١٩٠٢ صفحة ١٢ (٥) ابن حوقل ١٠٨

Marfat.com

وقد رأينا فى كتاب احسن التقاسيم للمقدسى انه : « ليس على مصرخراج، ولكن يعمد الفلاح الى الارض فيأخذها من السلطان ويزرعها ، فاذا حصد ودرس وجمع رشمت بالعرام (*) وتركت ، ثم يخرج الخازن وأمين السلطان فيقطعان (أى يأخذان) كرى الارض ويعطيان ما بقى للفلاح » ولكن ذلك كان خاصا بالارض التى كانت الحكومة تقبلها أى تضمنها وليس لها مالك ، وقد تكون فى الاصل لبعض القواد أو العمال من الروم الذين قتلوا فى الحرب أو هربوا ، فبقيت حلالا لبيت المال كما تقدم ، فيضمنها الحاكم ويأخذ ضمانتها عينا أو نقدا

بلاد اخرى

وهناك بلاد بعضها كان يجبى بالمساحة ، والبعض الآخر بالمقاسمة . فبلاد فارس مثلا كان خراجها على ثلاثة اصناف : ١ ــ المقاسمة ، ٢ ــ المساحة، ٣ ــ القوانين وهى المقاطعات (أى الاقطاعات) . على أن أكثر بلاد فارس على المساحة ، وتختلف الاخرجة فيها باختلاف البلاد فأثقلها فى شيراز (١) فان خراج الجريب حنطة أو شعيرا ١٩٠ درهما والجريب من الارطاب والمباطخ (**)٢٣٧ ونصف درهم ، ومن القطن ٢٥٦ درهما وأربعة دوانق ، ومن الكرم ١٤٢٥ درهما ، ولكن الجريب عندهم كبير اى سبعون ذراعا بذراع الملك ، وهو تسع قبضات (٢) فاذا فرضنا أن الجريب جريبان من اجربة العراق فالخراج مع ذلك لا يزال ثقيلا جدا . وهو خراج تلك البلاد فى أواسط القرن الرابع ، ولم نقف على مقداره فى أيام المأمون

ومن هذا القبيل خراج المغرب فى أيام الاغالبة ، فقد بلغ خراج الفدان فى أيام عباس بن ابراهيم بن الاغلب ١٨ دينارا (٣) ولا نظن مثل هذا المال يطول اقتضاؤه من أصحاب الارض ، وانما هو يختلف باختلاف الاعوام والاحوال

وجملة القول ان الخراج كان فى العصر العباسى الاول ثقيلا ، ومع ذلك لم يكن يعسر اقتضاؤه ، وقلما شكا الناس ثقله ، وربما استطاع العامل أن يجمع الملايين من الدراهم بسهولة فى بضعة أيام ، كما اتفق للمأمون لما مر بدمشق وكان أخوه المعتصم عاملا له عليها ، وقد قل المال مع المأمون فشكا

(*) جاء فى ملحق القواميس لدوزى (١٢٢/٢) تحت لفظ عرم ان : العرمة هى التل الصغير monceau أوكومة التبن Pile de foine أو الحبوب أو التراب ، والعرام هو الكوم . وعلى هذا فيكون رشم الارض بالعرام هو تغطية المزروعات بشىء يشبه التبن حتى يقبل رجال الدولة فيأخذوا كراء الارض ويتركوا الباقى للفلاح

(١) الاصطخرى ١٥٧

(**) المباطخ جمع مبطخة وهى الارض التى يزرع فيها البطيخ وما يشبهه كالخيار والقثاء

(٢) المقدسى ٤٥١ (٣) ابن الاثير ١٣٥ ج ٦

Marfat.com

ذلك الى المعتصم فقال : يا أمير المؤمنين كأنك بالمال وقد وافاك بعد جمعة » فجاءه بثلاثين ألف ألف درهم (٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠) من خراج ما يتولاه له ففرق معظمه وهو واقف (١)

سائر مصادر الجباية

على أننا لا نرى بأسا من الاشارة الى ما بقى من مصادر الجبـاية فى العصر العباسى الاول لتتمة الموضوع ـ منها :

١ ـ أعشار السفن : هى ضريبة ذات بال ، كان يرد منها الى بيت المـال مبالغ وافرة ، لم نعثر على تفصيلها ولا وقفنا على مقدار ما كان يجبى منها فى العصر العباسى ، ولكن يؤخذ مما نعلمه من اتساع التجـارة فى تلك الايام ، بين العراق وسائر أقطار الدنيا حتى الهند والصين ، أن السفن كانت كثيرة وأحمالها ثمينة • وقد ذكروا تاجرا واحدا من تجار البصرة فى القرن السادس للهجرة اسمه حسن بن العبـاس ، له مراكب تسافر الى أقصى بلاد الهنـد والصين ، بلغ مقدار ما يتحصل من ضرائبها ١٠٠٫٠٠٠ دينار فى العـام (٢) فاعتبر ذلك وقس عليه غيره فى البصرة وغيرها من ثغور الاسـلام ، وفيها ما يكون أكثر دخله من أعشار السفن • فقد كان ضمان أعشار المراكب فى عدن فى القرن الرابع ٢٠٠٫٠٠٠ دينـار (٣) ، وضمانها فى القرن السـادس ١١٤٫٠٠٠ دينار (٤) والظاهر أن جباية تلك الاعشار كانت فى العصر العباسى أقل مما صارت اليه بعد ذلك ، لاننا نرى فى جريدة على بن عيسى التى كتبها للخليفة المقتدر سنة ٣٠٦ هـ ان ضرائب المراكب فى البصرة بلغت ٢٢٫٥٧٥ دينارا • وقد تقدم أن أضعاف ذلك كان يتحصل من أحد تجارها بعد قرنين

٢ ـ أخماس المعادن : كانت المعادن عندهم ضربين : ظاهرة ، وباطنـة • فالمعادن الظاهرة ما كان جوهرها المستودع فيها بارزا ،كمعادن الكحل والملح والقار والنفط ، فهذه لا يجوز اقطاعها ، لانها كالماء والناس فيه سواء يأخذه من ورد اليه (ومن قبيل ذلك أراضى المراعى والكلأ والآجام) • وأما المعادن التى فى باطن الارض فهى ما كان جوهرها مستكنا فيها ، فهذه كانت الحكومة تقطعها لمن يستخرجها ، ولها الخمس مما يخرج منها (٥) ، ونظرا لسعة المملكة العباسية فقد كانت المناجم فيها عديدة ، ومنها الذهب والفضـة والنحاس والزئبق والفيروز والزبرجد وغيرها ، وهاك أمثلة منها ومن أماكن وجودها :

---

(١) الطبرى ١١٤٣ ج ٣ ـ وفى ابن الاثير وأبى الفداء والفخرى ان مقدار ذلك المال ثلاثون الف الف الف درهم (٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠) وهذا خطأ من النـاخ

(٢) ابن حوقل (فى الذيل) (٣) ابن حوقل ٢٠ (٤) ابن حوقل (فى الذيل)

(٥) الماوردى ١٨٧

Marfat.com

كانت فى خراسان معادنالذهبوالفضة والفيروز والرخاموطين الختم (*) والنوشادر والزئبق (١) • وفى ما وراء النهر معادن الذهب والفضة والزئبق لا يكاثره معدن فى الغزارة والكثرة(٢)•وفى بلاد فارس عامة المعادن : الفضة والحديد والأنك (**) والكبريت والنفط والصفر (***) والزئبق•وبغربى أصبهان معدن الكحل (٣) • وفى كرمان مدينة اسمها دمندان كان فيها أكثر معادن الذهب والفضة والحديد والنحاس والنوشادر والصفر (٤) • ومنهذا القبيل مغاوص المرجان بسواحل أفريقيا الشمالية ، وهو شىء كثير كانوا يوسقون من منجم واحد منه خمسين قاربا أو أكثر ، وفى كل قارب عشرون رطلا (٥) • وفى سوريا معادن الحديد ، كانت بجوار بيروت ، والمغرة الجيدة (****) فى حلب وجبال الحمر فى مكان آخر ، ومعدن الرخام فى فلسطين ، ومعدن الكبريت فى الاغوار (٦) •وفى مصر معادن الشب بالصعيد، وكانت العربان تحضره من مناجمه الى ساحل اخميم وأسيوط والبهنسا ، ويحمل منه الى الاسكندرية أيام النيل ، وكانوا يبيعون منه تجار الروم نحو ١٢ر٠٠٠ قنطار بسعر أربعة دنانير لكل قنطار الى ستة • وكذلك النطرون فى البر الغربى للنيل وفى غيره كان يستخرج منه كل سنة ١٠ر٠٠٠ قنطار، وكان يضمن فى بعض الاحوال ضمانا تبلغ قيمته ١٥ر٥٠٠ دينار (٧) • وفى النوبة مما يحاذى أسوان معدن الذهب المشهور ــ قال ابن حوقل : «والمعدن ليس من أرض مصر ، ولكنه فى أرض البجة وينتهى الى عيذاب ، والمعدن أرض مبسوطة لا جبل فيها وهى رمال ورضراضومجمع تجارهم العلاقى»(٨)، وفى بلاد الغرب مما يلى سجلماسة معادنالذهب والفضة ، وكذلك فى ما وراء ذلك الى بلاد السودان (٩) . وكان فى صعيد مصر جنوبى النيل (كذا) معدن الزبرجد فى برية منقطعة عن العمارة (١٠) وفى البحرين بخليج فارس مغاوصاللؤلؤ ، وفىصنعاء مناجم العقيق ، وبين ينبع والمروة معادن الذهب، وعلى شواطىء عدن ومخا (فى اليمن) العنبر (١١)

(*) طين الختم طين خاص ذو تركيب معدنى يجعله صالحا لان يستعمل فى الاختام كما نستعمل نحن الشمع الاحمر اليوم . وكانت العادة فى المكاتبات الرسمية أن يوضع طين الختم فى ختامها ثم يختم بختم الخليفة . وكان الختم يوضع أيضا على الخطاب بعد اقفاله كما نفعل نحن اليوم فى المكاتبات الهامة

(١) المقدسى ٢٢٦ (٢) ابن حوقل ٣٢٧

(**) الانك بفتح الهمزة وضم النون ، ويكتب ايضا آنوك ، هو الرصاص

(***) الصفر هو النحاس

(٣) الاصطخرى ١١٥و ٢٠٢ (٤) ابن الفقية ٢٠٦ (٥) ابن حوقل ٥١

(****) جاء فى ملحق القواميس لدوزى (٦٠٢/٢) : المغرة طين احمر ، وهو مغرةالنجارين وهو ضربان : منها المغرة المدنية ومنها المغرة اللواحية وهو أزنكها . أى أن المغرة كانت مادة يصنع منها ما نسميه نحن اليوم بالغراء

(٦) المقدسى ١٨٤ (٧) المقريزى ١٠٩ ج ١ (٨)ابنحوقل ١٠٧

(٩) المقدسى٢٣١ (١٠)الاصطخرى ٥١ (١١) المقدسى ١٠١

Marfat.com

هذه أمثلة مما كان فى المملكة العباسية من المعادن تمثيلا لما كان يجبى من أخماسها الى بيت المال • وكانوا يقطعون هـــذه المعادن أقطاعا أو يضمنونها تضمينا بمال معين ، وقد يكون ذلك المال كثيرا ـ من أمثلة ذلك أن معــادن الفيروز فى نيسابور بلغت ضـــمانتها فى أواســـط القرن الرابع للهجــرة ٧٢٠ر٧٥٨ درهما (١)

٣ ـ الجزية والزكاة : كانت الجزية فى صدر الاسلام كثيرة ، ثم تناقصت بدخول الناس فى الاسلام • والزكاة كان لها شأن كبير فى أول الاســلام ، ثم قلت أهميتها ، وسيأتى بيان ذلك

٤ ـ المكوس والمراصد : وهما تقابلان الجمارك والعوائد فى هذه الايام ، وكانوا يأخذون ضريبة من كل تجــارة واردة فى البحر أو البر ، مهمــا يكن نوعها من الانسجة أو المحصولات أو المصنوعات أو الرقيق أو غيره • وكان يحصل لهم من ذلك مال كثير • ولا نعلم مقدار ما كان يجمع منه ، ولكن يظهر أنها كانت تختلف باختلاف الزمان والمكان ، وربما اختلفت فى البلد الواحد باختلاف الزمان ، وفى الزمن الواحد باختلاف البلاد ممــا لا يمكن حصره ، وانما نأتى بما شاهده شــمس الدين المقدسى بنفسه فى مصر فى أواســط القرن الرابع للهجرة من الضرائب التى كانت تؤخذ فى تنيس ودمياط ، قال: « وأما الضرائب فثقيلة بخاصة تنيس ودمياط وعلى ســاحل النيــل ، وأما الثياب الشطوية (*) فلا يمكن القبطى أن ينسج شيئا منها الا بعد ما يختم عليها بخاتم السلطان ، ولا أن تباع الا على يد ســماسرة قد عقــدت عليها ، وصاحب السلطان يثبت ما يباع فى جريدته ، ثم تحمل الى من يطويها ، ثم الى من يشدها بالقشر (**) ثم الى من يشدها فى السفط ، والى من يحزمها ، وكل واحد منهم له رسم يأخذه • ثم على باب الفرضة (أى الميناء) يؤخــذ شىء ، وكل واحد يكتب على السفط علامته ، ثم تفتش المراكب عند اقلاعها • ويؤخذ بتنيس على زق الزيت دينار ومثل هذا وأشباهه • ثم على شط النيل بالفسطاط ضرائب ثقال ، رأيت بساحل تنيس ضرائبيا جالســا قبل قبالة هذا الموضع (يجمع) فى كل يوم ألف دينار ، ومثله عدة على سواحل البحر فى الصعيد وساحل الاسكندرية • وبالاسكندرية أيضا على مراكب الغرب، وبالفرما على مراكب الشام ، ويؤخــذ بالقلزم من كل حمــل درهم » (٢)

وذكر ابن حوقل : انه كان يتحصل مما يخرج من أذربيجــان الى نواحى

---

(١) المقدسى ٢٤١

(*) نسبة الى بلدة شطا قرب دمياط

(**) أى يشدها على ألواح الخشب ، والمراد بذلك كيها

(٢) المقدسى ٢١٣

Marfat.com

الرى ولوازم على الرقيق والدواب ، وأسباب التجارات والابقـار والاغنـام ١ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم فى السنة (١) (*)

على أن هذه الضرائب وأمثالها لم يكن لها رواج فى أوائل الدولة العباسية، ولا كانت غلتها تستحق الذكر ، ولكن دخلها تعاظم فى عصر الاضمحلال

٥ ـ المستغلات وغلة دار الضرب : يراد بالمستغـلات ما يجبى لبيت المال من أسواق أو منازل أو طواحين ، ابتناها الناس فى أرض تربتها للسلطان (أى يملكها السلطان) فيؤدى عنها أجرة (٢)٠وذكر ابن خرداذبة مبلغ غلات الاسواق والارحاء ودور الضرب فى مدينة السلام بغداد ٥٠٠ر٠٠٠ر١ درهم فى السنة (٣) ، وبلغت غلات ومستغلات سامرا وأسـواقها ٠٠٠ر٠٠٠ر١٠ درهم فى السنة (٤)

فالدولة العباسية فى ابان زهوها كانت تجبى من هـذه الضرائب شيئا كثيرا ، ولكن العمدة كانت على الخراج كما تقدم

٤ ـ صدق العمال فى ارسال المال المجموع

قد رأيت مما ذكرناه من جور عمال بنى أمية انهم كثيرا ما كانوا يستأثرون بالخراج لأنفسهم ، اما باذن الخلفاء كما فعل عمرو بن العاص بمصر اذ جعلها معاوية طعمـة له فى مقـابل نصرته على على ، أو بحجة الحاجة الى المـال فى الحروب كما حصل فى أيام الحجاج ، أو استرضـاء لعـامل متمرد التماسـا لقعوده (أى سكوته وطاعته) (٥) ، أو أن يعصى العامل بالخراج لغير سـبب كما فعل مسلمة بن عبد الملك فى ولايته على العراق فى أيام أخيه يزيد (٦) فان « يزيد » استحيى أن يطالبه بالخراج ولعله خاف عصيانه٠ناهيك بما كان يكتمه العمال عن خلفائهم من أموال الفىء والغنائم وهى من حق بيت المال ، وقد يذكرونها ويطمعون فيها كما فعل يزيد بن المهلب بعد فتحه جرجان سنة ٩٨ هـ ، فانه أصاب مالا كثيرا بقى منـه لبيت المـال ٠٠٠ر٠٠٠ر٦ درهم ، كتب عنها للخليفة لكنه استبقاها لنفسه (٧) ـ ذلك ونحوه دعا الخلفـاء فى

---

(١) ابن حوقل ٣٥٣

(*) نص ابن حوقل هنا : « ومن الميانج الى الخونج مدينة أيضا بها مرصد (أى مركز لتحصيل الجمارك) على ما يخرج من آذربيجان ولوازم (أى ضرائب لازمة) على الرقيق والدواب واسباب التجارات كلها من الاغنام والبقر ، ومقاطعة هذا المرصد دائما مائة ألف دينار وزائده الى ألف ألف درهم وناقص فى السنة ، وليس له ولما يجتاز به شبه فى جميع أقطار الارض » ـ طبعة كرامر » لايدن ١٩٣٩ جـ ٢/٣٥٣

(٢) ابن حوقل ٢١٧
(٣) ابن خرداذبة ١٢٥
(٤) اليعقوبى (كتاب البلدان) ٢٨
(٥) ابن الاثير ١٤٣ ج ٢
(٦) ابن الاثير ٤٧ ج ٥
(٧) الطبرى ١٣٢٤ و ١٣٥٠ ج ٢

Marfat.com

بعض الاحوال الى أن يستخرجوا المال من عمالهم بالقوة كما تقدم

أما بنو العباس ، فقد كان معظم عمالهم فى أوائل الدولة من أهلهم الاقربين، ثم استعملوا أنصارهم الفرس ، وهم أكثر الناس رغبة فى قيام دولتهم · وكان الخلفاء من الجهة الاخرى لا يقصرون فى زيادة رواتبهم حتى بلغت فى أيام المأمون ثلاثة ملايين درهم (١) وهى عمالة (بكسر العين وهى المرتب) الفضل بن سهل على المشرق ، ولم يدرك مثلها أحد من عمال بنى أمية · لأن أكبر راتب اقتضاه عمالهم لم يزد على ٦٠٠ر٠٠٠ درهم ، وهى عمالة يزيد ابن عمر بن هبيرة على العراق (٢)

ومما ساعد بنى العباس فى أوائل دولتهم على حفظ نظام أعمالهم، واجماع العمال على ولائهم سداد رأى وزرائهم ، وخصوصا البرامكة ، فانهم كانوا واسطة عقد تلك الدولة ، وزهرة تمدنها · وكذلك كان الفرس على الاجمال، لأنهم كانوا يعدون استيلاء بنى العباس عليهم رحمة من الله كانوا يتوقعونها منذ أعوام للتخلص من بنى أمية واحتقارهم اياهم

وهناك أسباب أخرى لكثرة جباية الدولة فى أيام المأمون ، كقلة الحروب والفتن ، فانها مذهبة للاموال ، مضيعة للخراج ، مفسدة للاعمال ، لاشتغال الناس عن الزراعة والتجارة وانفاق الاموال فى الجند

أسباب قلة النفقة

فرغنا من الكلام عن أسباب كثرة الخراج فى الدولة العباسية بالقياس على أيام بنى أمية ، وهذه الايام (سنة ١٩٠٣) وهى القسم الاول من أسباب الثروة العباسية · فلنأت الى القسم الثانى وهو قلة النفقة ، وأهم أسبابها ثلاثة :

١ ـ قلة الموظفين

يختلف عدد الموظفين فى مصالح الحكومة باختلاف نمط تنظيمها ، ويقال بالاجمال آنهم أقل عددا فى الحكومات الاستبدادية منهم فى الحكومات المقيدة، لاستغناء الحكم المطلق عن تدوين كل شىء وضبطه لمراجعة النظر فيه · اعتبر ذلك فى المحاكم القضائية ، ومقدار الفرق بين عدد موظفيها فى عهد الاحكام العرفية ، وبينهم فى عهد الاحكام القانونية ، وقس عليه سائر مصالح الحكومة والسبب فيها متشابه ، ويكفى لبيان هذا الفرق مقابلة عدد موظفى الحكومة المصرية قبل نظامها الحالى بعددهم اليوم

---

(١) الطبرى ٨٤١ ج ٣ (٢) ابن خلكان ٢٨١ ج ٢

Marfat.com

كانت حكومة مصر قبل دخول الفرنسيين اليها (فى أواخر القرن الثامن عشر) لا تزال على نحو ما رتبها عليه السلطان سليم الفاتح وابنه السلطان سليمان

وخلاصة ذلك أن رئيسها (الباشا)وهو الوالى المرسل من الاستانة يليه ٢٤ بيكا (طلبه خانه) منهم ١٢ يتولون المصالح الكبرى فى القطر وهم :

(١) الكخيا : وهو نائب (الباشا) وكاتم سره

(٢) الدفتردار : وهو ينظر فى الخراج ويقابل ناظر المالية عندنا

(٣) أمير الخزنة : وهو يحمل الى الاستانة ما يخصها من خراج مصر

(٤) أمير الحج : وهو يتولى قيادة الحج الى الحجاز

(٥) ثلاثة قباطين لقيادة ثغور السويس ودمياط والاسكندرية

(٦) خمسة مديرين لأقاليم جرجا والبحيرة والمنوفية والغربية والشرقية

وهناك أربعة كشاف لأقاليم القليوبية والمنصورة والجيزة والفيوم . وأعمالهم مثل أعمال البكوات مديرى الاقاليم الاخرى

ومن المصالح الأخرى القاضى وأمير الضربخانة والمحتسب

وكان الجند عبارة عن ست فرق تسمى وجاقات وهى :

(١) وجاق المتفرقة : وهو مؤلف من نخبة الحرس السلطانى

(٢) وجاق الجاويشية : وهو مؤلف فى الاصل من صف ضابطان جيش السلطان سليم فعهد اليهم جباية الخراج

(٣) وجاق الهجانة

(٤) وجاق التفقجية (*) : وهم ناقلو البنادق

(٥) وجاق الانكشارية : وهم أخلاط من نخبة القبائل الخاضعة للدولة العثمانية ، وكانوا يعرفون أيضا بالمستحفظين لاناطة محافظة البلاد بهم

(٦) وجاق العزب

وكان كل من هذه الوجاقات مؤلفا من أفراد يقال لهم « وجاقلية » ، واحدهم « وجاقلى » على كل وجاق منها ضابط ، يلقب بالآغا ، يصحبه الكخيا والباش اختيار والدفتردار والخزندار والروزنامجى(١) . ومن اجتماع هؤلاء

(*) كذا فى الاصل وفى القواميس التركية : تفنك بمعنى بندقية وبلوك تفنكجى نفراتى = فرقة الرماة بالبنادق ، فلعل صحة الكلمة تفنقجية

(١) جرجى زيدان : تاريخ مصر الحديث ١١ ج ٢ (طبعة ثالثة)

Marfat.com

الضباط من سائر الوجاقات يتألف مجلس شورى الباشا فلا يقضى أمرا الا بمصادقتهم

هذه خلاصة نظام الحكومة المصرية المركزى ، ولا ترى عـدد الموظفين فيـه يزيد على خمسين (ماعدا الجيش) ، فاذا اعتبرنا مايلحقه من الكتاب والنواب وغيرهم ربما بلغ الى ٢٠٠ أو قل ٣٠٠ أو ٤٠٠ ، وهو يقابل فى هـذه الايام نظارات الحكومة ومجلس النظـار والمعيـة ومصلحة الصحة والبوليس وسائر المصالح ، مما يربو عدد موظفيها على ألفين كما يأتى :

الموظفون فى الحـكومة المصرية الآن فئتان : الفئـة الاولى : العمال ، وهم الذين يتولون أعمالها وادارة شـؤونها ، ومنهـم النظار ، ورؤساء الاقلام ، والكتاب والحساب • والفئة الثانية : الخدمة ، ومنهم الفراشون ، والبوابون، ونحوهم • واليك عدد الموظفين من طبقة العمال فقط مرتبة باعتبار النظارات والمصالح والاقلام (١)

عدد موظفى الحكومة المصرية

لسنة ١٩٠٢ من طبقة العمال

عدد	
١١٢١	المعية وتوابعها
١٨	مجلس النظار
٢٦	مجلس الشورى
٢٤	نظارة الخارجية
٤١٩	» المالية
٤٢٤	» المعارف
١٨٦	» الداخلية
٢٧٦٠	» الحقانية
٦٢٩	» الاشغال
٣٣٠٦	» الحربية
١٧١٥	مصالح ادارة الاقاليم وماليتها
٦٦٤٤	مصلحة البوليس
٥٢٦	» الصحة
١٠٥	» السجون
١٥	» منع الرقيق
٣٦	» الدفترخانة
٥١٠	» الجمارك
١٨٤٦٤	(المجموع)

عدد	
١٨٤٦٤	(مجموع ما قبله)
٢١٨	خفر السواحل
١٤٠	الدخوليات (الجمارك)
٤	مصايد الاسماك
١٣	الرسالة
١٩٣٨	السكة الحديدية
٣٢٧	التلغرافات
٢٩	ميناء الاسكندرية
٥٥٠	البوستة
١٠٣	الفنارات
٦	الليمانات
١٥	التمغة للمصاغات
٣٠١	مكاتب تابعة للمعارف
١١	الكتبخانة الخديوية
٤	الانتكخانة
١٤	المطبعة الاهلية
٩٠	أملاك الميرى الحرة والمشتركة
٢٢٧	القومسيون البلدى
٢٢٤٥٤	(الجملة)

(١) ميزانية الحكومة المصرية لسنة ١٩٠٢

فجملة موظفى الحكومة المصرية من العمال ٢٢ر٤٥٤ ، فاذا أخرجنا منهم المصالح ذات الايراد اذ لا دخل لها فى ادارة شؤون الحكومة وهى :

عـدد		عـدد	
١٩٣٨	السكك الحديدية	٢٨٤٤	(مجموع ما قبله)
٣٢٧	التلغرافات	١٠٣	الفنارات
٢٩	ميناء الاسكندرية	٦	الليمانات
٥٥٠	مصلحة البوستة	١٥	قلم التمغة
٢٨٤٤	(المجموع)	٢٩٦٨	(الجملة)

ومصالح ادارة الاقاليم وعدد موظفيهـــا ١٧١٥ ــ كان المجموع ٤٦٨٣ ، وباخراجه من العدد الاصلى يبقى ١٧ر٧٧١ وهو عدد موظفى الحكومة المصرية فى نظاراتها ومصالحها ما عدا الجيش • فاعتبر الفرق العظيم بين هذا العـدد، وبين ما كان عليه فى أيام المماليك،وقس عليه عدد موظفى الحكومة فى الدولة العباسية

على أن ذلك يتضـح من مراجعـة قائمـة نفقات الدولة العباســية ، فانك ترى معظم أصحاب الرواتب هناك من الجند ، وخدمة البلاط ، والحرس الخاص ، والغلمان ، والحشم ، والفراشين ، وأصحاب الصيد ، ونحوهم،وليس من عمـــال الحـــكومة الحقيقيـين الا جـــزء صـغير وهم المعبر عنهـــم « بأكابر الكتاب،وأصحاب الدواوين ، والخزان ، والبوابين الخ وعبد الله بن سليمان (الوزير) ، واسحق بن ابراهيم القاضى ، والفرســـان ، ونفقات السجون ، والعلوفة » ونحو ذلك • ولا نظن نفقات الحكومة على مصـــالحها الحقيقية تزيد على نصف ذلك المال (أى ٠٠٠ر٢٥٠ر١ دينار) مع أن نفقات الحكومة المصرية الآن على مصالح الادارة والتحصيلات وحفظ النظام فقطتزيد على ٠٠ر٢٥٠ر٣ جنيه • وما مصر بالنظر الى المملكة العباسية الا جزء صغير• وأما سبب هذه الزيادة فمن كثرة الموظفين لما اقتضاه النظام الحديث من الضبط والتحرير كما تقدم

على أن السبب فى قلة نفقات الدولة العباسية من حيث الموظفين ليس قلة عددهم فقط ، ولكن هناك سببا آخر ذا بال ، أعنى تسديدأرزاق بعض العمال من مال يوفـــرونه ولا يدخـــل فى باب الوارد . فقـــد رأيت أن أرزاق أكابر الكتاب وأصحاب الدواوين والخزان الخ ١٥٦ وثلثا دينـار فى اليـوم ، غير أن هؤلاء ليســوا كل موظفى الدواوين بل هم الكبراء فقط • ويتضح ذلك من قوله هناك : « سوى كتاب دواوين الاعطاء وخلفائهم عـلى مجالس التفرقة ، وأصحابهم وأعوانهم ، وخزان بيت المال ، فانهم يأخـذون أرزاقهم مما يوفرون من أموال الساقطين ، وغرم المخلين بدوابهم » • ويدل

Marfat.com

ذلك أيضا على اختصار الحسابات مما لا يرتكبه فى هذه الايام أصغر البـاعة اذا أراد ضبط حسابه فضلا عن دوائر الحكومة • فان أموال الساقطين وغرم المخلين كان يجب أن تدون فى أبواب الوارد ، وتدون رواتب أولئك الموظفين فى باب النفقات • وعلى أننا نستبعد أن لا يكون لهذه القيود محل فى دفاتر الحكومة العباسية ، وأنها أسقطت من هـذه القائمة حبا فى الاختصـار أو لاسباب أخرى

(٢) عدم وجود الدين على الحكومة

من أدران التمدن الحديث ، انغماس الحكومات الاوربية فى الديون ، وما من دولة الا وهى مدينة بمال لابد لها من تأدية فوائده ، أو تسديد بعضه من دخلها كل عام • فهو عبء ثقيل على ماليتها وسبب كبير فى قلة ما يفضل من دخلها ، مع كثرة أبواب الدخل عندها مما فرضته من الضرائب المختلفة التى لم تكن معروفة فى الدولة العباسية ، أو كانت معروفة على صورة خفيفة جـدا . فقـد تقـدم أن دخـل انجلترا ١٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيـه يجتمع نحو أربعة أخماسها من ضرائب أكثرها حـديثة العهـد ، وأن نفقات الدولة تستغرقها كلها • فمن أسباب ذلك أن ربع هذا الدخل تقريبا يذهب فى وفاء فائدة ما على هذه الدولة من الديون • ولولا ذلك لبقى فى خزينـة الحكومة الانجليزية كل عام حوالى ٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه أى نحو ثروة الدولة العباسية كلها • وليست انجلترا وحدها غارقة فى الديون فان معظم دول أوربا مثلها، وان تفاوتت ديونها ــ وهاك بيان بديون أشهر دول العالم فى آخر القـرن التاسع عشر ، بقطع النظر عن كسور المليون ، وقد رتبناها فى الجدول الآتى باعتبار الاكثرية :

ديون أشهر دول العالم (١)

جنيـه		جنيـه	
١ ٢٥٠ ٠٠٠ ٠٠٠	فرنسا	٢ ٧٠١ ٠٠٠ ٠٠٠	(مجموع ماقبله)
٧٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	انجلترا	١٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	ألمانيا
٢٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	روسيا	٩٣ ٠٠٠ ٠٠٠	هولندا
٢٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	الولايات المتحدة	٥٤ ٠٠٠ ٠٠٠	الصين
١٢٨ ٠٠٠ ٠٠٠	الدولة العثمانية	٤٨ ٠٠٠ ٠٠٠	اليابان
١٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠	النمسا	٢٢ ٠٠٠ ٠٠٠	ايطاليا
١٠٣ ٠٠٠ ٠٠٠	مصر	١٢ ٠٠٠ ٠٠٠	اسبانيا
٢ ٧٠١ ٠٠٠ ٠٠٠	(المجموع)	٣ ٠٣٠ ٠٠٠ ٠٠٠	(الجملة)

(1) Statesman's year book

Marfat.com

وقد تراكمت هذه الديون على تلك الدول بتوالى الاجيال ، بما احتـاجت اليه من النفقة فى الحروب ، أو فى انشاء المشروعات الكبرى ، أو نحو ذلك ، مما لم تكن الدولة العباسية فى غنى عنه ، ولكنها كانت فى أيام زهوها تنفق مما تدخره من فضلات الجباية كما تقدم • فلما قلت الجباية وكثرت أسباب النفقة فى طور الاضمحلال ، ولم يبق فى بيت مالها ما تنفقه فى الحروب عمدت الى استخراج الاموال من أهل الثروة ، وخصوصا من كبار موظفيها كالوزراء، والعمال ، والكتاب الذين أثروا من مالها بالاختـلاس ونحوه ، وسموا ذلك مصادرة كما سيأتى

على أن الدولة العباسية كانت فى بعض الاحيان تستسلف المال من بعض التجار فى مقابل أوراق لم يحل أجلها ، وأكثر ماكانوا يفعلون ذلك مع اليهود، وهم أقدر الناس على المراباة كما لا يخفى ــ وبلغ مقـــدار الربا الذى كانوا يأخذونه على تلك القروض نحو ٢٠ فى المائة ، فقد كان عـلى بن عيسى وزير المقتدر فى أوائل القرن الرابع للهجرة اذا احتاج الى المال وليس له وجـــه استسلف من التجار على سفاتج وردت من الاطراف ، ولم تحل بعد • وكان مقدار ما يدفعه عليها من الربا دانقا ونصفا على كل دينار فى الشهر ، فاذا استدان عشرة آلاف دينار بلغ رباها فى الشهر ٢ر٥٠٠ درهم • وأشهر من كان يتعامل معهم من صيارف اليهود فى بغداد رجل كان يعرف بيوسف بن فنحاس (*) وهو من تجار الاهواز أيضا ، وآخر اسمه هرون بن عمران أو من قام مقامهما مدة ست عشرة سنة(١) ــ غير أن ذلك لا يعد من قبيل الدين الاهلى الشائع فى هذه الايام (**)

---

*) كذا فى الاصـــل ، وفى كتاب الوزراء للصابى ، ص ١٧٨ : يوسف بن فيجـــاس اليهودى ، وكان جهبذ الاهواز

(١) Einnahmebudget des Abbasiden Reiches 63

(**) الفرق بعيد بين ما كانت الحكومة العباسية تلجأ اليه ابتداء من القرن الرابع من اقتراض الاموال من التجار او الممولين وما تعقده الحكومات اليوم من قروض اهلية بضمانة الخزانة ، ففى ايام العباسيين لم تكن الدولة هى التى تقترض بل كان الوزير أو شـخص الخليفة نفســه . ولم تكن المسألة فى الحقيقة مسألة قرض بل وسيلة للحصول على النقـود لضرورة عاجلة دون ضمان . وقد روى الشابشتى فى كتاب الديارات كيف نشأ ذلك ، قال : « ان الخليفة الموفق احتاج الى مال يخرج به الجند لمحاربة الصفار ، والتمس من وزيره صاعد بن مخلد أن يحتال فى ذلك ، فقال الوزير : والله مالى حيلة الا من حظر النفقات ومنع المرتزقين ، فقال الموفق : اين يقع ذلك مما احتاج ؟ والذى اريد ان تأخذ من التجار قرضا ، وتوظف عليهم وعليك وعلى الكتاب مالا تستعين به على اخراج راشد (قائد الجند) فاذا اتسعنا رددناه عليهم ، فاستوحش صاعد من ذلك وأراد اعمال الحيلة فى التباعد عنه » . وفى سنة ٣٠٠ هـ احتاج الوزير الى شىء من مال الاهواز ، ولم يكن اهله متأهبين لذلك ، فأرسل فى احضار يوسف بن فيجاس الجهبذ اليهودى ، وكان جهبذ الاهواز ، وطلب اليه تقديم مال (الوزراء للصابى ، ١٧٨) . وقد يطلب الوزير من بعض الزراع دفع الضرائب مقدما ، كما فعل صاعد بن خالد سنة ٣١٩/٩٣١ اذ « استسلف من مال سنة عشرين وثلثمائة شطره قبل افتتاحها بشهور ، فلم يبق من مال هذه السنة الا اقله ، واضطر فوق هذا الى ان يقترض

Marfat.com

(٣) اقتصاد الخلفاء الأولين وتدبيرهم

من الامور المقررة فى التاريخ السياسى ، أن مؤسسى الدول ومن يتلوهم من الامراء الاولين يغلب فيهم الاقتصاد والتدبير ، ولولا ذلك لم يتأت لهم انشاء الدول أو تثبيت دعائمها ، ويعبر فلاسفة التاريخ عن ذلك بصبوة الدولة . والصبوة تدعو الى النمو بالادخار . فاذا بلغت الدولة شبابها وتم نموها عادت ناكصة على عقبيها ، كما يتقهقر المرء الى الكهولة فالشيخوخة ــ فالدولة العباسية نشأت فى حجر السفاح طفله ، فتناولها المنصور صبية فغذاها ونماها حتى أدركت شبابها فى أيام الرشيد والمأمون ، ثم تقهقرت الى الكهولة فالشيخوخة فالهرم فى أيام الخلفاء الذين أتوا بعد ذلك

توفى السفاح وقد ملك أربع سنوات ، ولم يخلف سوى بعض الثياب (١) ولو كان طماعا لجمع مالا كثيرا لكثرة ما وقع له من غنائم بنى أمية فضلا عن الجبايات وغيرها

وخلفه المنصور فتولاها بضعا وعشرين سنة ادخر فى أثنائها نحو ٨١٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم كما تقدم . وكان لفرط حرصه متهما بالبخل ، ولم يكن بخيلا ولكنه كان لا يضع الكرم فى غير موضعه : لم يكن يبذل المال الا اذا رأى فى بذله منفعة فى تأييد دولته . وفضل المنصور فى تأييد الدولة العباسية بالحزم والشدة والعدل مثل فضل عمر بن الخطاب فى تأييد الاسلام ، يكفيك من دلائل اقتصاده وتدبيره وحسن نظره ما أوصى به ابنه المهدى عند وفاته .

مائتى الف دينار بربح درهم فى كل دينار » (مسكويه ٥/٣٤٢ ، ٣٤٥ و ٣٦٤)
روى ذلك كله آدم ميتز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع ، ترجمة الدكتور أبو ريدة ، (الطبعة الثانية ١٩٤٧) ، وانظر بقية الشواهد هناك
والخلاصة أن استسلاف المال بهذه الطريقة لم يكن عقد قروض بالمعنى المفهوم ، وانما وسيلة للحصول على المال بأى طريق . وكان الغالب ألا يرد الوزير ما يأخذه كما حدث سنة ٣٢٣/٩٣٤ ، وربما كتب لهم بأموالهم سفاتج (كمبيالات) يعطيهم بقيمتها فيما بعد شيئا من أملاك الدولة
وكان التجار والمولون ضحية الدولة وعمالها فى ذلك كله ، فكانت أموالهم مهددة ، بل كانت بلاء عليهم . وسبب ذلك أن الدولة كانت فى افلاس تام من النصف الثانى للقرن الثالث الهجرى فى خلافة المعتضد (٢٧٩/٨٩٢ ــ ٢٨٩/٩٠١) . وقد وصف هذه الحالة أبو القاسم عبيد الله ابن سليمان وزير المعتضد فى حديث له مع أحد أصحابه قال: « قد وردنا على دنيا خراب مستغلقة، وبيوت مال فارغة ، وابتداء عقد لخليفة جديد الامر ، وبيننا وبين افتتاح الخراج مدة ، ولا بد لى فى كل يوم سبعة آلاف دينار لنفقات الحضرة على غاية الاختصار والتجزية ، فان كنت تعرف وجها تعيننى به فأرشدنى اليه ، فأشار صاحب الوزير باطلاق ابنى الفرات ، وكانا عاملين لهما دهاء وخبرة بالاعمال والاموال ، فأطلقهما من سجنهما ، فخاطبا أحد الاغنياء فى أن يضمن جزءا من ارض العراق على أن يحمل من ماله فى كل يوم سبعة آلاف دينار ، فأعطى خطه بذلك ، وعرف الوزير الامر ، فاستطير هو والخليفة سرورا لهذا الحل الجديد لما انطوى عليه من مهارة »
كتاب الوزراء للصابى ، ١٠ ــ ١١
رواه آدم ميتز فى كتاب الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع ، الترجمة العربية ، ج ١ ص ١٨٥ ــ ١٨٦
(١) ابن الاثير ٢١٩ ج ٥

Marfat.com

من ذلك قوله : « قد جمعت لك من الاموال ما ان كسر عليك الخراج عشرسنين كفاك لأرزاق الجند والنفقات والذرية ومصلحة البعوث ٠٠ واياك أن تدخل النساء فى أمرك ، واياك والأثرة والتبذير لاموال الرعية ، واشحن الثغور ، واضبط الاطراف ، وأمن السبل العامة ، وأدخل المرافق عليهم ، وادفع المكاره عنهم ، وأعد الاموال واخزنها ، فان النوائب غير مأمونة،وهى من شيم الزمان، وأعد الكراع والرجال والجند ما استطعت ، واياك وتأخير عمل اليوم الى الغد فتتدارك عليك الامور وتضيع ٠٠٠ وأعد رجالا فى الليل لمعرفة ما يكون فى النهار ، ورجالا فى النهار لمعرفة ما يكون فى الليل ، وباشر الامور بنفسك ، ولا تضجر ، ولا تكسل ، واستعمل حسن الظن ، وأسىء الظن بعمالك وكتابك وخذ نفسك بالتيقظ » (١)

***

قضى المنصور مدة خلافتــه ، ولم ير فى داره لهو ولا شىء يشبه اللهو أو اللعب ، أو العبث ، الا مرة ، كان فى مجلسه فسمع جلبة فأمر حمادا التركى وكان واقفا على رأسه أن يبحث عن سبب ذلك • فمضى فرأى خادما من خدم المنصور وقد جلس وحوله الجوارى وهو يضرب لهن بالطنبور ، وهن يضحكن، فعاد حمــاد واخبر المنصــور فقال : « واى شىء هو الطنبور ؟ » فوصفه له فقال : « وما يدريك أنت ما الطنبور ؟ » فقال : « رأيته بخراسان » فقــام المنصور ومشى الى الجوارى فلما رأينه تفرقن خوفا منه ، فأمر بالخادم فضرب رأسه بالطنبور حتى تكسر الطنبور وأخرج الخادم فباعه

***

وكان المنصور بخيلا على نفسه باللباس ، كان يرتدى جبة هروية ويرقع قميصه ، واذا استجداه أحد بخل الا اذا رأى الجود لازما •فربما سأله أحدهم درهما فلا يعطيه ، ويعطى الآخر ألفا بلا سؤال ٠٠ من أمثلة ذلك أن أحــد معارفه القدماء لقيه بعد الخلافة وكان فقيرا فسأله المنصور : « ما عيالك ؟ » قال : « ثلاث بنات والمراة وخادم لهن » فقال له : « انت ايسر العرب . اربع مغازل يدرن فى بيتك ٠٠ » ولم يعطه شيئا • ولما توفى عيسى بن نهيك سأل المنصور خادمه عما خلفه من المال فقال الخادم : « خلف ألف دينار أنفقتــه امرأته على مأتمه » فقال : « كم خلف من البنات ؟ » ، قال : « ستا » فأطرق المنصور ثم أمر لكل من البنات بثلاثين ألف دينــار وسعى فى تزويجهن • وفرق المنصور فى أهل بيته فى يوم واحد ...ر...ر١٠ درهم (٢)

---

(١) ابن الاثير ٨ ج ٦ (٢) ابن الاثير ١٣ ج٦

Marfat.com

ولما توفى المنصور خلفه ابنه المهدى ، وكان شبيها بأبيـــه من عدة وجوه ، ومن جملتها النظر فى دقائق الأمور • وفى أيامه ترتبت الدواوين وتنظمت ادارة الحكومة ، وتقررت القواعد على يد وزيره معاوية بن يســـار (١) وكان يجلس للمظالم بنفسه ، وكان تقيا ورعا ، ولكنه لم يكن فى مثل ما كان عليه أبوه من الاقتصاد • وتولى بعده الهادى زمنا قصيرا ، ثم الرشيد وكان تدبير المملكة قد أفضى الى الوزراء من آل برمك ، وقد اتســـعت الارزاق وكثرت الامـــوال • وكان البرامكة أهل كرم وســـخاء ، فزادوا الخلفاء كرما وكانوا يحرضونهم على ذلك منذ صغرهم ، كما فعل يحيى البرمكى مع الرشيد وكان يسايره يوما فقام رجل فقال : « يا أمير المؤمنين عطبت دابتى» فقال الرشيد: « يعطى خمسمائة درهم » فغمزه يحيى•فلما نزل الرجلقال الرشيد ليحيى : « يا أبتاه أومأت الى بشىء وقتما أمرت بالدراهم فما هو ؟ » فقال : « مثلك لا يجرى هذا المقدار على لسانه ، انما يذكر مثلك خمسة آلاف ألف ، وعشرة آلاف ألف » ، قال : « فاذا سئلت مثل هذا كيف أقول ؟ » فقال : « تقول : يشترى له دابة ويفعل به فعل نظرائه » (٢)

وكان الرشيد ميالا للجود من فطرته ، فنشطه ذلك حتى صار الى أبعـــد مما أرادوه ، واضطروا الى ايقافه عند حده (٣) . وأوغل الخلفاء بعد ذلك فى البذخ والاسراف ، وهما من أسباب سقوط دولتهم على ما سيجىء

وجملة القول أن أسباب الثروة العباسية فى عصرها الاول كثرة الدخـل وقلة النفقة • وأسباب كثرة الدخل :

١ ــ سعة المملكة

٢ ــ اشتغال الناس بالزراعة والتجارة لاطمئنان خواطرهم

٣ ــ ثقل الخراج المضروب على الارض

٤ ــ صدق العمال فى ارسالهم المال المجموع الى بغداد

وأسباب قلة النفقة :

١ ــ قلة الموظفين

٢ ــ عدم وجود الدين

٣ ــ اقتصاد الخلفاء الأولين

---

(١) الفخرى ١٦٣ (٢) سير الملوك ٧٨ (٣) الطبرى ١٣٣٢ ج ٣

Marfat.com

ثروة الدولة العباسية

فى عصر الاضمحلال

تمهيد فى اسباب ذلك الاضمحلال

لكل دولة أدوار شبيهة بأدوار الحياة من الطفولة الى الشيخوخة : فالدولة العباسية بلغت شبابها فى أيام الرشيد والمأمون وهو العصر العباسى الزاهر. ثم أخذت بعدهما فى الانحدار نحو الكهولة فالشيخوخة ، كما بلغت الدولة الأموية فى الشام شبابها فى أيام عبد الملك بن مروان وابنه الوليد. والدولة الأموية بالاندلس بلغت شبابها فى أيام الخليفة الناصر وابنه الحكم المستنصر. والدولة العثمانيـــة بلغت ذلك الدور فى أيام السلطان ســـليمان ، وقس على ذلك . وقد قسم ابن خلدون أيام الدولة الى خمسة أطوار : (١) الظفـــر (٢) الاستبداد (٣) الفراغ (٤) المسالمة والقنوع (٥) الاسراف والتبذير (١). وهو تقسيم اجمالى ربما لا ينطبق على أحوال جميع الدول انطباقا تاما الا بالتأويل. وأما تقسيمها باعتبار العمـــر فانه صريح واضح . ويحسن بنا قبل التقـــدم الى الكلام عن الثروة العباسية فى عصر الاضمحلال ، أن نذكر أســـباب ذلك الاضمحلال مما يتعلق بموضوع هذا الكتاب فنقول :

العرب والفرس

علمت مما تقدم أن الدولة العباسية انما قامت بنصرة الفرس وخصوصا أهل خراسان . وهؤلاء لم ينصروها الا انتقاما لانفسهم من بنى امية لما كان من تعصبهم للعرب ، واحتقارهم سائر الامم الخاضعة لهم ولو كانوا مسلمين. فالعباسيون عرفوا للفرس فضلهم فى ذلك فقربوهم واستخدموهم فى مصالح الدولة ، واتخذوا منهم الوزراء والعمال والكتاب وغيرهم، فضعف شأن العرب وصاروا ينظرون الى الدولة نظر المحاذر المراقب ولا حيلة لهم فى ارجاع نفوذهم. وبلغ الفرس أرفع المنازل عند العباسيين فى أيام البرامكة ، فزاد حقد العرب عليهم وسعوا فى اسقاطهم رغم ما كان من جود البرامكة وكرم أخـــلاقهم — ولعلهم كانوا يبالغون فى السخاء دفاعا عن مركزهم . على أنهم لم ينجوا من الحساد ممن ينتصرون للعرب فوشوا بهم واتهموهم بالطمع فى الملك حتى نكبهم الرشيد ، ومن أشهر وشاتهم الفضل بن الربيع وهو لم يكن عربيـــا ولكنه ينتسب الى العرب لاتصال نسبه بمولى عثمان بن عفان (٢)

---

(١) ابن خلدون ١٤٧ ج ١ (٢) ابن خلكان ٤١٢ ج ١

Marfat.com

فلما نكب البرامكة ظن العرب أنهم سيرجعون الى شوكتهم وسلطانهم • ثم مات الرشيد واختلف ابناه الأمين والمأمون على الخلافة ، والأمين عربى الأبوين لان أمه زبيدة حفيدة المنصور • فأخذ أهل بغداد بناصره وفيهم جند العرب (الحربية) • وأما المأمون فأمه فارسية ، وكان فى خراسان بين أخواله وشيعته (١) فنصره الخراسانيون كما نصروا أجداده ، وانتهى الخلاف بمقتل الأمين وفوز المأمون ، فعاد النفوذ الى الفرس وعادوا الى امتهان العرب•فعظم ذلك على هؤلاء ، وخصوصا لما تولى الحسن بن سهل ، وهو فارسى مجوسى الاصل حديث العهد فى الاسلام ، فطعنوا فى اسلامه وقالوا : « لا نرضى بالمجوسى ابن المجوسى » وتمردوا على الحكومة ، ولكنهم عادوا الى السكينة قهرا (٢) وجاء المأمون الى بغداد واستتب الأمر له ولنصرائه ، واشتغل هو بالعلم والفلسفة فجره ذلك الى القول بأن القرآن مخلوق ، فازداد العرب كرها له ولكنهم لم يستطيعوا رده

الاتراك

فلما مات المأمون سنة ٢١٨ هـ أفضت الخلافة الى أخيه المعتصم بالله ،وكانت أمه تركية الاصل من بلاد الصغد فى تركستان (٣) فشب محبا للاتراك،وكان قد أصبح لا يأتمن الفرس على نفسه بعد أن قتلوا أخاه الأمين ، وهى أول مظاهر جرأتهم على الخلفاء • ولم يكن له من الجهة الاخرى ثقة فى جند العرب لما يعلمه من ضعفهم بعد ما سامهم اياه العباسيون من الاذلال • وزد على ذلك أن أخاه المأمون أوصاه عند دنو أجله بمحاربتهم ــ فلم ير له غنى عن الاعتماد على من ينصره من غير الفرس والعرب • وكانت الفتوح الاسلامية قد أدركت ما وراء النهر ، وكان العمال هناك يبعثون الهدايا الى بلاط الخلفاء وفى جملتها صبيان الاتراك والفراغنة ، فهان عليه اقتناؤهم لاتصال نسب أمه بهم • فاقتنى منهم ألوفا اشترى بعضهم بالمال والبعض الآخر أتاه على سبيل الهدية، وتكاثروا حتى بلغ عددهم ثمانية عشر ألفا (٤) فضاقت بهم بغداد وضجر البغداديون من سوء تصرفهم ، فابتنى لهم مدينة سامرا وأنزلهم فيها (٥) ، وأطلق لهم الارزاق وجند منهم الجنود • ولا ريب أنهم كانوا عونا له فى تأييد سلطانه ، والفوز فى حروبه ضد أعدائه من الروم والترك ، ولكنهم كانوا من الجهة الاخرى سبيلا الى تقهقر الدولة العباسية ، بما كان من مطامعهم فى الاموال ، واستئثارهم بالنفوذ ، حتى أصبحت الدولة وبيت مالها وخلفاؤها تحت رحمتهم

وكان المأمون عالما حكيما ، وكل بطانته وجلسائه من أهل الحكمة والعلم ،

---

(١) ابن الاثير ٩٢ ج ٦ (٢) ابن الاثير ١٢٩ج٦ (٣) ابن الاثير ٢١٥ ج ٦ (٤) القرمانى ١٥٧
(٥) اليعقوبى (كتاب البلدان) ٣٢

Marfat.com

وكان مع ذلك رقيق الجانب يضرب المثل برقته ودعته ـ قال يحيى بن اكثم : ماشيت المأمون يوما من الايام فى بستان مؤنسة بنت المهدى ، فكنت من الجانب الذى يستره من الشمس ، فلما انتهى الى آخره وأراد الرجوع أردت أن أدور الى الجانب الذى يستره من الشمس فقال : « لا تفعل ، ولكن كن بحالك حتى أسترك كما سترتنى » فقلت : « يا أميرالمؤمنين لو قدرت أنأقيك حر النار لفعلت ، فكيف الشمس ؟ » فقال : « ليس هذا من كرم الصحبة » ومشى ساترا لى من الشمس كما سترته (١)

وقال يحيى بن خالد بن برمك أيضا : « كنت نائما عند المأمون فعطش فامتنع أن يصيح بغلام يسقيه ، وأنا نائم فينغص على نومى ، فرأيته وقد قام بمشى على أطراف أصابعه حتى أتى موضع الماء ، وبينه وبين المكان الذى فيه الكيزان نحو من ثلثمائة خطوة ، فأخذ منها كوزا فشرب ثم رجع يمشى على أطراف أصابعه حتى قرب من الفراش الذى أنا عليه فخطا خطوات خائفلئلا ينبهنى حتى صار الى فراشه »

وبالغ المأمون فى ملاطفة حاشيته ورجال دولته حتى طمع خدمه فيه واستخفوا به • قال عبد الله بن طاهر : « كنت عند المأمون يوما ، فنادى الخادم : يا غلام ! فلم يجبه أحد ، ثم نادى ثانيا وصاح : يا غلام ! فدخل غلام تركى وهو يقول : « ما ينبغى للغلام أن يأكل ولا يشرب ؟ كلما خرجنا من عندك تصيح ياغلام ياغلام ! الى كم يا غلام ؟ » فنكس المأمون رأسه طويلا فما شككت أن يأمرنى بضرب عنقه ، ثم نظر الى وقال : يا عبد الله ، انالرجل اذا حسنت أخلاقه ساءت أخلاق خدمه ، واذا ساءت أخلاقه حسنت أخلاق خدمه • وانا لا نستطيع أن نسىء أخلاقنا لتتحسن أخلاق خدمنا » (٢)

***

تلك كانت مناقب المأمون من اللطف والدعة والحلم ، مع العلم والادب والفضل وسعة الصدر • فخلفه المعتصم وكان عاريا من العلم يقرأ قراءة ضعيفة (٣) وكان غضوبا شديد النقمة (٤) منصرف الهمة الى ركوب الخيل واللعب بالصوالجة (٥) وساعده على ذلك قوة بدنه فقد كان يحمل الف رطل ويمشى بها خطوات (٦) فراى رجال الدولة فرقا بعيدا بينه وبين اخيه ، فلم يخلصوا له فازداد هو رغبة فى اتراكه ، وفراغنته . وكان مع ذلك على راى أخيه المأمون من قبيل القول بخلق القرآن ، فاستخدم العنف والشدة فى تاييده حتى لقد أحضر أحمد بن حنبل الامام الشهير وسأله عن رأيه فىالقرآن فلم يجب الى القول بخلقه ، فأمر بجلده جلدا عظيما حتى غاب عقله وقطعجلده

---

(١) العقد الفريد ٢٠٩ ج١ (٢) المستطرف٩٦ج١ (٣) القرمانى ١٥٥
(٤) ابو الفداء ٢٧ ج ٢ (٥) ابن الاثير ٢١٦ ج ٢ (٦) الفخرى ٢٠٩

وحبس مقيدا (١) فزاد نفور عامةالمسلمين منه وخصوصاالعرب وهو لايكترث بذلك ، وانما كان معتمده على جنده الاتراك وهم حديثو العهد فىالاسلام وفى التمدن الاسلامى ، لانهم جاءوا من بلادكانت لا تزال فى عهد الجاهلية ، وكانوا حجر عثرة فى طريق ذلك التمدن ، ففسدت النيات واضطربت الاحـــوال وابتدأت الدولة فى التقهقر من ذلك الحين

المال

وكانت غاية المسلمين فى عهد الخلفاء الراشدين تأييد الاسلام ونشره ورفع شأن العرب • فلما طلب الأمويون الخلافة احتاجوا الى المال ، فبـــذلوا كل وسيلة فى سبيل جمعه وقلت الرغبة فى تأييد قواعد الدين ، ولـكنهم ظلوا على تعصبهم للعرب وزادوا عليه احتقارهم سائر الامم • فكان مطمح أنظارهم « العرب والمال » ، فلما تولى العباسيون أهملوا أمر العرب ، واستبدلوهبنصرة الاسلام على الاطلاق ، وانصرفوا فى أيام زهوهم الى الاشتغال بالعلم والفلسفة والتجارة وغيرها من عوامل التمدن ، واســـتعانوا على ذلك بالفرس وكانوا عريقين فى المدنية قبل الفتح الاسلامى ، وفيهم استعداد فطرى للتمدن فضلا عن أن تأييد الدولة العباسية يعود بالعمران علىبلادهم لان مركز الخلافة فيها• فأخلصوا الخدمة فعمرت البلاد ونضجت الثروة وتدفقت ينابيعها ، ففاضت الاموال فى خزائن الخلفاء ورجال دولتهم فأسرفوا وانغمسوا فى الرخاءوالرغد والترف ، حتى بلغوا قمة المجد فى أيام الرشـــيد والمأمون • فلما كانت أيام المعتصم واستكثر من المماليك الاتراك كما تقدم ، واستخدمهم فى مصـــالح الدولة ، انحصرت غاية رجال الدولة فى اختزان الاموال لانفسهم ولو آلذلك الى خراب البلاد لانها ليست بلادهم ولا أهلها أهلهم • وانما كان همهم حشد الاموال وحملها الى بلادهم (٢) وضعف الخلفاء عن رد شـــكيمتهم فطمع فيهم العمال والوزراء واستبدوا ، وصاروا يتسابقون الى الاســـتئثار بالاموال فتحولت ثروة الدولة العباسية من الخليفة وبيت المـــال الى الوزراء والعمال والكتاب والقواد ونحوهم • فاضطر الخلفاءلاصلاح شؤونهم واستبقاءسلطانهم الى الجند ، والجند يتطلبون الاموال ، والاموال عند الوزراء والعمال والكتاب ، وعمد الخلفاء الى مصادرة هؤلاء أى أخذ أموالهم بالقوة • والمصادرة تحتاج الى رجال وهم لا يعملون عملا الا بالمال

فأصبح المال محور القوة لحفظ كيان الدولة ، وعليه معول الخلفاء فى تثبيت بيعتهم ومحاربة أعدائهم والدفاع عن حياتهم ، حتى فى داخل قصـــورهم • وامحت العصبية القرشية التى قضت عـــلى عيسى بن مصعب بن الزبير أن

---

(١) ابن الاثير ١٨١ ج ٦ (٢) ابن الاثير ٢٠٩ ج ٦

Marfat.com

يخالف أباه مصعبا فى أثناء محاربته عبد الملك بن مروان سنة ٧١ هـ ويسلم نفسه للقتل حيـاء من قريش ـ وكان مصعب قد يئس من البقاء وهو يدافع عن حق أخيه عبد الله فى الخلافة ، فجاءه محمد بن مروان فبذل له الامان اذا سلم فأبى ولكنه حرض ابنه عيسى على التسليم لحفظ حياته فأجابه الغلام : « لا تتحدث نساء قريش أنى خذلتك ورغبت بنفسى عنك » فقال له مصعب : « اذهب أنت ومن معك الى عمك فى مكة فأخبره بما صنع أهل العراق ودعنى فانى مقتول » فقال الغلام : « لا أخبر عنك قريشا أبدا ، ولـكن يا أبت الحق بالبصرة فانهم على الطاعة أو الحق بأمير المؤمنين » فقال مصعب : « لا تتحدث قريش أنى فررت » ثم قال لابنه : «تقدم انى أحتسبك » فتقدم وقاتلوا حتى قتلوا جميعا (١)

ثم ان ثروة الدولة تتبع حال الدولة من العسر واليسر • فلما كانت الدولة العباسية فى ابان عمرانها على عهد الرشيد والمأمون كانت الثروة على معظمها فيها ، ثم أخذت فى التقهقر بغتة من أيام المعتصم ـ ويتضح ذلك جليـا من مقابلة مجاميع القوائم الثلاث المتقدم ذكرها وأقدمها أكثرها وهى :

١ ـ قائمة ابن خلدون من سنة ٢٠٤ الى ٢١٠ هـ ارتفاعها ٣٩٦ر١٥٥ر٠٠٠ درهم

٢ ـ قائمة قدامة من سنة حوالى ٢٢٥ هـ ارتفاعها ٣٨٨ر٢٩١ر٣٥٠ درهما

٣ ـ قائمة ابن خرداذبة من سنة حوالى ٢٥٠ هـ ارتفاعها ٢٩٩ر٢٥٦ر٣٤٠ درهما

فترى أن ارتفاع الدولة كان فى أول القرن الثالث نحو ٤٠٠ مليون درهم، ما عدا الاموال والغلات • ثم صـــار فى الربع الاول من القرن المذكور ٣٨٨ مليون بدون غلات ، ثم صار فى أواسط ذلك القرن أقل من ٣٠٠ مليون • فاعتبر هذا التدريج فى النقص الى أواخر أيام الدولة • على أننـا لا نستطيع اثبات ذلك صريحا فى كل العصور ، لقلة المصادر التى بلغت الينا فى هـذا الشأن ، اما لعدم عناية الحكومة فى تدوين الميزانيات المضبوطة أو لضياعهـا فى أثناء الفتن الاهلية وغيرها

مقدار الجباية فى عصر الاضمحلال

واذا نظرنا فيما كان يجتمع ببيت المال من بقايا الجباية على توالى الاعوام ، رأيناه لا يقاس بما كان يبقى فيه على عهد الخلفاء الاولين • على أنهم كانوا اذا توفق لهم خليفة حكيم يقتصد فيجمع شيئا خلفه من يسرف فيضيعه • ومن

---

(١) ابن الاثير ١٥٩ ج ٤

أمثالهم المأثورة أن ما جمعه السفاح والمنصور والمهدى والهادى والرشيدأنفقه الأمين (سنة ١٩٣ ـ ١٩٨) ، وما جمعه المأمون والمعتصـــم والواثق أنفقه المتوكل (سنة ٢٣٢ ـ ٢٤٧) ، وما جمعه المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد والمعتضد والمكتفى أنفقه المقتدر (سنة ٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ)

أما مقدار الجباية فى العام فلم نتوفق الى تفصيل له الا فى أيام المقتدر ، اذ اضطر وزيره على بن عيسى لتبرئة نفسه مما لحق بيت المال من العجز أن يرفع تقريرا بما كان من مقدار الدخل والخرج لعام ٣٠٦ هـ ٠ وكانت نسخة هـذا التقرير ضائعة حتى أظهرها البارون فون كريمر ، ونشرها فى كتاب سماه جباية الدولة العباسية (١) لسنة ٣٠٦ ، وصدره بمقدمة ألمانية ، ذكر فيها كيفية عثوره على تلك النسخة ، وما عاناه فى قراءتها ، لانهـــا مكتوبة بخط عربى غير مألوف ، وأبدى ملاحظاته على تلك القائمة مما يطول شرحه فنكتفى بذكرها كما قرأها هو

والقائمة المذكورة عبارة عن أربعة أقسام :

الاول فى جباية السواد وملحقاته

والثانى فى جباية المشرق أى البلاد الواقعة شرقى السواد

والثالث جباية المغرب ، أى البلاد الواقعة غربى السواد

والرابع جباية الاموال الخاصة والموقوفة

جباية الدولة العباسية لسنة ٣٠٦ هـ

(وهى قائمة على بن عيسى وزير المقتدر ـ كما قراها فون كريمر)

١ ـ جباية السواد

حرف (اى بيان) عن السواد والاعمال المعمورة والبلاد المذكورة

دينار	
١ ٥٤٧ ٧٣٤	اموال السواد وطساسيجه وصدقات اراضى المغرب (أى الغرب) بالبصرة والمراكب بها وسائر ماينسب اليها ويجـرى معها

(1) Einnahmebudget des Abbasiden Reiches

	(تفصيلها)
	باذوريا وكلواذى ونهربين (*) ٢٨٣ ١٦٦ درهم
١٩٨ ٣١٣	الانبار وقطربل وسد
٧٥ ٥٧٦	بهرسير والرومقان وايغار يقطين وجازر والمدينة العتيقة
٢٥ ٠٠٠	كوثى ونهر درقيط
٩ ٥٢٦	الزاب الاعلى ونهر كشتاسب
١٦ ٧٣٦	الفلوجة العليا والارحاء
١٣ ٥٨٥	الفلوجة السفلى والنهرين وعين التمر
١٤٠ ٢٥٩	السيب الاعلى وسورا وبابل وخطرنية وباروسما الاعلى
٣٨ ٣٥٠	نهر الملك ومورجا ونهر جوبر والاساسان والمالكيات
٤٦ ٣٣٦	باروسما الاسفل
١١٠ ١٥٤	طساسجة الكوفة والخزن
٥٠ ٢١٩	العمارات بسر من راى
٢٠ ٥٩٠	نهر بوق والدير الاسفل
٢٤ ٣٠٠	بزر جسابور (**)
٢٠ ٠٣٥	الراذابان
١٣ ٦٦٦	روستقباد
٤٦ ٤٨٠	النهروان الاعلى وسمنطاى
٨٥٩ ١٢٥	(المجموع)

(*) كذا فى الاصل بحسب قراءة فون كريمر ، ونظن أن صحتها طسوج النهرين ، فقد ورد طسوج بهذا الاسم بين طساسيج السواد فى الجانب الغربى فى قائمة قدامة بن جعفر . واثبته كذلك بهذا الرسم لى سترينج فى كتابه عن بلاد الخلافة الشرقية

(**) ورد هذا الطسوج فى طساسيج الجانب الشرقى فى قائمة قدامة بن جعفر

Marfat.com

٨٥٩ ١٢٥	(مجموع ما قبله)
٤٠ ٣٢٧	النهروان الاوسط
٦٠ ٥٣٢	النهروان الاسفل
١٥٩ ٠٨٩	الصلح والمنازل
٤٢ ٤٩٩	بادرايا وباكسايا
٣١٠ ٧٢٠	واسط مع الخاصة والمستحدثة والعباسية بعد النفقات الراتبة
١٢١ ٠٩٥	البصرة وكور دجلة
٢٢ ٥٧٥	المراكب بالبصرة
٤٢ ٧٥٠	اموال الضمانات وما يؤدى عن فصول الانهار مما ينسب الى مفردات
٨٠ ٢٥٠	العبارة بهيت
١٦ ٩٧٥	اسواق الغنم بمدينة السلام وسر من راى وواسط والبصرة والكوفة
٦٠ ٣٧٠	دور الضرب بمدينة السلام وسر من راى وواسط والبصرة والكوفة
١٦ ٠٠٠	الجوالى بمدينة السلام
١٣ ٨٧٤	ما يؤدى الى الحضرة عن مال الارتفاقات والشجر والمقاطعات
١ ٨٤٦ ١٨١	(المجموع) (١)

٢ ـ جباية المشرق

١ ٢٦٠ ٩٢٢	كور الاهواز ضمانا على ابراهيم بن عبد الله المسبع وغيره
١ ٦٠٤ ٥٢٠	اموال فارس مع ما يسوغه مؤنس الخادم مع مافى أيدى اصحاب الاطراف مما ورد نفلا (هبة) فقط
٢٥٨ ٠٤٠	ضياع الامراء بهذه النواحى مع مال المراكب بسيراف
٣٦٤ ٣٨٠	كرمان مع ضياع الامراء سوى مال العهد والورح(*) وقرى المفازه وما يسوغه مؤنس الخادم عن مال الخزن والجهبذة (الصيرفة)
٨٠ ٠٠٠	مقاطعة عمان سوى اللطف (هدايا) المحمول الى الحضرة
٥٩٧ ٨٦٢	(المجموع)

(١) ترى فرقا كبيرا بين هذا المجموع والمجمل المذكور فى اول القائمة لعل سببه خطأ فى قراءة الاعداد فى الاصل ، وسنعتمد على المجمل الاول

(*) يغلب على ظنى ان فون كريمر قرا هذا اللفظ قراءة خاطئة . واحسب أنها الوزع بمعنى مصدر الضريبة . قال ابن خلدون فى المقدمة : « اعلم أن الجباية أول الدولة تكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة ، وآخر الدولة تكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة » . وانظر : دوزى ، ملحق القواميس ٢/٧٩٩

Marfat.com

٥٩٧ ٨٦٢	(مجموع ما قبله)	
	٠٧/ ٤٦٥	ارتفاع الخراج والضياع العامة بالمشرق على العقد والارتفاع بالامانة والضمانة ٥٢٥ ٥٧٠ ١ الخراج والاعشار والاخماس بالرى والدماوند مع مافيه مما استخرجه ابن داودان واحمد ابن على
١٢٢ ٦٤٤		الضياع بها
		قزوين وزنجان وابهر
١١٥ ٧١٠		الخراج
٥٨ ٢٩٠		الضياع
		قم
١٩٧ ٢٢٩		الخراج
٨٠ ٢٢٩		الضياع
		اصفهان
٤١٠ ١٧/		الخراج على العقد المجددة مع خراج الاكراد وما يفل من الايغار (*) وضياع السلطان
١٨٩ ٣١ ٤		الضياع بها
		ماء البصرة والايغارين
١٨٥ ٦ ٦		الخراج
٢٦٧ ٥٢٠		الضياع
		همدان
١٥٠ ٤٨٠		الخراج
٥٥ ٧٨٩		الضياع
		ماسبذان
٥٧ ٧٤٦		الخراج
١٦ ٧٥٠		الضياع
١٧ ٦٢ د		ساوة ودار الضرب بها
٧٠ ٢ ٣٩٠ ٢		
١٠٠ ٩٨٨ د	(المجموع)	

(*) الايغار اقطاع لا يدفع عنه صاحبه ضريبة لعامل الخراج ، او يؤدى خراجه الى الخليفة مباشرة . انظر : دوزى ، ملحق القواميس ٨٢٣/٢

١٠٠ ٩٨٨ ٥	مجموع ماقبله	
	١٠٥ ٦٧٨	ماه الكوفة بالخراج سوى الضياع الراسية والمستحدثة والطعم
	٨٩ ٥٠٠	الضياع بها
	٣٠ ٠١٥	حلوان عن الخراج والضياع
٢٢٥ ١٩٣		آذربيجان وارمينية على المعارفة التى فورق عليها سبيل السعر
٢٢٦ ٣٧٠		
٦ ٤٣٩ ٦٦٠	(المجموع)	

٣ ــ جباية المغرب (*)

حرف الضياع والخراج العامة بالمغرب وأجناده بعد الاحتسابات التى وضعها (أى خصمها) العمال من أصول الارتفاع كما هو جار فى العادات وسوى مقاطعات وثمن اجناس الغنائم مع ما فورق اهل (جزيرة قبرس) على ادائه فى كل سنة والاعمال المذكورة والاموال المسماة

يكون
مايتعلق بالمغرب واجناده
٤ ٧٤٦ ٤٩٢

تفصيله

٢٩٠ ٧٧٣	مصر والاسكندرية بعد الاحتسابات القديمة
١ ٠٨٠ ٠٠٠	وسوى مصادرة الماذرائيين ومال المرافق والتجارة الواردة وأثمان الغنائم
	جند فلسطين بعد الاحتسابات (**)
٨٠ ٧٥٠	مال
٢٣٠ ٦٤٧	جند الاردن بعد الاحتسابات
٤٠ ٤٦٠	مال
١ ٧٢٢ ٦٠٣	(المجموع)

(*) لا يراد بالمغرب هنا بلاد المغرب ،بل المراد ما يقع غربى دجلة من ولايات الدولة العباسية، وتكتب ايضا الغرب او الجانب الغربى

(**) اظن ان المراد بهذا السطر ان هذا مال مصر والاسكندرية اذا حسبت فيه مصادرة الماذرائيين ومال المرافق ... الخ

Marfat.com

١ ٧٢٢ ٦٣٠	(مجموع ما قبله)
١٠٢ ٠٦٢	
	جند دمشق بعد الاحتسابات
١١٣ ٠٥٧	مال
٣١٥ ٣٠٠	
	جند حمص بعد الاحتسابات
٢٠٠ ٤٦٠	مال
١١٥ ١١٤	
	جند قنسرين والعواصم بعد الاحتسابات
١٣٣ ٠٩٧	مال
٣٥٢ ٥٧٠	
١٥ ٧٦٥	دلوك ورعبان
٥٢ ٩٨٥	الثغور الشامية سوى صلح (أى ما صالح عليه) احمد بن الحسين الكاتب
٥ ٣٩٧	شمشاط وحصن منصور وكيسوم بعد الموضوع (اى بعد الذى وضع منه أى اسقط)
	مال
٦٥ ٣٣٢	
	سميساط وملطية بعد الاحتسابات
١٤ ٥٠١	مال
٣٤ ١٢٠	
	آمد سوى ما جمع فى اقطاع وكاسه بعد الاحتسابات
٥ ٤٧٨	مال
٨٢ ٤٢٢	
	ارزان وميافارقين بعد الاحتسابات
٥٦ ٧٥٠	مال
٨٢ ٤٢٢	
٣٤٦٨ ٦٤٢	(المجموع)

Marfat.com

٣ ٤٦٨ ٤٦٢	(مجموع ما قبله)
	ديار مضر
٢٥٧ ٢٢٥	
	ديار ربيعة بعد الاحتسابات
٢٢ ٧٩٧	مال
٣٠٤ ٠٩٣	
	الموصل ومردين وبهذرا والرساتيق الجبلية بعد الاحتسابات
١٧ ٧٥٠	مال
٤٩٢ ٤٣٠	
٩٦ ٥٨٤	طريق الفرات
٤ ٦٥٩ ٣٤١	(المجموع) (١)

٤ ــ جباية الاموال الخاصة

يكون (*) أموال الاعمال المسماة وأموال الخاصة والاموال الموقوفة وغير ذلك

٢٨٩ ٠٣٦	الضياع المستحدثة بعد الذى جرى فى ضمان واسط أسوة حال الخاصة
٥١٦ ٤٤٧	أموال الخاصة سوى ماكان منها بنواحى واسط فانه أضيف الى أموال العامة وخلط بها ودخل فى حمولها ونفقاتها
	١٨٥٤١١ العبر (أملاك الشواطىء اى الاملاك على السواحل)
	١١٦١٦٠ الاهوار (المستنقعات)
	٧٢٦٢٦ المشرق
	١٠٤٠٠٠ المغرب
١٨ ٧٧٨	هيت وأعمالها سوى ضياع السكر
	٨٢٤٠ العبر ، ٥٨٤٥٠ المغرب
	٥٢٦٢ الاهوار ، ٦٢٢٠٠ المشرق
٨٢٤ ٢٦١	(المجموع)

(١) ترى فرقا بين هذا المجموع والمجموع المذكور فى أعلاه ، وسنعتمد على ذاك
(*) أى أن هذه الجباية تضم أموال الاعمال المذكورة وأموال الخاصة والاموال الموقوفة

Marfat.com

٨٢٤ ٢٦١	(مجموع ما قبله)
١٤٤ ٧٦٠	مال الضياع العباسية سوى ماهو بنواحى واسط
	٧٣٢ ١٤ العبر
	٢٤٦ ١٤ الاهوار
	٦٧٢ ٣٠ المشرق
	١١٦ ٧٥ المغرب
٤ ٥٧٠	مال الموقوف للمساجد سوى ماكان منها بواسط
	٨٦٩ ٢٢ المشرق
	٧٦٠ ١٢ المغرب
٦١٧ ١٢٦	مال الضياع الفراتية
	٢٢٦ ١٧٠ العبر
	٧٢٤ ١٢٩ الاهوار
	٣٣٦ ٩٧ فارس
	٢٧٨ ٩٥ المشرق
	٢٢٥ ١١٤ المغرب
١٠٠ ٣١٨	مال الضياع المفردة فى سنة ثلاث وثلاثمائة
٧٦ ٩٨٠	مال الخزن والجهبذة سوى مايجمعه العمال مع اصول الاموال وسوى ماسوغه مؤنس الخادم منها بفارس وسوى ما دخل منها فى ضمان واسط
١ ٧٦٨ ٠١٥	(المجموع)

الخلاصة

١ ٥٤٧ ٧٣٤	جباية السواد
٦ ٤٣٩ ٦٦٣	« المشرق
٤ ٧٤٦ ٤٩٢	« المغرب
١ ٧٦٨ ٠١٥	« الأموال الخاصة
١٤ ٥٠١ ٩٠٤	دنانير

نسبة هذه الجباية الى ما كانت عليه فى العصر العباسى الاول

فمجموع هذه الجباية اكثر من ١٤ مليونا ونصف مليون من الدنانير ، واذا تحولت الى دراهم بلغت نحو جباية العصر العباسى الاول . غير ان الحال فى هذه الجباية غير ما كانت عليه فى ذلك العصر ، لان هذا المجموع لم

Marfat.com

يف بالنفقات اللازمة للدولة . وكانت النفقات قد تضـاعفت لاسباب سيأتى بيانها ، ومن أدلة ذلك ماجاء فى «عنوان السير » (*) عن نفقات الدولة على عهد على بن عيسى ، وقـد ذكرها المؤلف المـذكور بنوع خاص غير النفقـات الاعتيادية وهى :

دينـار	
٣١٥ر٤٢٦ر٥	نفقات الحرمين وطريقهما
٤٩١ر٤٥٦	نفقات الثغور
٥٦ر٥٦٩	رواتب القضاة فى الممالك
٣٤ر٤٣٩	رواتب ولاة الحسبة والمظالم فى جميع البلاد
٧٩ر٤٠٢	رواتب أصحاب البريد
٩٧٧ر٢٩٢ر٥	

وكل هذه الابواب لم يكن لها ذكر فى قائمة المعتضد ـ ناهيك بزيادة الجند وغيره من أسباب النفقة ، بحيث زاد الخرج على الدخل فى أيام على المذكور ٢ر٠٨٩ر٨٩٤ دينارا (١)

وقس على ذلك أحوال بيت المال قبل المقتدر وبعده ، مما يختلف باختلاف الخلفاء والوزراء وسائر الاحوال . ولـكن يقال بالاجمال أن الثروة تقهقرت بعد المأمون بتقهقر الدولة وانحطت بانحطاطها . والثروة كما قدمنا مايفيض من الدخل على الخرج ولذلك قلما كان يبقى فى بيت المال بقية الا فى أحوال قليلة وبمبالغ صـغيرة . فالمعتصـم ترك فى بيت ماله ٨ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم (٢) والمستعين (سنة ٢٥١هـ) خلف فى بيت المال ٥٠٠ر٠٠٠ دينار (٣) ، والمـكتفى (سنة ٢٩٥ هـ) خلف ١٥ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار ، والظاهر انها اجتمعت بتوالى الخلفاء ، فلما تولى المقتدر أنفقها كلها ، وأنفق ما جمعـه فى أيامه من أموال المصادرة فضلا عن الخراج (٤) ، حتى قدروا ما انفقه ضياعا وتبذيرا بنيف و ٧٠ر٠٠٠ر٠٠٠دينار (٥) ماعدا نفقات الدولة ، واضطر مع ذلك لاسترضاء الجند والغلمان للخـلافة أن يبيع ضـياعه وفرشه وآنيـة الذهب (٦) ، وبلغ

(*) « عنوان السير » هى الترجمة التركية لتاريخ ابن خلدون التى قام بها بيرى زادة (فينا ٨١٧ ـ ٨٢٠) وأكملها جودت باشا (الاستانة ١٢٨٠ هـ) وغيره (انظر بروكلمان ، مجلد ٢ من الملحق ص ٣٤٣) ولم يرد هذا البيان فى الطبعة العربية للعبر ، مما يدل على أن النسـخ التى استعملت فى الترجمة التركية أوفى من النسـخ التى طبعت عليها طبعة بولاق فى بعض المواضع

(١) عنوان السير نقله كريمر فى كتاب Einnahmebudget des Abbasiden Reiches

(٢) الفخرى ٢٠٩ (٣) الطبرى ١٥٤٥ ج ٣ (٤) ابن الاثير ٤ ج ٨ (٥) ابن الاثير ٩٠ ج ٨

(٦) صلة تاريخ الطبرى ١٤٤

من فقر بيت المال فى أيام المطيع لله سنة ٣٦١ هـ انه باع ثيابه وانقاض داره ليدفع ٢٠٠ر٠٠٠ درهم ، طلبت منـه للجنـد فى أثناء الفتنة ببغداد (١) • وكانت أحوال الخلفاء قد تغيرت فى أيام الراضى بالله سنة ٣٢٢ هـ وخرجت قيادة الامور من أيديهم ، ولم يبق لهم غير الخطبة والسكة (٢)

ولاضمحلال الثروة العباسية أسباب توضح كثيرا مما جاء فىجريدة على ابن عيسى من أسماء بعض الضرائب غير المألوفة

Marfat.com

(١) ابن الاثير ٢٤٤ ج ٨ (٢) الفخرى ٢٥٢ وابن الاثير ١٤٢ ج ٨

أسباب اضمحلال الثروة العباسية

فى العصر العباسى الثانى

قلنا فى بحثنا عن الثروة العباسية فى العصر العباسى الاول وعلة كثرتها : أن أسباب تلك الثروة كثرة الجباية ، وقلة النفقة ، وفصلنا ذلك تفصيلا . فأسباب قلة الثروة يجب أن تكون قلة الجباية ، وكثرة النفقة ، ولكل من هذين البابين فروع ولكل منها أسباب ، هاك تفصيلها :

اسباب قلة الجباية

١ ـ ضيق المملكة العباسية

بلغت المملكة العباسية أكبر سعتها فى أيام الرشيد والمأمون ، ثم أخذت بعض الولايات تنفصل عنها لاسباب يطول شرحها . وأول ما استقل من الولايات العباسية أفريقية ، بدأت بالاستقلال فى أيام الرشيد كما تقدم . ثم خراسان فى أيام المأمون ، ثم مصر فى أيام المعتمد فى أواسط القرن الثالث للهجرة ، ثم فارس وما وراء النهر وغيرها . ولم يمض الربع الاول من القرن الرابع حتى انقسمت تلك المملكة الواسعة الى بضعة عشر قسما ، كل منها فى حوزة دولة من دول المسلمين . على أن معظم هذه الدول كانت تعد الخليفة العباسى رئيسها الدينى وتؤدى اليه أموالا ، بعضها باسم الضمان والبعض الآخر باسم المصالحة والآخر باسم الهدية أو غير ذلك . وكان أكثرهم لايؤدى ما عليه الا مرة كل بضعة أعوام . وطبيعى أن تشتت المملكة على هذه الصورة يقلل مقدار الجباية

٢ ـ تخفيض الخراج المضروب

ذكرنا من اسباب زيادة الثروة العباسية فى أيام زهوها ثقل الضرائب ، وخصوصا فى العراق ، اذ كانت مقاسمة على النصف الى أيام المأمون . فأدرك هذا الخليفة العاقل ثقل هذا الخراج ، ورأى الثروة فائضة فى بيت ماله ، والاموال متوفرة ، فعمد الى التخفيف عن الناس فجعل خراج العراق خمسين (١) اى انه انقصه عشرين فى المائة وهو اسقاط عظيم ، وقد ظهر فرق ذلك فى ارتفاع جباية العراق حالا ، اذ كان فى قائمة قدامة

---

(١) الفخرى ١٩٨ وابن الاثير ١٤٧ ج ٦ والطبرى ١٠٣٩ ج ٣

Marfat.com

٠٦٥ر٧٥٤ر١١٤ درهما فصار فى قائمة ابن خرداذبة ٠٤٠ر٣١٩ر٧٨ درهما، لان الاول قدره على ما يظهر باعتبار النصف ، والثانى باعتبار الخمسين

واقتدى بالمأمون فى تخفيض الضرائب من جاء بعده من الخلفـاء ، فأبطل الواثق سنة ٢٣٢ هـ أعشار السفن (١) وقد رأيت أنها ضريبة ذات بال كان يرد منها الى بيت المال شىء كثير . واقتدى بالواثق خلفه المتوكل ، فأرفق بأهل الخراج بتأخير ميقات اقتضائه شهرين . وسبب ذلك ان الفرس قبل الاسلام كانوا يبداون بجباية الخراج فى النوروز ، وهو يقع عندهم فى الخامس من حزيران (يونيو) ، وكانوا يكبسون فى كل مائة وعشرين سـنة شهرا بحيث يرجع النوروز الى الخامس من حزيران . فاذا مضت ١٢٠ سـنة اسقطوا شهرا فيجعلون الخامس من حزيران الخامس من ايار (مايو) ولا يعيدون النوروز أو يطالبون بالخراج الا بعد شـهر اى حتى يأتى الخامس من حزيران . فلما فتح المسلمون العراق وفارس ظل الحساب فى جبـاية الخراج على ما كان عليه قبل الاسلام حتى تمت المائة والعشرون ، وكان ذلك فى ولاية خالد بن عبدالله القسرى على العراق ، فأراد الفرس ان يسـقطوا شهرا على جارى عادتهم فنهاهم خالد وقال : « هذا من النسىء الذى نهى الله عنه » واستشار الخليفة هشام بن عبد الملك فى ذلك فوافقه على ابطال الـكبس . فظل الحساب الجارى متقدما شهرا عن الحساب الحقيقى الذى تنضج فيه الغلات ، وظل الفرس يحاولون العود الى الـكبس فلم يتم لهم. ولمـا كانت خلافة الرشيد طلبوا الى يحيى بن خالد ان يتوسط لدى الخليفة بشـأن ذلك ، فأراد يحيى أن يجيب طلبتهم ، فتقول اعـداؤه فى ميله الى الزرداشتية فعدل عن عزمه . وما زال ذلك الفرق يتعـاظم بتوالى الاعوام حتى صار فى أيام المتوكل يقع فى نيسان (ابريل) والزرع اخضر . واتفق ان المتوكل مر ببسـتان فرأى الزرع اخضر ، فقـال لرفيق له : « مالى ارى الدواوين تطلب الخراج والزرع لم ينضج ؟ » فقص عليـه السبب ، فأمر أن يضاف الى تلك السنة ما كان تأخر ، فاذا هو شهران وبضعة أيام حتى يصير النـوروز فى الوقت اللازم . فأصـدر امره بذلك سنة ٢٤٣ هـ ففرح الناس (٢) لانه رفع عنهم من خراج تلك السنة نحو الخمس فقال البحترى فى ذلك :

ان يوم النوروز عاد الى العهـ ـد الذى كان سنه اردشـير

ولـكن امر المتوكل لم ينفذ تماما لانه قتل بعد قليل . واضطربت احوال الخلافة ، حتى اذا كانت أيام المعتضد بالله روجع فى ذلك فاصدر امره آخر

---

(١) الطبرى ١٣٦٣ ج ٣ (٢) البيرونى ٣١

Marfat.com

سنة ٢٨١ هـ بتأخير النوروز ستين يوما ، وكان قد وافق أوائل المحرم سنة ٢٨٢ ، فأمر أن يكون فى ١٣ ربيع أول منها . وجعلوه موافقا ١١ حزيران (يونيو) وأن يكبس بعد ذلك فى كل أربع سنين من سنى الفرس يوم واحد(١) ـ فعل ذلك ترفيها للناس ورفقا بهم (٢)

وكان المهتدى (٢٥٥ هـ) قد أمر باسقاط الكسور عما بقى من الزرع على المساحة ـ وذلك أن المنصور لما جعل خراج العراق مقاسمة كما تقدم أبقى بعضه على اسم الخراج القديم بالمساحة ، وكان ينكسر على أصحابه شىء كل عام والحكومة تطالب به . فلما تولى المهتدى أمر باسقاط الكسور وغض النظر عن أمثالها ، ومقدار ذلك نحو ١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم فى السنة (٣)

فترى من مجمل ذلك أن موارد الخراج ضعفت عما كانت عليه فى عصر الرشيد والمأمون ، وكان ذلك مساعدا على تقليل الجباية (*)

---

(١) المقريزى ٢٧٣ ج ١ (٢) ابن الاثير ١٨٦ ج ٧ (٣) الماوردى ٧٧

(*) السبب الرئيسى فى اقدام بعض الخلفاء على اسقاط بعض الاموال هو شعورهم بأن جباية الاموال لا تجرى على أسس ثابتة محكمة ، وأن الذين يقومون بالجباية يعسفون الناس ويزيدون عليهم ، ومن الواضح من مراجعة قوائم الحساب التى سبق ايرادها فى هذا الكتاب أن الاساس الحسابى كله لم يكن سليما ، فهذه الدولة الكبيرة التى كانت تدير أقطارا بأسرها لم يتعد علم رجالها بمسائل الحساب الا تقسيم أموال الدولة كلها الى بابين كبيرين : « الاستخراج » أى الدخل ثم « النفقات » وهى المصروفات ، وكانت المصروفات تقسم قسمين: راتبة أى دائمة ، وحادثة أى طارئة ، ولم يكن فيها باب واحد للمرافق العامة أو النفقات العامة كالتعليم وأعمال الرى وما الى ذلك . ولم يكن أحد فى الدولة يعرف ما له أو ما عليه ، لان الامر خرج عن الاسس الشرعية منذ العصر العباسى ، لان الضرائب التى تنص عليها الشريعة هى الجزية والزكاة وخراج الارض التى افتتحت عنوة ، أما خراج الارض التى يزرعها المسلمون والمكوس والاخماس وما الى ذلك فكلها مستحدثة اجتهد الفقهاء فى تأييدها باسناد من الشرع تقربا الى أصحاب السلطان ، فقالوا مثلا ان المكس على المتاجر يعتبر زكاة ، ويجوز لهذا أخذه بنسبة ١٠ ٪ ، فكانت النتيجة أن التاجر كان يؤدى العشر على نفس التجارة أكثر من مرة فى العام ، كلما دخلت التجارة بلدا أو خرجت من بلد ، مع أن الزكاة لا تؤدى الا مرة واحدة ، وفى ميقات معين . وكان عمال المال والجهابذة يبتكرون كل يوم أسلوبا جديدا لجباية مال جديد ، حتى لم يعد هناك شىء من غير ضريبة الا الهواء كما قال أحد المؤرخين ، فكان لابد من اسقاط بعض هذه الضرائب بين الحين والحين : فقد كانت جباية خراج العراق بنسبة نصف قيمة المحصول اجحافا ، وكان لا بد من انقاصها ، فأنقصها المأمون الى الخمسين ، وهى أيضا نسبة عالية ، ومع ذلك فقد فرح بها الناس ، وبعض الشر أهون من بعض ، ومن هذا الباب أيضا ابطال الواثق لاعشار السفن وهى ضريبة غير مشروعة ، ومن هذا أيضا تأخير المتوكل لموعد افتتاح الخراج شهرين ، لانه لم يكن من المعقول أن يطالب الناس بالخراج والزرع لم ينضج بعد فى الحقول ، وهكذا

ولكن الاتجاه العام كان الى الزيادة لا الى النقص ، واليك مثالا واحدا نأخذه من الاصطخرى فى كلامه عن فارس :

ابواب المال :

لبيت المال على الناس والرموم (كذا وصحتها فى الغالب : الزموم أى النواحى) أبواب المال التى تطبق عليها الدواوين من خراج الارضين والزكاة وأعشار السفن وأخماس المعادن والمراعى والجزية وغلة دار الضرب والمراصد (أى المراكز التى تجمع فيها الجمارك على الحدود) والضياع والمستغلات وأثمان الماء وضرائب الملاحات والآجام

(بقية الهامش فى الصفحة التالية)

Marfat.com

ومن هـــذا القبيل ما أصـــاب الجزية من النقص ، بدخول النـــاس فى الاســـلام بتوالى الاعوام ، حتى انحط مقدار ما يجبى منها بمدينـــة السلام فى أواسط القرن الثالث للهجرة ١٣٠ر٠٠٠ درهم (١) وقد رأيت فى قائمة على بن عيسى أنهم جبوها ١٦ر٠٠٠ دينار ، اى نحو ضعفى ما ذكره ابن خرداذبة ، ومع ذلك فاذا اعتبرنا تقديرها على اوسط قيمتها وهى ٢٤ درهما على الشخص ، كان عدد الرجال نحو ٩ر٠٠٠ وباضافة ما يلحقهم من النساء والاولاد لا يزيد عددهم على ٤٠ر٠٠٠ نفس من اهل الذمة فى مدينة بغداد من النصارى واليهود ، وهى فى ابان مجدها وسكانهـــا يزيدون على المليون . فقس على ذلك سائر المدن

ويقال نحو ذلك أيضا فى الزكاة ، فقد تناقصت بتوالى الاعوام ، حتى كادت تتلاشى ، وأصبحت المطالبة بها تدعو الى التذمر (٢) ، وكانت قد أبطلت فى مصر حتى أعادها السلطان صلاح الدين الايوبى . وتذمر المسلمون منهـــا ، وشنعوا على الذى يطالب بها ، حتى اذا تولى المنصور قلاون سنة ٦٧٨ هـ أبطل الزكاة من مصر (٣)

٣ ــ استئثار العمال بالجباية

قد رأيت استبداد العمال فى عصر بنى أمية ، واستئثارهم بالخراج ، وكيف تحسنت أحوالهم فى عصر العباسيين ، غير أن ذلك التحسن لم يدم طويلا ، فلما ضـــعف شأن الخلفاء عاد العمـــال الى ما تطمح اليه انظارهم من طلب

---

(١) ابن خرداذبة ١٢٥ (٢) ابن الاثير ٨٢ ج ٢ (٣) المقريزى ١٠٦ و ١٠٨ ج ١

فأما خراج الارضين فعلى ثلاثة أصناف : على المساحة ، والمقاسمة ، والقوانين التى هى مقاطعات (أى اتفاقات) معروفة لا تزيد ولا تنقص زرع أم لم يزرع

وأما المساحة والمقاسمة فان زرع أخذ خراجه وان لم يزرع لم يؤخذ

وعامة فارس مساحة الا الرموم ، فانها مقاطعات الا شيئا يسيرا من المقاسمات

وتختلف الاخـــرجة فى البلدان على المســـاحة ، فأثقلها بشـــيراز وعلى كل صنف من الزرع شىء مقدر

فعلى الجريب الكبير من الارض يزرع فيه الحنطة والشعير السـيح مائة وتسعون درهما والجرجر السـيح مائة واثنين وتسعون درهما

(الجرجر هو الترمس أو بقل آخـر كبير الحب . ويراد هنـا الجـريب من الارض التى يزرع فيها الجرجر)

والرطاب والمقاثى السـيح للجريب الكبير مائتان وسبعة وثلاثون درهما ونصفا

ومن الجريب الكبير من القطن السـيح ٢٥٦ درهما و ٤ دوانيق

وعلى الجريب الكبير من الكرم ١٤٢٥ درهما

والجريب الكبير ثلاثة أجربة وثلثان بالجريب الصغير

(يعده)

Marfat.com

الاستقلال بالحكم أو الاستئثار بالجباية ، واضطر الخلفاء الى التراضى معهم على مال مضمون وان يكن أقل مما يجبى ، وهو الضمان أو المقاطعة ــ كما قاطع المـــأمون بشير بن داود على السند ســـنة ٢٠٥ هـ على أن يدفع له ١١٫٥٠٠٫٠٠٠ درهم فى العام (١) معأن ارتفاع جبايتها الحقيقى ١٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم (٢) وضـــمن البريدى الاهواز على أيام الراضى كل ســنة ٣٦٠٫٠٠٠ دينار ، على أن يدفعهـــا أقساطا (٣) وخراجهـا الحقيقى يزيد على أربعـة أضعاف هذا المبلغ . ومع ذلك فالضامنون لم يكونوا يدفعون الا قليـلا مما تعهدوا به . فاذا ألح الخليفة عليهم فى المطالبة اتخذوا الحاجة ذريعـة الى

---

(١) ابن الاثير ١٤٩ ج ٦ (٢) ابن خلدون ١٥٠ ج ١ (٣) ابن الاثير ١٢٦ ج ٢

والجريب الصغير ٦٠ ذراعا فى ٦٠ ذراعا بذراع الملك ، وذراع الملك تسع قبضات

هذا خراج شيراز للسيح

وخراج « جور » على الثلثين من هذا ، لان جعفر بن أبى زهير الشامى كلم الرشيد فرده الى ثلثى الربع

وخراج اصطخر ينقص من خراج شيراز فى الزرع بشىء يسير

هذا خراج السيح

والبخوس (أو النحوس) خراجه على ثلث السيح

والطوى والنضح والمندى على ثلثى الخراج

والسقى ماندى وسقى سقية واحدة فيتبقى الربع من الخراج

واذا ندى وسقى سقيتين فهو السيح ، وقد استتم الخراج

وكورة دارابجرد وارجان وسابور زراعتهم ومقادير الخراج على أراضيهم بخلاف هذا يزيد وينقص

وأما المقاسمة فانها على وجهين :

ضياع فى أيدى قوم من أهل الرموم وغيرهم ، معهم عهـود من على بن أبى طالب ومن عمر ابن الخطاب وغيرهما من الخلفاء ، فيقاسمون على العشر والثلث والربع وغير ذلك

والوجه الآخر مقاسمات على قرى صارت لبيت المال ، فيزارع الناس عليها

وأما أبواب أموال الضياع ، فان الضياع السلطانية خارجة عن المساحة ، وانما تؤخذ من السلطان بالمقاسمة أو المقاطعة ، وعلى الاكرة فيها ضرائب من الدراهم يؤدونها

وأما الصدقات وأعشار السفن وأخماس المعادن والجزية ودار الضرب والمراصد وضرائب الملاحات والآجام وأثمان الماء والمراعى فانها تقرب فى الرسم مما فى سائر الامصار . وليس بفارس دار ضرب الا فى شيراز

وأما المستغلات فانها تربة (أى أرض) أسواق بشيراز وغير شيراز ، ويؤدون أجرة الارض والطواحين للسلطان وأجرة الدور التى يعمل فيها ماء الورد

وكان الرسم القديم بفارس أن كل حومة بفارس لا خراج على الكروم فيها ولا على الاشجار بجميع فارس ، الى ان ولى على بن عيسى الوزارة سنة ٣٠٢ هـ فألزمهم فيها كلها الخراج . وبفارس ضياع قد ألجأها أربابها الى الكبراء من حاشية السلطان بالعراق ، فهى تجرى بأسمائهم ، وخفف عنهم الربع ، فهى فى أيدى أهلها بأسماء هؤلاء ، يتبايعونها ويتوارثونها »

الاصطخرى : مسالك الممالك ، ١٥٦ ــ ١٥٨

وقد أتيت بهذه الفقرة على طولها لانها توضح الكثير من المصطلحات الواردة فى هذا البحث

Marfat.com

الاستقلال التام ، فيستنجد الخليفة جنده ونصرتهم تحتاج الى المـال ومن تمكن من المال ملك واستبد (*)

٤ ـ اشتغال الناس بالفتن والظلم عن العمل

لمـا نشأت الفتن ، وانتشبت الحروب بين طوائف الجند ، او بينهم وبين العمال ، انشغل النـاس عن تجـارتهم وزراعتهم ، وتوقف العمال ، وغلت الاسعار ، وتعطلت الزراعة لضياع الامن ، فقلت الجباية ، واحتـاج العمال والقواد الى الاموال ، فظلموا الناس فى تحصيلها منهم فزاد الخراب ـ وما من هادم للعمران كالظلم ، فانه يغل الايدى ويقعد النـاس عن السعى ، فينشغل به الزارع عن زراعته ، والتاجر عن تجارته ، والصانع عن صناعته ، ووبال ذلك عائد على الدولة اذ لا قوام لها الا بالرعية . والمشهور ان الظلم أخذ المال من يد مالكه بلاعوض ولا سـبب ، ولـكنه اعم من ذلك كثيرا . فان كل من أخذ ملك أحد ، أو غصبه فى عمله ، او طالبـه بغير حق ، او فرض عليه حقا لم يفرضه الشرع ، فقد ظلمه . فجباة الاموال بغير حقها ظلمة ، والمعتدون عليها ظلمة ، والمنتهبون لها ظلمة ، والمانعون لحقوق الناس ظلمة ، وغصاب الاملاك على العموم ظلمة .. فاذا ساد الظلم اقبل الخراب لا محالة ..

ومما زاد البلاء جسامة ، أن اكثر ما احتفره الخلفاء المصلحون ، فى اوائل الدولة العباسية ، من الترع والانهار لرى الارض ، وتسهيل الاستغلال انسد بالحروب ، لان المحاربين كثيرا ما كانوا يضطرون الى سـد الانهار ، ليمنعـوا

(*) جاء فى كتاب الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع لآدم ميتز (الترجمة العربية ، الطبعة الثانية ، ص ١٨٧) :

وكان امراء الاطراف فى معظم الاحوال يظهر امرهم بأن يكونوا ضامنين للبلاد التى يحكمونها ، ولم يظهروا فى صورة أصحاب الاقطاعات كما كان الحال فى الامبراطورية الجرمانية المقدسة ، وكانوا يتوصلون الى الملك بأن يبتدئوا باحتلال المدن والاقاليم غصبا ، ثم يقاتلوا عليها عسكر الخليفة ، حتى يعترف لهم بالامارة فى مقابل مال يضمنون اداءه ، وكانت امثال هذه الضمانات التى تؤخذ كرها توفى الحكومة صفقة سيئة بالنسبة لانواع الضمان الاخرى . ففى سـنة سنة ٣٢٢/٩٣٤ فتح عماد الدولة بن بويه اقليم فارس وطلبها ضمانا من الخليفة ، على ان الف دينار ، وهو ما يقرب من عشر الدخل الذى كانت تدفعه هذه البلاد منذ ١٠٠ سنة ، وفى سنة ٣٢٢/٩٣٤ فتح عمـاد الدولة بن بويه اقليم فارس وطلبها ضمانا من الخليفة ، على ان يدفع اليه ٠٠٠ ٠٠٠ ١ درهم على حين انها كانت تؤتى من مال الخراج والضياع وحده منذ عام ٢٩٩/٩١١ الى ما بعد ذلك بعشرين عاما ٠٠٠ ٠٠٠ ١٨ درهم ، وكذلك كان ضمان عمان فى أوائل القرن الرابع ٠٠٠ ٨٠ دينار ، وكان خراجها تحت الادارة المباشرة قبل ذلك بمائة عام ٠٠٠ ٣٠٠ دينار »

Marfat.com

سفن الاعداء من المرور فيها (١) فضلا عما يدعو اليه اهمال العمال من فساد الرى وضياع الزرع (*)

٥ ـ تحويل أكثر البلاد الى ضياع

يراد بالضياع عندهم المزارع ، أو ما يعبر عنه المصريون بالابعادية أو العزبة . ويغلب فى الضياع أن تكون لاهل الدولة من الخلفاء أو أقاربهم أو عمالهم او وزرائهم أو كتابهم ، أو من يلوذ بهم من اهل النفوذ ، وقد رأيت فى هذا الجزء أن عمر بن الخطاب نهى المسلمين عن اتخاذ الزرع واقتناء الضياع ، لحكمة أرادها من بقائهم على اهبة الرحيل عند الاقتضاء ، لايقعدهم الترف أو القصف ، كما نهى عن اختزان المال فى بيت المال . غير أن هاتين القاعدتين لم يطل العمل بهما الا ريثما انتقلت الدولة الاسلامية من الخلافة الدينية الى الملك العضوض فى أيام بنى أمية ، فاختزن الصحابة الاموال واتخذوا المصانع (أى الدور المبنية) والضياع كما بيناه هناك . واقتدى بهم من جاء بعدهم من التابعين وتابعى التابعين ، وكان اقدمهم على ذلك الخلفاء من بنى أمية ، فقد أكثروا من المصانع والضياع حتى كان بعض أهلهم يقبضها اغتصابا من اصحابها وليس من ينصفهم ، لتعصب بنى أمية للعرب واحتقارهم سائر الامم واعتبارهم ما فتحوه من الارض ملكا حلالا لهم ، فما أرادوا اخذه اخذوه ، وما أرادوا تركه تركوه (٢) حتى افضت الخلافة الى عمر بن عبد العزيز فعمل على الاقتداء بعمر بن الخطاب بالرفق والاحسان مع العدل ، باسترجاع الضياع المغتصبة الى أهلها من النصارى أو اليهود أو المجوس ، فساء ذلك أهله فعجلوا به وعادت الاحوال بعده الى أشد مما كانت عليه كما تقدم

فلما افضت الخلافة الى بنى العباس سنة ١٣٢ هـ أعملوا السيف فى بنى أمية ، ففروا وتركوا اموالهم وضياعهم فاستولى عليها العباسيون ، ولم يعدوا امتلاكها مخالفا لشروط الخلافة لاعتبارهم ذلك لازما لحياطة الدولة أو حقا من حقوق الملك ، اذ ليس من أوامر الدين أو نواهيه ما يمنعهم من

---

(١) ابن الاثير ١٨١ ج ٦ و ٢٢٦ ج ٨

(*) كان الداء الاكبر فى النظام المالى العباسى ـ ومعظم الدول الاسلامية فى العصور الوسطى ـ هم القائمون بشئون المال انفسهم ، فقد كانت الغالبية منهم أقرب الى اللصوص وقطاع الطرق والجلادين سواء فى ذممهم أو اساليبهم أو خلقهم ، بل كانوا يختارون بنوع خاص من اولئك الذين لا ضمير لهم ، فقد روى الصابى فى كتاب الوزراء (ص ١٢١ وما بعدها) ان أبا الحسن بن الفرات فى وزارته الاولى (٢٩٦/٩٠٨ـ٢٩٩/٩١١) قال مرة : « أريد رجلا لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر يطيعنى حق الطاعة ، فأنفذه فى مهم لى .. » وقد كان الجانب الاكبر من الجباية يتسرب الى هؤلاء الناس ، وكانوا يستخرجون من الناس أضعاف ما عليهم ، وكان الناس جميعا يعرفون ذلك ، ومن هنا فقد كان الاتقياء يتحاشون العمل للسلطان ومال السلطان واعوانه على اعتبار أن اموالهم كلها حرام

(٢) المقريزى ٧٧ ج ١ والاغانى ٣٠ ج ١١

Marfat.com

ذلك صريحا . والانسان ميال بفطرته الى الاستكثار من حطام الدنيا واختزان القوة اذا وجد الى ذلك سبيلا . فالخلفاء العباسيون فى أوائل دولتهم بذلوا الجهد فى انصاف الناس وتأمينهم ، ليبينوا لهم الفرق بين حالهم فى أيام بنى أمية وفى أيامهم ، فلم يكونوا يغتصبون ضيعة ولا مالا ، ولكن بعض الذين دخلوا فى خدمتهم أو انتموا اليهم من الامراء أو الكبراء كانوا يمدون ايديهم الى ضياع الناس . وكان الخلفاء ينصفون أصحاب الضياع اذا تظلموا ويردون ضياعهم اليهم (١) على أن ذلك قلما كان يقلل من مطامع اهل الدولة فى اموال الناس ، فاستكثر العمال والوزراء وغيرهم من اقتناء الضياع والابنية بحق أو بلا حق ، والخلفاء يمنعونهم جهد الطاقة فاذا لم يتمكنوا من منعهم بالحسنى صادروهم أو قبضوا أموالهم بعد موتهم . كما فعل الرشيد بأموال محمد بن سليمان عامله على البصرة ، وكان مبلغها ٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم سوى الضياع والدور والمستغلات وكانت غلته ١٠٠٫٠٠٠ درهم فى اليوم (٢) وأمثال هذا القبض كثيرة ناهيك بالمصادرات التى سيأتى تفصيلها . فالضياع التى تقبض على هذه الصورة تصير الى الخليفة أو الدولة ، فآل ذلك الى استكثار الخلفاء أنفسهم من الضياع

على ان أكثر ما يكون اقتناء الضياع لحاشية الخليفة وأهله . وهذا طبيعى فى الحكومات الاستبدادية ، وخصوصا اذا كان الحاكم كريم الخلق أو ضعيفا تؤثر عليه وساطة أهله ورجال حاشيته . ولذلك كثرت الضياع عند رجال الدولة حتى صاروا يتهادونها أو ينعمون بها على الناس جائزة على قصيدة أو خطاب أو نكتة أو غير ذلك . وفى اخبار البرامكة كثير من أمثال هذه العطايا . ومن هذا القبيل ما فعله الحسن بن سهل لما زفت ابنته بوران الى المأمون ، فانه كتب ضياعه فى رقاع جعل اسم كل ضيعة فى رقعة ونثرها على القواد فمن وقع له رقعة أخذ الضيعة المسماة فيها (٣)

وكان من أبواب اقتناء الضياع عندهم ـ حتى فى صدر الدولة العباسية ـ كثرة ما كان من الارض المهملة من عهد بنى أمية . فكان الخليفة يعهد الى بعض أهله أو خاصته فى تعميرها وغرسها ثم تصير له ـ كما فعل المنصور بابنه صالح اذ أمره بعمارة بعض المزارع العاطلة فى الاهواز(٤) ـ ومن أحيا أرضا مواتا فهى له

الاقطاع

ومن أسباب كثرة الضياع عند أهل الخلفاء ورجال الدولة الجاء

---

(١) الماوردى ٨٧ (٢) المسعودى ١٨٨ ج ٢ (٣) أبو الفداء ٣١ ج ٢
(٤) الفخرى ١٥٧

Marfat.com

الاهالى ضياعهم ومغارسهم الى بعض أقارب الخلفاء أو العمال تعززا بهم من جباة الخراج . فكان صـــاحب الارض يلتجىء الى بعض أولئك الـكبراء فيستأذنه أن يكتب ضيعته أو ضياعه باسمه ، فلا يجرؤ الجباة على العنف أو الظلم فى اقتضاء خراجها بل هم قد يكتفون منهم بنصف الخراج أو ربعه مراعاة لذلك الـكبير . ويجعل صاحب الضيعة نفسه مزارعا له ويدون ذلك فى دفاتر الحكومة . فتصبح تلك الضيعة بتوالى الاعوام ملكا للملجأ اليه (١) ويصبح صاحبها الاصلى شريكا فى غلتها . ومثل هذا الالجاء يحدث فى كل العصور فى البلاد التى يخاف أهلها سطوة الحكام واستبدادهم

وقد بدأ الالجاء فى الاسلام فى أيام بنى أمية لمـا كان من ظلم عمـالهم . فألجأ أهل السواد فى ولاية مسلمة بن عبد الملك وخلافة أخيه الوليد ضياعهم الى مسلمة المذكور تعززا به من جباة الخراج . ثم صـارت تلك الضـياع له وبقيت فى أعقابه حتى قامت الدولة العباسية ، فاستولى الخلفاء العباسيون عليها فى جملة ما اسـتولوا عليه من أموال بنى أميـة وضياعهم . وأقطعت هذه الضياع لداود بن على بن عبدالله بن عباس ، ثم صـارت من الضياع السلطانية (٢) وكذلك فعل بعض أهل المراغة فى آذربيجان مع مروان بن محمد لمـا تولى أرمينيـة فانهم ألجأوا تلك الضيعة اليه فقبضت فى جملة ماقبض من ضياعهم (٣)

وامتد الالجاء الى أيام بنى العباس بالاستمرار فألجأ أهل زنجان ضياعهم الى القاسم بن الرشيد تقربا اليه ودفعا لمـكروه الصعاليك عنهم . فكتبوا له الاثرية (أى كتبوا له صكوكا ببيعها له) وصاروا مزارعين له ثم صارت تلك الارض من الضياع السلطانية (٤) . وحدث نحو ذلك أيضا فى فارس ، فقد كانت فيها ضياع ألجأها أربابها الى الكبراء من حاشية السلطان بالعراق، وظلت تجرى بأسمائهم فخفف عنهم الربع وبقيت أجيـالا وهى فى أيدى أهلها بأسماء هؤلاء يتبايعونها ويتوارثونها (٥) وأصبح أهلها مزارعين لهم

ولم ينقض عصر الازدهار العباسى حتى أصبح فى حوزة الخلفاء وأقاربهم ورجال دولتهم ما لا يحصى عدده من الضياع ، واضطرت الحكومة الى انشاء ديوان خاص بخراجها وعشورها سموه « ديوان الضياع » وهو غير ديوان الخراج . وقد رأيت مقدار خراج الضياع فيما دونه على بن عيسى فى جريدة سنة ٣٠٦ هـ وكلها فى بلاد المشرق فى الرى ودماوند وقزوين وزنجـان وقم وأصبهان وهمذان وماسندان وغيرها . وترى خراج الضياع فى بعض الممالك يزيد على خراج الارض الاخرى . فخراج الضياع فى ماه البصرة والايغارين

---

(١) ابن الفقيه ٢٨٢ وابن خلدون ٣٠٨ ج١ (٢) قدامة ٢٤١ (٣) ابن الفقيه ٢٨٤
(٤) ابن الفقيه ٢٨٢ (٥) الاصطخرى ١٥٨

Marfat.com

مثلا ٢٦٧ر٥٢٠ دينارا ، وخراج سائر الارض هناك ١٨٥ر٦٣٦ دينارا٠ولو عوملت الضياع فى مقدار الخراج وطرق تحصيله مثل معاملة الارض الاخرى لزاد خراجها اضعاف ذلك . لان خراج تلك الضياع كان خفيفا جدا بالنظر الى غيره ، وكثيرا ما كان يترك ولا يطالب به اعواما على مقتضىاحوال السياسة وعلاقة ذلك بالعمال والخلفاء ، وربما تراكم الخراج عدة اعوام حتى تتغير السياسة ويأتى من يطالب به (١)

الضياع السلطانية

وكانت الضياع بالاجمال قسمين : الضياع العامة وهى ضياع رجال الدولة وأرباب الثروة من الاهلين وغيرهم. والضياع السلطانية وهذهاقسام سميت بأسماء تدل على أنواعها وهى :

(١) الضياع الخاصة : وهى ما يملكه الخليفة نفسه لا يشاركه فيه احد . وقد رأيت خراج هذه الضياع فى جريدة على بن عيسى ـ غير ما كان منها فى نواحى واسط لأنه أضيف الى أموال العامة ـ ٥١٦ر٤٤٧ دينارا

(٢) الضياع العباسية : وهى فى الغالب لبنى العباس أهل الخليفة ، وقد بلغ عددهم فى أيام المأمون ٣٣ر٠٠٠ نفس (٢) وبلغ خراج تلك الضياع سنة ٣٠٦ هـ ، ١٤٤ر٧٦٠ دينارا سوى ماهو منها فى واسط

(٣) الضياع المستحدثة : قد رايت خراجها فىتلك السنة ٢٨٩ر٠٣٦دينارا

(٤) الضياع الفراتية : وسميت بذلك لانها واقعة على ضفاف الفرات ، وخراجها لذلك العام ٦١٧ر١٢٦ دينارا

وكانت هذه الضياع من سواد بغداد والكوفة والبصرة وواسط والاهواز واصبهان (٣) يضمنونها احيانا بأموال معينة فى العام (٤) ولها دواوين وكتاب وعمال

فالضياع على اجمالها قليلة الخراج مع انها اخصب الارض ، لان الخلفاء وعمالهم كانوا يغضون عن كثير من الاموال المطلوبة منهم (٥) وقد يتركونها لهم ، ومع ذلك فقد رايت خراج الضياع السلطانية يزيد علىمليون ونصف غير ما هو منها فى واسط وغيرها مما يدل على كثرة تلك الضياع وسعتها . والظاهر أن ذلك طبيعى فى الدولة المطلقة فى تلك العصور فقد ذكرنا فى هذا الكتاب أن جباية الدولة العثمانية بلغت فى أيام السلطان

---

(١) ابن الاثير ١٨٢ ج ٧ (٢) ابو الفداء ٢٤ ج ٢ (٣) ابن الاثير ٤٣ ج ٨
(٤ ابن الاثير ٦٨ ج ٨ (٥) Ein. Abb 80.

سليمان ٨ر٠٠٠ر٠٠٠ دوكات منها ٥ر٠٠٠ر٠٠٠ من الضياع السلطانيـــة وحدها (١)

الايغار

وكان عنـــدهم ضرب من اســـتهلاك الخراج اســـمه « ايغـار » ، ومعناه فى الاصل « استيفاء » فيقولون : « أوغر العامل الخراج أى استوفاه » ثم استخدموها بمعنى الاعفاء من الخراج بمال معين يدفعه صاحب الارض مرة واحـدة ولذلك قالوا : « أوغر الملك الرجل الارض » جعلهـا له من غير خراج ، أو هو أن يؤدى الخراج الى السلطان الاكبر فرارا من العمال ويسمى ضمان الخراج ايغارا (٢) فكان أصحاب الضياع يستوغرون ضـــياعهم اذا استطاعوا الى ذلك سبيلا . ومن الايغارات المشهورة فى الدولة العباســية « ايغار يقطين » وأصلها أن رجلا اسمه يقطين ، أوغرت له ضياع من عـدة الطساسيج ثم صار ذلك الى السلطان فنسب الى ايغار يقطين (٣)

اسباب كثرة النفقات

١ ـ اسراف الخلفاء ونسائهم

من الامور الطبيعيـــة فى العمران اذا كثرت الاموال فى الدول أن يسخو الملوك فى بذلها ، وخصوصا فى الدول المطلقة وعلى الاخص فى الدولة العباسية ، والخليفة مطلق التصرف فى بيت المـال (٤) ودعاة الخـلافة كثيرون لا يقعـد فتنتهم غير استرضاء الاحزاب بالمال أو كسر شوكتهم بالحرب ، والاول أسلم عاقبة وأقرب منالا اذا توفرت الاموال وقد رأيناها متوفرة خصوصا فى عصر الرشيد والمأمون . فلا غرو اذا رأيناهما يبذلان الاموال فى استكفاف الاذى عن الدولة ، أو سد افواه أهل الفتن . لـكنهم تجاوزوا ذلك الى صـنوف البذخ وضروب التبذير والترف ، فاقتنوا الجوارى واتخـــذوا الفرش من الخز والديباج والحرير والمسامير الفضة (٥) وابتنوا المتنزهات والقصـــور والمدن واقتنوا الندماء وانشأوا مجالس الغنـــاء ، وارتكبوا ســـائر ضروب الترف ، والتأنق فى الطعام واللباس والرياش . وقد سهل عليهم ذلك لقرب عهد العراق وفارس من بذخ الفرس قبيل الفتح الاسلامى (٦) وأطلقوا أيدى نسائهم وامهاتهم وخاصتهم فى الاموال (*)

---

(١) Porter's Const. Hist. of Turkey MS.
والدوكة عملة ذهبية من عملات البندقية : ducato نسبة الى الدوج وهو حاكم البندقية ، وهو لفظ محرف عن dux ، وكانت البندقية فى تلك العصور هى مصدر النقود الذهبية الصحيحة ، ولا زال « العيار البندقى » فى وزن الذهب مستعملا عندنا الى الآن (٢) محيط المحيط (٣) قدامة ٢٤١ (٤) الماوردى ٢٠٣ (٥) اعلام الناس ٩٨ (٦) ابن الاثير ٢٥٤ ج ٢

(*) كان للخلفاء مال خاص يأتى من جهات معينة ، يحفظ فى بيت خاص يعرف ببيت مال الخاصة ، وموارد بيت مال الخاصة هى :

Marfat.com

ثروة نساء الخلفاء

لم يتزوج السفاح الا امرأة واحدة (١) • وقبل أن يتوفى المنصور أوصى ابنه المهدى ألا يشرك النساء فى أمره (٢) ومع ذلك فان الخيزران أم الرشيد كانت هى صاحبة الامر والنهى فى ايام الهادى وايامه وكان وزيره يحيى بن خالد بن برمك تحت أمرها (٣) فأفضى نفوذها الى حشد الاموال لنفسها حتى بلغت غلتها فى العام ١٦٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم (٤) وذلك نحو نصف خراج المملكة العباسية لذلك العهد . وغلة أعظم متمولى العالم اليوم لاتزيد على ثلثى هذا المال . فقد ذكروا ان ايراد روكفلر الغنى الامريكى الشهير نحو ١٠ر٥٠٠ر٠٠٠ دينار . وقد بينا فى غير هذا المكان ان قيمة النقود كانت تساوى ثلاثة أضعافها اليوم ، والدينار نصف جنيه ، فتكون غلة روكفلر نحو ثلثى غلة الخيزران

وكانت الخيزران مع ذلك شديدة الوطأة رغابة فى الاستئثار ، فلما آنست فى ابنها الهادى معارضة لارادتها دست اليه من قتله (٥) ولما ماتت توسع الرشيد بأموالها وأقطع الناس ضياعها (٦)

على أن الخيزران كانت من أهل العلم والرأى ، فلا غرابة فى اقتنائها الاموال

---

١ ــ الاموال التى يخلفها الخلفاء لابنائهم . وقد خلف الرشيد لابنائه اكبر تركة تركها خليفة لاولاده ، ترك ٤٨ مليون دينار . وكان المعتضد يقتصد من ماله الخاص كل عام مليون دينار ، حتى اجتمع له تسعة ملايين ، « ونذر عند بلوغ ذلك أن يترك عن أهل البلاد ثلث الخراج فى تلك السنة ، وأراد أن يطرح السبيكة على باب العامة ليبلغ أصحاب الاطراف أن له ١٠ آلاف ألف دينار ، وهو مستغن عنها ، فاخترمته المنية قبل بلوغ هذه الامنية »

٢ ــ مال الخراج والضياع العامة الذى يرتفع من أعمال فارس وكرمان (بعد اسقاط النفقات) وبلغ مقدار ذلك فى كل سنة (منذ عام ٢٩٩/٩١١ الى ٣٢٠/٩٣٢) ٢٣ مليون درهم منها ٤ ملايين كانت تحمل الى بيت مال العامة ، والباقى وهو ١٩ مليون درهم الى بيت مال الخاصة . وتسقط من ذلك النفقات الطارئة كما حدث عام ٣٠٣/٩١٥ عندما انفق الخليفة فى استخلاص فارس وكرمان من أيدى الثوار ٧ مليون درهم

٣ ــ أموال مصر والشام . وكانت جزية أهل الذمة مثلا تحمل الى بيت مال الخليفة باعتباره أمير المؤمنين ، لا الى بيت مال العامة . وهذا مايجب للخليفة نظريا

٤ ــ المال الذى يتحصل من مصادرة أموال الوزراء والكتاب والعمال المعزولين ، وما يحصل من ارتفاع ضياعهم ، والمال الذى يتحصل من التركات

٥ ــ ما كان يحمل الى بيت مال الخاصة من أموال الضياع والخراج بالسواد والاهواز والمشرق والمغرب

٦ ــ ما يستفضله (يدخره) الخلفاء ، فكان المعتضد والمكتفى يستفضلان فى السنة مليون دينار ، وكان سبيل المقتدر أن يستفضل مثلهما ، فيكون مبلغه فى خمس وعشرين سنة ٢٥ مليون دينار ، أى نحوا من نصف ماخلفه الرشيد . ولكن المقتدر أتلف كل هذه الاموال الطائلة حتى لم يبق فى بيت مال الخاصة بعد ما انفق فى محاربة القرمطى عام ٣١٥/٩٢٧ الا ٥٠٠ ٠٠٠ دينار

أى أن المقتدر انفق على نفسه فى أقل من عشرين سنة خمسة وعشرين مليونا من الدنانير

انظر : آدم ميتز ، الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع ، الترجمة العربية ١٧٣ ــ ١٧٥

(١) أعلام الناس ٤٥ (٢) ابن الاثير ٨ ج ٦ (٣) ابن الاثير ٤٠ ج ٦
(٤) المسعودى ١٨٨ ج ٢ (٥) ابن الاثير ٤٠ ج ٦ (٦) سير الملوك ٨٥

Marfat.com

فى ابان الثروة العباسية ، انما الغرابة فى اقتناء أمهات الخلفاء الاموال الكثيرة فى عصر الاضمحلال وبيت المال فارغ . فان « قبيحة » أم المعتز وجدوا لهـا من مخبآت فى الدهاليز ونحوها نحو ٢ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار نقدا ومالا تقـدر قيمته من التحف والجواهر مما نأتى بذكره على سبيل المثـــال : من ذلك مقدار مكوك من الزمرد الثمين ونصف مكوك لؤلؤ كبير ونحو كيلجة ياقوت احمر مما قدروا قيمته ٢ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار ، وكانت مع ذلك قـد عرضت ابنها للقتل من أجل ٥٠ر٠٠٠ دينار (١)

***

وأغرب من ذلك شأن أم محمد بن الواثق فقد كانت غلتها ١٠ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار (٢) فى العام تنفقها فى جواريها وهى نحو غلة الخيزران . وأخرجوا من تربة والدة المقتدر ٦٠٠ر٠٠٠ دينار كانت مخبأة هناك ، ولم يعلم بهـا أحد مع ضيق الخليفة وفراغ بيت ماله (٣) وقس على ذلك أمهات الخلفاء الآخرين فى العراق وغيره من بلاد الاسلام . فقد كن يتمتعن بالنفوذ ويستولين عـلى الاموال بالتواطؤ مع القواد ورجال الجند ، بما يتـاح لهن من اطلاق الايدى فى امور الدولة كما فعل المستعين العباسى (٢٤٩ هـ) فانه أطلق يد والدته ويد اتامش وشاهك الخادم فى بيوت الاموال وأباحهم فعل ماأرادوا . فكانت الاموال التى ترد من الآفاق يصير معظمها الى هؤلاء الثلاثة (٤)

فلا عجب والحالة هذه اذا تحول الغنى الى النساء والخدموالقواد . وهل تستغرب بعـد ذلك اذا علمت أنه كان بين رياش أم المستعين بساط انفقت على صـنعه ١٣٠ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار (ربما درهم) فيـه نقوش على أشكال الحيوانات والطيور وأجسامها من الذهب وعيونها من الجواهر (٥) . أو اذا قيل لك ان فلانة حشت فم الشاعر الفلانى درا فباعه بعشرين ألف دينار (٦) او اذا سمعت بهدايا قطر الندى وغيرها من نساء الخلفاء (٧)

ناهيك بما كان فى بلاط الخلفاء العباسيين وغيرهم منالقهرمانات ، اللواتى كن يتولين شؤون دور الخلفاء والنفقة عليها بالاتفاق مع الوزير أو من ينوب عنه (٨) فكان لهؤلاء النساء نفوذ عظيم فى قصور الخلفاء وفى أعمال الدولة ـ كما كانت تفعـل أم موسى القهرمانة فى أيام المقتـــدر فى أوائل القرن الرابع للهجرة (٩) ولم يكن لاولئك القهرمانات سبيل للانفاق لولا مافى قصور الخلفاء من الجوارى والخدم وغيرهم

---

(١) الطبرى ١٧١٩ ج ٣ (٢) الطبرى ١٧٢٠ ج ٣ (٣) ابن الاثير ٧ ج ٧
(٤) ابن الاثير ٤٧ ج ٧ (٥) المستطرف ١٣٤ ج ١ (٦) ابن خلكان ١٩٩ ج ١
(٧) المستطرف ٤٦ ج ٢ (٨) ابن الاثير ٣٧ ج ٨ (٩) ابن الاثير ٢٤ ج ٨

Marfat.com

الجوارى والغلمان

وقد رأيت فيما ذكرناه من مناقب المنصور أنه لما علم بوجود الطنبور فى داره كسره على حامله • لكن لم يمض على موته أربعون سنة حتى أصبحت دور الخلفاء مسرحا للغناء واللهو — قالوا انه كان فى قصر الرشيد ثلثمائة جارية ما بين جنكية الى عودية الى دفية الى قانونية الى زامرة الى مغنية الى راقصة الى سنطيرية (*) فضلا عمن كان فى قصره من الندماء والمضحكين كالشيخ أبى الحسن الخليع الدمشقى (١) وابن أبى مريم المدنى (٢) وغيرهما • وما من جارية الا وثمنها ألف دينار أو عشرة آلاف دينار (٣) الى مئة ألف دينار غير ما يقتضيه اقتناؤهن من النفقات الاخرى كالالبسة والحلى وهىشىء كثير . فقد اشترى الرشيد خاتما بمئة ألف دينار (٤) وقس على ذلك

ناهيك بما كانوا يقتنونه منالمماليك والغلمان مما يعدون بالمئات والالوف ، فقد بلغ عدد خدم المقتدر ١١٫٠٠٠ خصى من الروم والسودان (٥) غير مايقتضيه ذلك من الابنية والقصور والرياش . فقد بنى المعز دارا فى بغداد أنفق عليها ١٣٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم (٦) وبنى الامين قصورا فىالخيزرانية أنفق عليها ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم (٧) واصطنع فى دجلة خمس حراقات (سفن) احداها على صورة الاسد والثانية بصورة الفيل والثالثة بصورة العقاب والرابعة بصورة الحية والخامسة بصورة الفرس أنفق عليها مالا عظيما وفيها يقول أبو نواس :

سخر الله للامين مطايا ... لم تسخر لصاحب المحراب
فاذا ما ركابه سرن برا ... سار فى الماء راكبا ليث غاب
عجبالناس اذ راوك على صو ... رة ليث تمر مر السحاب
سبحوا اذ راوك سرت عليه ... كيف لو ابصروك فوق العقاب
ذات زور ومنسر وجناحيـ ... ـن تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير فى السماء اذا ما ... استعجلوها بجيئة وذهاب

ومما يحسن ايراده مثالا على بذخهم أن الامين أمر يوما أن يفرش له على دكان فى الخلد ، ففرش عليها بساطذرعى ونمارق وفرش مثلهوهيىء

(*) الجنكية هى الراقصة . وكان الغالب أن تكون الجنكيات من اليهود أو الارمن أو الاتراك أو اليونان . والعودية ضاربة العود ، والدفية ضاربة الدف ، والقانونية عازفة القانون ، والسنطيرية هى العازفة على آلة تسمى السنطير أو السنتير وهى تشبه القانون ولكن أوتارها من الجهتين ، وكان يعزف عليها وهى قائمة بكلتا اليدين

(١) أعلام الناس ٩٧ (٢) الطبرى ٧٤٣ ج ٣ (٣) ترتيب الدول ١٢٦ (٤) ابن الاثير ٤٤ ج ٦ (٥) الفخرى ٢٣٤ (٦) ابن الاثير ٢١١ ج ٨ (٧) ابن الاثير ١١٢ ج ٦

Marfat.com

من آنية الذهب والفضة والجواهر أمر عظيم . وأمر قيمة جواريه أن تهيىء له مائة جارية صانعة فيصعدن اليه عشرا عشرا بأيديهن العيدان يغنين بصوت واحد (١) ففعلت . وسنأتى على تفصيل بذخ الخلفاء وطرق اسرافهم فى الجزء المتعلق بالهيئة الاجتماعية من هذا الكتاب

السخاء

على أن الاسراف كان أكثره فيما يبذلونه كرما وسخاء ، ومنه ما ينفق يوميا فرضا واجبا . فقد كان الرشيد يتصدق من صلب ماله كل يوم بألف درهم بعد زكاته (٢) وكان المأمون ينفق على خاصته كل يوم ٦٠٠٠ درهم (٣) فاعتبر مقدار ذلك فى السنة فيزيد على ٢ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم . وليس هذا بالشىء الذى يذكر بجانب ما كانوا يهبونه من الجوائز ونحوها . فقد فرق المنصور فى يوم واحد ١٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم على أهل بيته (٤) وفرق المأمون فى يوم واحد ١ر٥٠٠ر٠٠٠ درهم على ثلاثة أشخاص (٥) . وقد رأيت فى هذا الكتاب أنه فرق ٢٤ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم ورجله فى الركاب . وأوصى الرشيد للمأمون بمبلغ ١٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠درهم ·وتصدق المعتصم فى أثناء خلافته بما مجموعه ١٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم (٦) وبلغ ما أنفقه المقتدر ضياعا ما خلا الارزاق ٧٠ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار (٧) ـ فضلا عن جوائزهم للوافدين من الشعراء وغيرهم ، وربما بلغت جائزة الشاعر مائة ألف درهم . وذكروا جوائز كثيرة بنحو هذه القيمة أو أكثر . وروى ابن خلكان عن سالم الشاعر المعروف بالخاسر أنه نظم قصيدة مدح فيها المهدى وحلف أنه لا يأخذ قيمتها الا مائة ألف ألف درهم (١٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠) فأعطاه اياها ـ وفى ذلك مبالغة ظاهرة لكنها تدل على مبلغ ذلك السخاء (٨) وكثيرا ما كانوا يهبون الشعراء الضياع فضلا عن الاموال (٩)

هل كانوا يفعلون ذلك حقيقة ؟

فهذا وامثاله يحسبه أهل هذا الزمان من قبيل الخرافات بالقياس على ما يعلمونه من القواعد الاقتصادية . على أننا لا نظنهم يقولون ذلك بعد ماتبين لهم من مقدار الثروة العباسية ، ومقدار ماكان يبقى من الاموال تحت تصرف الخلفاء ، أو من يقوم مقامهم كالوزراء والكتاب ـ الا اذا شككنا فى حقيقة تلك الثروة وهو شك فى التاريخ على اجماله . لان المؤرخين على اختلاف عصورهم ومواطنهم متفقون على مابيناه من هذا القبيل كمارأيت . ثم اننا اذا اعتبرنا نظام الهيئة الاجتماعية فى تلك الايام على ماسنفصله فى الاجزاء التالية من تأثير

---

(١) ابن الاثير ١٢٠ ج ٦ (٢) الطبرى ٧٤٠ ج ٣ (٣) الفخرى ٢٠٧
(٤) ابن الاثير ١٣ ج ٦ (٥) ابن الاثير ١٦٧ ج ٦ (٦) الطبرى ١٣٢٩ ج ٣
(٧) ابن الاثير ٩٠ ج ٨ (٨) ابن خلكان ١٩٨ ج ١ (٩) الطبرى ١٤٦٨ ج ٢

Marfat.com

الشعراء ونحوهم فى مركز الخليفة نفسه هان علينا تصديق ماكانوا ينالونه من الهبات الكبرى . على اننا نعرف بين اغنيائنا اليوم من يبذل ٥٠٠ر٠٠٠جنيه و ١٠٠ر٠٠٠ جنيه ثمن صورة أو قطعة من الآثار القديمة لاتنفع ولا تضر . وقرانا بالامس أن مورجان الامريكى الشهير اشترى صورا بمليون جنيه ليقدمها هدية لبعض المتاحف

وزد على ذلك أننا نستدل على صحة ماتقدم أيضا من سياق بعض الوقائع المروية من هذا القبيل . مثل حديث المؤمل عن قدومه على المهدى وهو ولى عهد ، قال : قدمت على المهدى فى الرى وهو ولى عهد فأمر لى بعشرين الف درهم لابيات امتدحته بها ، فكتب اليه المنصور (أبوه) يعذله ويلومه ويقول له : « انما كان ينبغى لك ان تعطى الشاعر بعد أن يقيم ببابك سنة أربعة آلاف درهم » ــ الى أن قال ــ وبعث المنصور يستقدمنى اليه حتى جئت ودخلت عليه فقال : « هيه ! أتيت غلاما غرا فخدعته .. » فقلت : « نعم أصلح الله أمير المؤمنين .. أتيت غلاما غرا كريما خدعته فانخدع » فقال المنصور : « أنشدنى ماقلت فيه » فأنشدته (ثم ذكر القصيدة ومطلعها :

هو المهدى الا ان فيه مشابه صورة القمر المنير)

فقال : « والله لقد احسنت ، ولكن هذا لا يساوى عشرين الف درهم »وقال: « أين المال ؟ » قلت : « ها هو ذا » قال : « يا ربيع انزل معه فاعطه أربعة آلاف درهم وخذ منه الباقى » فخرج الربيع فحط ثقلى ووزن لى اربعة آلاف درهم ، وأخذ الباقى (١) . فترى من هذه الحكاية أنهم كانوا يقدرون الشعراء بآلاف الدراهم

هل كان الخلفاء يسرفون من أموالهم الخاصة ؟

بقى علينا النظر فيما كان الخلفاء يهبونه من الجوائز ونحوها ، هل كانوا يؤدونه من أموالهم الخاصة ام من بيت مال الحكومة المعبر عنه ببيت مال المسلمين ؟ وهو موضوع مبهم لم نجد فيه قولا صريحا . على أن سكوت المؤرخين عنه يرجح انهم كانوا يدفعون ذلك من بيت المال ــ ولا جناح فيه عليهم ، لان الامام هو ولى بيت المال ينفقه فيما يرى فيه مصلحة المسلمين حسب اجتهاده ، وقد يرى فى أجازة الشاعر او هبة العالم فائدة للدولة

على أننا راينا ذكرا لبيت مال الخاصة فى أيام الهادى ، ويظهر من سياق بعض الحوادث التى وقعت للخلفاء انهم كانوا اذا أمروا لشاعر او غيره بمال انما يريدون ان يدفع له من بيت مال المسلمين ، وان الوزراء كثيرا ما كانوا يتذمرون من ذلك الاسراف ولا ينفذون امر الخليفة فى الصرف ، كما وقع

---

(١) الطبرى ٤٠٦ ج ٣

Marfat.com

لعيسى بن داب مع الهادى ــ وذلك ان عيسى المذكور كان من اكثر اهل الحجاز ادبا واعذبهم الفاظا ، وكان قد حظى عند الهادى حظوة لم تكن لاحد قبله ، فأمر له مرة بثلاثين الف دينار فى دفعة واحدة . فلما أصبح ابن داب أرسل قهرمانه الى الحاجب فى قبضها فقال الحاجب : « هذا ليس الى فانطلق الى صاحب التوقيع والى الديوان » فعاد الى ابن داب فأخبره فقال : « اتركها » فبينما الهادى فى مستشرف له ببغداد رأى ابن داب وليس معه الا غلام واحد فاستدعاه . فلما وقف بين يديه قال له الهادى : « أرى ثوبك غسيلا وهذا شتاء يحتاج فيه الى الجديد » فقال : « باعى قصير » فقال : « وكيف وقد صرفنا اليك مافيه صلاح شأنك ؟ » فقال : « ما وصل الى » فدعا الهادى صاحب بيت مال الخاصة فقال : « عجل الساعة بثلاثين ألف دينار » فأحضرت وحملت بين يديه (١) ــ فيظهر من سياق هذه الحكاية أن الخليفة أراد أن يدفع اليه المال من بيت المال العام ، فلما لم يدفعوا له أمر بدفعه من بيت ماله الخاص

ومن هذا القبيل ما اتفق ليحيى بن خاقان ، اذ أمره الرشيد أن يدفع ثمن جارية ١٠٠ر٠٠٠ دينار ، فاستكثر يحيى المال واعتذر عن دفعه ، ففضب الرشيد فأراد يحيى أن يبين له مقدار مايتحمله بيت المال من هذا الاسراف فيما لا مصلحة للدولة فيه ، فجعل ذلك المال دراهم فبلغت نحو ٥٠٠ر٠٠ر١ درهم فوضعها فى الرواق الذى يمر به الرشيد اذا أراد الوضوء . فلما رأى الرشيد ذلك المال استكثره ، ولما أخبروه أنه ثمن الجارية أدرك اسرافه ولكنه شعر بما فى ذلك من الجرأة عليه ومحاولة غل يديه فحفظ ذلك فى نفسه . ويقال أنه كان من جملة ما حمله على نكبة البرامكة (٢)

واتفق نحو ذلك للواثق بالله مع وزيره ابن الزيات فى ثمن جارية فلما مطل الوزير بالدفع أمره أن يدفع ضعفين ففعل (٣)

وفى كتاب ابى سفيان الثورى الى الرشيد جوابا على كتاب استدعاه به الى بغداد مايشبه كلام أبى ذر الغفارى لمعاوية ، ويدل على أن الرشيد كان يهب ويجيز من بيت مال المسلمين . وذلك أن الرشيد دعاه بكتاب بعثه اليه فى الكوفة ، وأخبره ان الناس قدموا اليه ، وأنه فتح بيوت الاموال واعطاهم من المواهب السنية الخ . فأجابه أبو سفيان بكتاب شديد اللهجة وفى جملة ذلك قوله : « أما بعد فانى كتبت اليك أعلمك انى صرمت حبلك وقطعت ودك ،وانك قد جعلتنى شاهدا عليك باقرارك على نفسك فى كتابك أنك هجمت على بيت مال المسلمين ، فأنفقته فى غير حقه وانفذته بغير حكمه . ولم ترض بما فعلته

---

(١) ابن الاثير ٤٣ ج ٦ وطبعت المطبعة المنيرية ٨١/٦ ــ ٨٢ (٢) الطبرى ١٣٣٢ ج ٣
(٣) ابن الاثير ١٣ ج ٧

Marfat.com

وانت ناء عنى حتى كتبت الى تشهدنى على نفسك . فأما انا فانى قد شهدت عليك انا واخوانى الذين حضروا كتابك ، وسنؤدى الشهادة غدا بين يدى الله الحكم والعدل . يا هارون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم .. هل رضى بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها فى أرض الله ، والمجاهدون فى سبيل الله وابن السبيل .. ؟ أم رضى بذلك حملة القرآن وأهل العلم (يعنى العاملين) ؟ أم رضى بفعلك الايتام والارامل ؟ أم رضى بذلك خلق من رعيتك ..؟ » (١)

فهذا وأمثاله يدل على أن الخلفاء كانوا يهبون ويجيزون ويبذخون ويسرفون من بيت المال (*)

٢ ـ تكاثر أبواب النفقة فى الدولة

بينا فى الجزء الاول من هذا الكتاب كيف تدرجت الدولة الاسلامية فى ادارتها منذ كان النبى (صلعم) هو الامير والقاضى والقائد حتى أصبح موظفو الحكومة فى أيام الراشدين ستة ، وما كان من تزايدهم بتزايد الحضارة واتساع المملكة فى أيام بنى أمية فبنى العباس . وكانت تلك الادارات تتكاثر عندهم بتكاثر الثروة وميل الخلفاء ورجال دولتهم الى الترف والرخاء ،

---

(١) الدميرى ١٨٨ ج ٢

(*) سبق أن ذكرنا بيت مال الخاصة والموارد التى كان يستقى منها ، وهى موارد كثيرة جعلته فى معظم الاحيان أوفر من بيت مال العامة. ومن القواعد المقررة أن الدولة الاسلامية ملك للمسلمين ، فلا ينفق شىء من بيت المال العام الا فى صالح الجماعة الاسلامية ، ويتبين ذلك من سيرة أبى بكر وعمر بن الخطاب ، وكانا يفصلان فصلا تاما بين مالهما ومال المسلمين . ولكن لما كان المالان تحت تصرف رجل واحد، هو الخليفة ، فاننا لا نلحظ ابتداء من العصر الاموى فاصلا بين الاثنين، فكان بنو أمية ينفقون، ولكننا لا ندرى من أى المصدرين، وابتداء من العصر العباسى نلاحظ عناية الخلفاء ببيت مال الخاصة وميلهم الى ادخار أموالهم والانفاق من بيت مال المسلمين، كما رأيت فى الامثلة التى أوردها المؤلف . وقد استمر ذلك الى نهاية عصر المأمون حيث نجد بيت مال الخاصة اغنى بكثير من بيت مال المسلمين . ولكن عندما اضطربت الامور وانحطت جبايات النواحى أصبح من المتعين على الخلفاء أن يمدوا بيت مال العامة من مالهم الخاص حتى لاتفلس الدولة ، وقد أشار الى ذلك ابن جبير الرحالة الاندلسى (انظر ص ٣٥ ـ ٣٦ طبعة رايت) ومن الثابت أن على بن عيسى كان لايتردد فى طلب أمداد من مال الخليفة الخاص لينفقها فى شئون الدولة ، فعل ذلك مع المعتضد والمكتفى . وكان الخلفاء يفعلون ذلك وهم كارهون ، ولهذا اجتهد الوزراء فى تحاشى الطلب من بيت المال الخاص . وفى عهد الخليفة المقتدر (٩٠٧/٢٩٥ ـ ٩٣٢/٣٢٠) استنزف بيت مال الخاصة ، اذ أخذ الوزراء منه مبالغ كبيرة على أن ترد عندما يتحسن الحال ، ولم يتحسن الحال طبعا . وقد حاول المقتدر بعد ذلك أن يدعم بيت ماله فعهد فى الوزارة الى رجل زعم أنه يجمع من المال مايكفى لنفقات الدولة ويؤدى لبيت مال الخاصة علاوة على ذلك مليون دينار ، ثم اتضح أن الرجل موه الحساب فعزل بعد شهور . وفى هذه العصور نشهد صراعا حقيقيا بين الخلفاء ووزرائهم : الوزراء يريدون أن يستعينوا بما فى بيت المال الخاص والخلفاء يرفضون ، وقد يخضعون ويخرجون الشىء اليسير من مالهم بعد التهديد

وكان على الخليفة بصفته أمير المؤمنين أن يقوم بنفقات موسم الحج ونفقات الصوائف (أى الغزوات الصيفية) وفداء أسرى المسلمين والقيام بنفقات الرسل والسفراء الواردين . أما العطايا ونفقات دار الخلافة فكانت تؤخذ عادة من بيت مال المسلمين

انظر : آدم ميتز ، الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع ، الترجمة العربية ، الطبعة الثانية ١/١٧٢ـ ١٧٣

فأصبحت فى ايام الرشيد اكثر منها فى ايام المنصور ، وفى ايام المأمون اكثرمنها فى ايام الرشيد . وقس على ذلك تكاثرها فى ايام من جاء بعدهم من الخلفاء . فقد قرأت فى جريدة المعتضد من أصناف المرتزقين فى بلاط الخليفة من الغلمان والمماليك وأصحاب المطابخ والجلساء وأصحاب الركاب ، مالم يكن له ذكر فى صدر الدولة العباسية . وقس عليهم اصناف الخدم الخاصة من الاطباء والمغنين والندماء ، مما لا يقع تحت الحصر ، وكله قد اقتضاه الترف فى حضارة الدولة

وزد على ذلك أن بعض النفقات كانت تصرف أول الامر من غير بيت المال ، فصارت تصرف منه لاسباب كثيرة لاسبيل الى معرفتها ، اذ لم يرد نص صريح بشأنها ، وان كنا نستدل عليها ضمنا من نصوص كثيرة ــ مثل مانراه من الفرق بين جريدة النفقات فى أيام المعتضد سنة ٢٧٩ هـ وبين جريدة على ابن عيسى لعام ٣٠٦ هـ فانك تجد فى هذهنفقات لاذكر لها فىتلك،مثل نفقات الحرمين ، ورواتب القضاة فى الممالك ، وولاة الحسبة ، وأصحاب البريد فىجميع البلاد ونفقات الثغور . فان هذه الابواب غير واردة فى تلك لان العمال كانوا يقومون بها من خراج أعمالهم كما أشرنا الى ذلك ، فلما ضعف الخلفاء وتمرد العمال اضطرت الدولة الى دفعها من بيت مالها

وقد تقدم فى الجزء الاول أن ارتفاع الثغور كان ينفق فى مصالحها فلا يرد منه شيء الى بيت المال ، على أنهم كثيرا ما كانوا يحصلون منها على الاموال الطائلة من الغنائم ونحوها فى صدر الدولة العباسية (١) أما فى ايام الاضمحلال فقلت الغزوات ، وبطلت الغنائم ، وتحمل بيتالمال نفقات تلك الثغور ، وزادت عما كانت عليه فى صدر الدولة حتى بلغت فى أيام المقتدر نحو ٥٠٠ر٠٠٠ دينار ، وكانت قبله ١٠٠ر٠٠٠ دينار ،وهو مقدار ارتفاعها الذى ينفق فى مصالحها (٢) ــ ناهيك بما حدث من نفقات الجند وغيره

٣ ــ زيادة الضرائب

ولم تقتصر زيادة النفقات على نشوء ادارات لم تكن من قبل ، ولكنالادارات القديمة زادت نفقاتها عما كانت عليه فى أوائل الدولة . وطبيعى انه اذا كثرت ثروة الدولة وسعت على رجالها وزادت رواتبهم وما يجرى لهم من الارزاق فاذا كانت تلك الدولة مؤسسة على أساس ضعيف لا تلبث أن تنحط ثروتها وتبقى الرواتب كما هى ، فيقصر بيت المال فى تأديتها فيضطروا الى فرض الضرائب الفادحة واستخدام العنف فى تحصيلها ، فتضعف همة الناس عن العمل وتزداد البلاد فقراً

---

(١) ابن الاثير ٢٧ ج ٦ (٢) قدامة ٢٥٣

Marfat.com

كان المسلمون فى أيام النبى (صـــلعم) وأبى بكر يرتزقون ممـا يقع فى أيديهم من الغنائم ، فتختلف حصة كل منهم باختلاف مقـدار تلك الغنائم حتى تولى عمر بن الخطاب ووضع الديوان وجعل لكل مسلم راتبـا معينا فى السنة وميزهم باعتبار أنسابهم وقرابتهم من النبى ، أو سابقتهم فى الاسلام وليس باعتبار ما يؤدونه من الاعمال ، فقد يكون أحـدهم كاتبا أو عاملا أو قاضـيا على الســواء • فلما تفرعت ادارات الدولة وتميزت لم يروا بدا من تعيين الرواتب باعتبار المناصب ، فجعلوا لكل من الجندى والعامل والكاتب والحاجب والقاضىوغيرهم راتبا معينا • ولما حدثت الوزارة فىالدولة العباسية جعلوا لها راتبا كما جعلوا لسواها من المناصب المستحدثة • واختلفمقدار راتب كل من هذه المناصب باختلاف الدول والعصـور ، فلننظر فى تاريخ أشهر تلك المناصب باعتبار رواتبها بالنظر الى مانحن فيه

رواتب العمال

كان راتب العامل فى أيام عمر ٦٠٠ درهـم فى الشـــهر (١) ثم اختلف باختلاف العمـــال والاعمال ، فقد جعـــل عمر لمعـــاوية على الشـــام ألف دينار فى السنة (٢) ولما أفضى الامر الى بنى أميـة أصـبحت ولاية الاعمال فوضى على ما تقتضيه الاحوال من أطماع العمال بنصرتهم أو التوسيع لهم فى النفقة لحرب الخوارج أو العلويين أو غير ذلك • فربما جعلوا الولايةكلها طعمة لايدفع عنها العامل شيئا ، بل ينالها مكافأة على خدمة قام بها ــ على أن ذلك كان خاصا بالعمال الكبار ، كعاملىالعراقين ، أو مصر ، أو خراسان • وقد بلغ راتب يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق فى أيامهم ٦٠٠ر٠٠٠ درهم فى السنة (٣) ، وبلغت غلة خالد القسرى ١٣ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم (٤) ، وليسهذا الاخير من قبيل الراتب فلا يقاس عليه

وكان تحت هؤلاء العمال عمال يفرقونهم فى أعمـالهم ، كمـا كان يفعل الحجاج فى العراق ، وعمرو بن العاص بمصر • فالعمالالصغاركانت رواتبهم محددة لا تزيد على ٣٠٠ درهم فى الشهر (٥) ، وظلت على نحو ذلك فىصدر الدولة العباسية الى أيام المأمون ، فزادها وزيره الفضل بن سهل فى جملة مازاده من الرواتب على أثر ما كان من تكاثر الثروة مع رغبـة الخليفـة فى ارضاء نصرائه من أهل خراسان • أما مقدار ذلك الراتب فانه كان يختلف باختلاف الاعمال ، لأن العمل قد يقتصر على ولاية صغيرة أو يعقدله على عدة ولايات فتقدر العمالة بقدر اتساعه وأهميته ، وباعتبار رضىالخليفة عن عامله

---

(١) سراج الملوك ٢٧٧ (٢) المقريزى ٩٥ ج ١ (٣) ان خلكان ٢٨١ ج ٢
(٤) ابن خلدون ٩٦ ج ٣ (٥) الطبرى ٤٣٤ ج ٣

Marfat.com

ونحو ذلك . فقد عقد المأمون للفضل بن سهل على المشرق من جبل همذان الى التبت طولا ومن بحر فارس الى بحر الديلم (قزوين) وجرجان عرضا ، ويدخل فى ذلك كل ماوراء العراق شرقا الى الهند وجعل له عمالة قدرها ٣ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم فى السنة ، وعقد له لواء على سنان ذى شعبتين وأعطاه علما وسماه ذا الرياستين : (١) السيف والقلم ، ونقش على سيفه بالفضة من الجانب الواحد « رياسة الحرب » ، ومن الجانب الآخر « رياسة التدبير»(٢) فعل المأمون ذلك له لما كان من نصرته اياه فى خلافه مع أخيه الامين ، فلا يقاس بهالعمال الذينكانوا يتولون الاعمال الصغرى،ومنهم بضعة عشرعاملا تحت راية الفضل بن سهل فى المشرق.وعمالة هؤلاء تختلف أيضا باختلاف الولايات ، ويظهر أنها كانت تتراوح بين ٣٠٠ و١٠٠٠درهم قياسا علىماذكره ابن حوقل من رواتبهم فى أيام منصور بن نوح (٣)

وأما عمال الولايات الكبرى التى كانت علاقتها رأسا مع الخليفة ، فقد كانت رواتبهم كبيرة جدا كما رأيت من راتب الفضل بن سهل . وكانت عمالة الحسين بن على الماذرانى على مصر فى أوائل القرن الرابع للهجرة ٣٠٠٠ دينار فى الشهر (٤) أو ٦٠ر٠٠٠ درهم ومقدار ذلك فى السنة ٧٢٠ر٠٠٠ درهم ، وقس على ذلك

فاذا اعتبرنا هذه الرواتب بالنظر الى هذه الايام (سنة ١٩٠٣) رأيناها فاحشة جدا . لأن الولايات فى الدولة العثمانية ثلاث درجات : الدرجة الاولى راتبها ٢٥٠ ليرة عثمانية فى الشهر ، والثانية ٢٠٠،والثالثة ١٥٠ . وراتب عامل انجلترا على الهند (نائب الملك فى الهند) ٢٠٨٣٣ روبية فى الشهر (٥) أى نحو ٢١ر٨٧٥ جنيه (*) فى السنة وهو أعظم رواتبالعمال فى هذا العهد . ومع ذلك فانه أقل من راتب الماذرانى المتقدم ذكره ـ ناهيك بما كان يكتسبه عمال الدولة العباسية من الاتجار ونحوه

رواتب الكتاب

وكانت رواتب الكتاب الى أيام المأمون مثل رواتب العمال الصغار، لا يزيد مقدارها فى الشهر على ٣٠٠ درهم ، فزادها الفضل بن سهل كما تقدم ولم نقف على مقدار تلك الزيادة . ولكن بالقياس الى غيرها يجب أن تكون كثيرة،فضلا عما كانوايستولون عليه منالاخرجة اليومية(**)

---

(١) ابن الاثير ١٠٣ ج ٦ (٢) الطبرى ٨٤١ ج ٣ (٣) ابن حوقل ٢٤٢
(٤) Ein Abb. 80 (٥) ويتكر ٤٦٦
(*) أوردها المؤلف بالفرنكات ٥٠٠٠٠٠ فرنك ، فحولناها الى جنيهات على أساس أن قيمة الفرنك الفرنسى اذ ذاك كانت ٤ر٣٧٥ قرشا
(**) الاخرجة جمع خراج ، وهو يعنى هنا ما كان هؤلاء الموظفون يتقاضونه من الاشياء العينية الى جانب مرتباتهم المالية ، وقد عرفت الاخرجة فيما بعد باسم الجرايات

Marfat.com

وقد عدد المقريزى ما كان يستولى عليه كاتب من كتاب مصر عى عهد الدولة الفاطمية فىاليوم الواحد ، منالبقولات والتوابلوالحلويات والاثمار والفاكهة والعطريات وسائر الاطعمة ، ومن الالبسة والافرشة وما كان يجرى منذلك كله على أولاده وأهله ، فاستغرق تعداده نحو صفحتين أو ثلاث صفحات من قطع هذا الكتاب ـ فاكتفينا بالاشـــارة اليـــه تفاديا من التطويل ، ومن أراد التفصيل فليراجعه هناك (١)

رواتب الوزراء

الوزارة من محـــدثات الدولة العباســـية ، وأول من اشـــتهر من وزرائها البرامكة ، ولم نقف على مقادير رواتبهـــم ، والظاهر أنهـــا كانت كبيرة ، فضلا عن اطلاق أيديهم فى بيت المال يقطعون ويصلون كما يتراءى لهم • على أننا قد رأينا فى قائمة النفقات فى أيام المعتضد ان راتب الوزير ٣٣١/٢ دينار فى اليوم أو ألف دينار فى الشهر • فاذا اعتبرنا تقدير النقود بالنظر الى قيمة الفضة والذهب فى هذه الايام زاد هذا الراتب على ١ر٥٠٠ جنيه ـ وما من وزير يبلغ راتبه الى هذا المقدار اليوم • فان راتب الوزير فى الدولة العثمانية ٣٠٠ ليرة عثمانية فى الشهر ، الا الصدر الاعظم فان راتبه الف ليرة • والوزير المصرى راتبه ٢٥٠ جنيها فىالشهر ، وراتب أكبر وزراء انجلترا ٢٠٠٠ جنيه فى العام (٢) (*)

على أن رواتبالوزراء كانتتختلف باختلافالعصور والدول ـ كان راتب الوزير على أيام الناصر الاندلسى ٨٠ر٠٠٠دينار فىالسنة غيرالهدايا(**) (٣) وكان راتب يحيى بن هبيرة وزير المقتفى فى أواسط القرن السادس للهجرة ١٠٠ر٠٠٠ دينار فى السنة (٤) وكانللوزراء ، فضلا عنرواتبهم المشار اليها، رواتب لأولادهم واخوتهم وخـــدمهم وأتباعهم وأرزاق ، ووظائف كثيرة ، وخاصـــة فى مصر • فقد كان راتب الوزير فى الدولة الفاطمية ٥٠٠٠ دينار فى الشهر ، ولمن يليه من ولد أو أخ من ٣٠٠ الى ٢٠٠ دينار ، ثم حواشيهم

---

(١) المقريزى ٣٩٩ ج ١ (٢) ويتكر ١٧٠

(*) جاء فى كتاب الوزراء للصابى ص ٢٨٢ و ٣٥١ أن مرتب الوزير حدد فى القرن الرابع الهجرى بخمسة آلاف دينار فى الشهر ، ثم زيدت الى سبعة آلاف ، وكان يعطى لكل من اولاده خمسمائة دينار فى الشهر

(٣) نفح الطيب ١٦٨ ج ١

(**) و ج ١ ص ٣٣٢ (طبعة المطبعة التجارية ، القاهرة ١٩٤٩) ونص المقرى هنا : « وقد أعجبت الناصر (عدية الوزير أحمد بن عبد الملك بن شهيد) .. وزاد الناصر وزيره هذا حظوة واختصاصا وأسمى منزلته على سائر الوزراء جميعا ، وأضعف له رزق الوزارة ، وبلغه ثمانين ألف دينار أندلسية ، وبلغ معروفه (أى الرزق الذى يطلق له علاوة على المرتب) الف دينار وثنى له فى العظمة لتثنيته له فى الرزق ، فسماه ذا الوزارتين » مما يفهم منه أن المرتب العادى للوزير كان ٤٠ ألفا

(٤) الفخرى ٢٧٨

Marfat.com

على مقتضى عدتهم من ٥٠٠ الى٣٠٠ دينار ، ماعدا الاقطاعات(١) وغير مايجرى عليه وعلى أهله من المأكولات وسائر حاجيات الحياة • فقد كان للوزير ابن عمار أيام العزيز بالله الفاطمى بمصر من الجرايات لنفسه وأهـل حـرمه من اللحم والتوابل ما قيمته ٥٠٠ دينار فى الشهر ، ومن الفاكهة سلة بدينار ، وعشرة أرطال شمع بدينار ، ونصف حمل بلح (٢) وكان راتب الوزير فى الدولة السلجوقية عشر مغل البلاد (٣)

رواتب القضاة

كان راتب القاضى فى أيام الراشدين مائة درهم فى الشهر ، ومؤونته من الحنطة (٤) ، ثم ارتقى فى أيام بنىأمية مثل سائر الرواتب فصار راتبقاضى مصر سـنة ٨٨هـ ألف دينار فى السنة (٥) أى نحو عشرة أضـعافه فى أيام الراشدين • فلما أفضت الخلافة الى بنى العباس أنزلت الرواتب فصار راتب قاضى مصر فى أيام المنصور ٣٠ دينارا فى الشهر • ثم تصاعد فى عهد من خلفه حتى بلغ فى أيام المأمون (سنة ٢١٣ هـ) ٤٠٠٠ درهم فى الشهر ، أى ٢٧٠ دينارا ، ثم عاد فى أيام ابن طولون الى ألف دينار فى السنة (٦) (*)

وأما فى بغداد فلم نطلع على راتب القاضى فى أوائل الدولة العباسـية ، ولكننا رأينا فى جريدة المعتضد أن راتب القاضى ١٦ وثلثا دينار فى اليـوم أو ٥٠٠ دينار فى الشهر ـ بما فيه أجور عشرة من الفقهاء وخليفة القاضى ـ ومع ذلك فانه راتب كبير بالنظر الى رواتب قضاة هـذه الايام ، فان راتب شيخ الاسلام فى الاستانة لا يزيد على ٥٠٠ ليرة عثمانية فى الشـهر ، مع اعتبار الفرق فى قيمة النقود بين تلك الايام واليوم

رواتب الخلفاء وأهلهم

قد رأيت ان الخلفاء كانوا يفرضون الرواتب لأهل الوزراء والكتـاب ، فبالأولى أن يفرضوها لانفسهم وأولادهم ، والخليفة هو القابض بيده على بيت المال • لكننا لم نجد قولا صريحا فى هذا الشأن غـير ما كان يأمر به الخلفاء لأهلهم من الضياع أو الاموال ، وأكثر ما كانوا يفعلون ذلك فى أول الدولة اذا خافوا أهلهم من مناظرتهم على الملك ، فكانوا يشترون مبـايعتهم بمال يرضون به أهلهم كما فعل المنصور مع عيسى بن موسى اذ اشترى منه البيعة لابنه المهدى بمبلغ ١١٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم له ولأولاده (٧) أو للتوسعة عليهم

---

(١) المقريزى ٤٠١ ج ١ (٢) المقريزى ٣ ج ٢ (٣) ابن خلكان ٧٣ ج ٢ (٤) سراج الملوك للطرطوشى (على هامش المقدمة) (٥) السيوطى ١١٥ ج ٢ (٦) السيوطى ١١٩ ج ٢

(*) لا نستطيع القول ان هذه الارقام تعين تطور مرتب القاضى ، وانما هى ارقام متفرقة تعطى فكرة عن مستوى مرتبات القضاة فى هذه الاعصر وتلك البلاد

(٧) ابن الاثير ٢٧٥ ج ٥

Marfat.com

واستنصارهم كما فعل مع أعمامه فانه أمر لكل واحد منهم بمليون درهم تدفع اليهم من بيت المال وهو أول من فعل ذلك (١) ٠ويظهر أنها كانت تدفع اليهم فى كل عام ٠ ولما توفى ابنه المهدى فرض لأهل بيته كل واحد ٦٠٠٠ درهم فى السنة (٢) والظاهر أنهم بقوا على نحو ذلك فضلا عما كانوا ينالونه من الهبات الطائلة ، وخصوصا أبناء الخلفاء وولاة عهدهم ، فان الهادى أمر سنة ٢٧٠ هـ لابنه الرشيد بمليون دينار ، وأن يحمل اليه نصف الخراج (٣) على أثر ما كان من عزمه على خلعه من ولاية العهد

والظاهر أن الرشيد زاد فى رواتب أهله ٠ وكذلك المأمون بالقياس على ما كان من زيادة الرواتب فى خلافته ٠ وكان أعضاء العائلة قد زاد عددهم حتى بلغوا فى أيامه ٣٣٫٠٠٠ نفس ٠ ولما تولى المستعين سنة ٢٤٨ هـ ابتاع من المعتز والمؤيد جميع ما لهما وأشهد عليهما بذلك ، وترك للمعتز ما يتحصل منه فى السنة ٢٠٫٠٠٠ دينار ، وللمؤيد ما يتحصل منه ٥٠٠٠ دينار وحبسهما (٤) (*)

فلما كانت أيام ابن رائق أمير الامراء فى أوائل القرن الرابع للهجرة، كفت أيدى الخلفاء عن بيت المال ، وصار الى رجال الدولة ـ وأول من كفت يده الراضى بالله الذى توفى سنة ٣٣٩ هـ واستبد القواد ورجال الدولة فى الاموال وصار الخلفاء فى حاجة الى الراتب بعد ما ذهبت سيطرتهم عن بيت المال فقرروا لهم راتبا زهيدا (٥)

---

(١) الطبرى ٤٢٠ ج ٣ (٢) سير الملوك ٦٥ (٣) ابن الاثير ٤٠ ج ٦ (٤) الطبرى ١٥٠٧ ج ٣

(*) نص الطبرى هنا (طبعة المكتبة التجارية ، القاهرة١٩٣٩) حـ ٧ ص ٤٢٠ : « وفيها (سنة ٨٦٢/٢٤٨) ابتاع المستعين من المعتز والمؤيد فى جمادى الاولى منها جميع ما كان لهما ، خلا شيئا استثنى منه المعتز قيمته ١٠٠ ألف دينار ، واخذ له ولابراهيم (هو المؤيد اخو المعتز وهما ابنا المتوكل) غلة بثمانين ألف دينار فى السنة ، فلما كان يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من رمضان ابتيع من المعتز والمؤيد جميع مالهما من الدور والمنازل والضياع والقصور والفرش والآلة وغير ذلك بعشرين ألف دينار ، وأشهدا عليهما بذلك الشهود والعدول والقضاة وغيرهم ، وقيل ابتيع مالهما من الضياع وترك الى عبدالله ما يكون غلته من العين فى السنة ٢٠ الف دينار ولابراهيم ماتبلغ قيمته فى السنة ٥ آلاف دينار ٠ فكان ما ابتيع من ابى عبد الله (المعتز) بعشرة آلاف ألف دينار وعشر حبات لؤلؤ ، ومن ابراهيم (المؤيد) بثلاثة آلاف الف درهم وثلاث حبات لؤلؤ ، وأشهدا عليهما بذلك الفقهاء والقضاة ٠ وكان الشرى باسم الحسن بن مخلد للمستعين ، وذلك فى شهر ربيع الآخر سنة ٢٤٨ ، وحبسا فى حجرة الجوسق ، ووكل بهما ، وجعل أمرهما الى بغا الصغير ٠ وكان الاتراك قد أرادوا ، حين شغب الغوغاء والشاكرية ، قتلهما فمنعهم من ذلك أحمد الخصيب ، وقال : ليس لهما ذنب ، ولا المشغبة من أصحابهما ، وانما المشغبة من أصحاب ابن طاهر ، ولكن احبسوهما ، فحبسا »

(٥) الفخرى ٢٥٤

Marfat.com

ويظهر أن الخلفاء لم تكن لهم قبل ذلك رواتب معينة ، غير ما كان يصيبهم من الغنائم بحسب الشرع ـ الا أبا بكر فقد فرضوا له٦٠٠٠ درهم لما يصلحه ويصلح عياله بالمعروف (١) ثم لم نر ذكرا لرواتب الخلفاء الى أيام ابن رائق. فلما استولى معز الدولة الديلمى عـلى بغداد ســـنة ٣٣٤ هـ فرض للخليفة المستكفى ٥٠٠٠ درهم كل يوم لنفقاته ، ولكنه قلما كان يدفعها اليه (٢) ثم كان ما كان من فقر الخلفاء مما يأتى ذكره فى حينه

وفرض الأعطية للملوك وأهلهم عادة جارية عند معظم الامم الآن ، والغالب فى الدول المتمدنة أن تكون تلك الرواتب معينة فى ميزانياتها.وهاك رواتب العائلة المالكة فى انجلترا لعام ١٩٠٢ :

رواتب العائلة المالكة فى انجلترا لعام ١٩٠٢

جنيه انجليزى	
١١٠ ٠٠٠	راتب الملك
١٢٥ ٨٠٠	راتب خدم القصر
١٩٣ ٠٠٠	نفقات القصر
٤١ ٢٠٠	نفقات أخرى وتبرعات
٤٧٠ ٠٠٠	(جملة مخصصات الملك)
١٦٠ ٠٠٠	رواتب سائر أعضاء العائلة
٦٣٠ ٠٠٠	

وهذه رواتب العائلة الخديوية لعام ١٩٠٢

جنيه مصرى	
١٠٠ ٠٠٠	مخصصات الخديو
٩٧ ٩٢٧	مرتبات العائلة الخديوية
٥٧ ٤٣٤	نفقات كابينة الخديو (*)
٢٥٥ ٣٦١	

(١) المقريزى ٩٥ ج ١ (٢) ابن الاثير ١٧٦ ج ٨

(*) تركنا هذه التعبيرات على حالها ، لانها مصطلحات فنية لذلك العصر . فكانت الاوراق الرسمية لا تقول « الخديوى » وانما « الحضرة الخديوية » ، أما كابينة الحضرة الخديوية فيراد بها ديوان الخديوى ، وهى لفظة أوروبية Cabinet

ولسلطان تركيا راتب مقداره فى الشهر ٧٥ر٠٠٠ ليرة عثمانية (*) ، او ٩٠٠ر٠٠٠ ليرة فى السنة ما عدا النفقات والمخصصات (عام ١٩٠٢)

رواتب حاشية الخليفة

ونريد بحاشية الخليفة الموظفين المتعلقة أعمالهم بشخص الخليفة ، وليس بأعمال الدولة كالاطباء والحجاب والحـــرس الخاص ، ورواتبهم من بيت مال الخاصة ، وقد يكون لهم رواتب من بيت مال العامة ، وكانت كبيرة ، نستدل على ذلك من مخصصات جبريل بن بختيشوع طبيب الرشيد ، ومنها رواتب نقدية كان يؤخذ بعضها من بيت مال العامة ، والبعض الآخـــر من بيت مال الخاصة • واليك راتب جبريل المذكور فى السنة كما وجـــدوه مدونا بخط كاتبه (١) :

مرتبات جبريل بن بختيشوع طبيب الرشيد فى السنة

درهم		
	من بيت مال العامة	
	١٢٠ ٠٠٠	راتب نقدى
١٨٠ ٠٠٠	٦٠ ٠٠٠	النزل
	من بيت مال الخاصة	
	٥٠ ٠٠٠	راتب نقدى
	٥٠ ٠٠٠	ثياب قيمتها
	٥٠ ٠٠٠	هدية على عيد صوم النصارى
	١٠ ٠٠٠	هدية على يوم الشعانين (ثيابا قيمتها هذا المبلغ)
	٥٠ ٠٠٠	هدية على عيد الفطر نقدا
	١٠ ٠٠٠	هدية على عيد الفطر (ثيابا قيمتها ذلك المبلغ)
	١٠٠ ٠٠٠	لفصد الرشـــيد دفعتين فى السنة كل دفعة ٥٠ ٠٠٠
٤٢٠ ٠٠٠	١٠٠ ٠٠٠	لشرب الدواء دفعتـــين فى السنة كل دفعـــة ٥٠ ٠٠٠
٦٠٠ ٠٠٠	(المجموع)	

(*) الليرة العثمانية او الجنيه العثمانى او الجنيه المجيدى قيمتها حوالى ٨٠ قرشا مصريا ، وكانت تقسم الى ٢٠ فرنكا ذهبيا تركيا ، وقيمته أقل من الفرنك الذهبى الفرنسى بقليل

(١) طبقات الاطباء لابن ابى أصيبعة ١٣٦ ج ١

Marfat.com

من أصحاب الرشيد نقدا وثيابا وأطيابا	
٥٠ ٠٠٠ درهم من عيسى بن جعفر	
٥٠ ٠٠٠ درهم من زبيدة أم جعفر	
٥٠ ٠٠٠ درهم من العباسة	
٣٠ ٠٠٠ درهم من ابراهيم بن عثمان	
٥٠ ٠٠٠ درهم من الفضل بن الربيع	
٧٠ ٠٠٠ درهم من فاطمة أم محمد	
١٠٠ ٠٠٠ كسوة وطيب ودواب	٤٠٠ ٠٠٠
١ ٠٠٠ ٠٠٠ (المجموع)	
من البرامكة	
٦٠٠ ٠٠٠ من يحيى بن خالد	
١ ٢٠٠ ٠٠٠ من جعفر بن يحيى الوزير	
٦٠٠ ٠٠٠ من الفضل بن يحيى	٢ ٤٠٠ ٠٠٠
غلته من ضياعه	٨٠٠ ٠٠٠
من فضل مقاطعته	٧٠٠ ٠٠٠
(الجملة)	٤ ٩٠٠ ٠٠٠

فجملة رواتبه فقط ٤ر٩٠٠ر٠٠٠ درهم فى العام ، فاذا جمع ذلك فى مدة خدمته كلها وهى ٢٣ سنة كان مقدار ما قبضه من مال الدولة العباسية ١١٢ر٧٠٠ر٠٠٠ درهم يخرج منها ما قطع عنه من مرتبات البرامكة بعد نكبتهم فى العشر السنين الاخيرة ، وهو ٢٤ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم فالباقى ٨٨ر٧٠٠ر٠٠٠ درهم ، وهو جملة ما اكتسبه من بيت المال غير الصلات الجسام . وأما ما أنفقه فهو :

درهم	
٢٧٦٠٠٠٠٠	جملة نفقاته على نفسه وبيته فى ٢٣ سنة بمعدل ١ ٢٠٠ ٠٠٠ درهم فى السنة
٧٠٠٠٠٠٠٠	ثمن دور وبساتين ومتنزهات ودواب ورقيق وغيرها
٨٠٠٠٠٠٠	ثمن آلات وأجر وصناعات ونحو ذلك
١٢٠٠٠٠٠٠	ما صار فى ثمن ضياع ابتاعها لخاصته
٥٠٠٠٠٠٠	ثمن جواهر وما أعده للذخائر
٢٠٠٠٠٠٠	ما أنفقه فى البر والصلات والمعروف
٣٠٠٠٠٠٠	ما كابره عليه أصحاب الودائع وجحدوه (أى أنكروه)
٢٨٦٠٠٠٠٠٠	(والمجموع فى الاصل ٩٠٠ر٠٠٠ دينار و ٩٠ر٦٠٠ر٠٠٠ درهم)

وقس رواتب سائر الحاشية على هذه النسبة فى تلك الايام • فقد كانت غلة صاحب حرس الرشيد ٣٠٠ر٠٠٠ درهم فى السنة ، وغلة صاحب شرطته ٥٠٠ ر٠٠٠ درهم ، وغلة حاجبه ١ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم فى السنة (١)

رواتب الجند

بينا فى باب الجنـــد من الجـزء الاول كيف كان المسلمـون كلهـم جندا، وذكرنا ما فرضـــه لهم عمـر من الرواتب باعتبـــار النسب والسـابقة ، وكيف تضاعفت رواتبهم فى أوائل بنى أمية ثم نقصت فى أواخرها،ثم زادت فى أوائل بنى العباس ، ثم نقصت حتى صارت فى أيام المأمون ٢٤٠ درهما فى السنة للجندى الراجل (النفر) فضلا عن حصته من الغنائم اذا غزا • ويظهر أن تلك الحصة من الغنائم ، كانوا يحبسونها عن الجند فى صدرالدولة العباسية ، حتى طلبوا من محمد الأمين سنة ١٩٨ ه أن يردها عليهم اذا غزوا فردها فأصاب الرجل ستة دنانير (٢)

ولما قامت الفتنـــة بين الأمين والمأمون كان كل منهما يرغب جنده فيـه بالاعطيات ، فلما فاز جند طاهر بن الحسين على جيش على بن عيسى بن ماهان سنة ١٩٥ زاد المأمون أعطيات جند طاهر حتى جعل راتب الواحـــد ثمانين درهما فى الشهر (٩٦٠ درهما فى السنة) (٣) أى انه أعادها الى ما كانت عليه فى أيام السفاح • فلما انتهت الفتنة عادت الى ٢٤٠ درهما

الافشين وبابك

فلما أفضت الخلافة الى المعتصم سنة ٢١٨ ه وكان ماكان من اقتنائه الاتراك والفراغنة والمغاربة وتجنيدهم ، وضعف الخلفـاء للأسـباب التى قدمناها ، أصبح مرجع القوة فى كل شىء الى الجند•وكانت فاتحة ذلك النفوذ استفحال أمر بابك الخرمى فى أرمينيا وأذربيجان • وكان بابك قد ظهر فى ايام المأمون يدعو الناس الى دين جديد أساسه الحلول أى تقمص الارواح (٤) فبعث اليه المأمون جنودا هزمهم غير مرة ، فلما تولى المعتصم جعل همه قمع بابك لانه أصبح خطرا على ملكه فبعث اليه أتراكه بقيادة رجل منهم اسمه الأفشين حيدر ابن كاووس سنة ٢٢٠ ه ثم أردفه بآخر اسمه بغا الكبير ومعه المال ، وآخر اسمه جعفر الخياط ثم أنفذ اليه ايتاخ ومعـه ٣٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم لنفقات الجند ، وبعد حروب سنتين فاز الأفشين وقبض على بابك بحيلة بذل فيهـا المال • وجاء ببابك الى سامرا فخرج الواثق بن المعتصم وسائر أهل المعتصم لاستقباله باحتفال ، وهم لا يصدقون أنهم نجوا من بابك على يده ، لانه كان

---

(١) طبقات الاطباء ١٣٢ ج ١ (٢) الطبرى ٩٧٢ ج ٣ (٣) الطبرى ٨٣٠ ج ٣ (٤)ابن الاثير ١٣٤ ج٦

Marfat.com

قد أمعن فى البلاد نهبا وقتلا ، فقتل فى عشرين سنة ٢٥٥ر٥٠٠ نفس وغلب على معظم قواد المأمون والمعتصم ـ فلما قبض الأفشين عليه أمر المعتصم أن يركبوه على الفيل ، فأركبوه واستشرفه الناس وكان بابك عظيم الجثة . ثم أدخلوه على المعتصم فى داره فأمر سياف بابك نفسه أن يقطع يديه ورجليه فقطعها ، فسقط بابك فأمره بذبحه ففعل وشق بطنه وأنفذ رأسه الى خراسان وصلب بدنه فى سامرا . وكان ذلك اليوم يوما مشهودا أمن فيه المعتصم على ملكه وعرف ذلك الفضل للافشين ورجاله ـ وكان لا ينفك عن مواصلة الافشين بالعطايا والخلع من يوم خروجه الى يوم رجوعه . فكان يرسل اليه كل يوم خلعة وفرسا ويدفع اليه فى أثناء اقامته بازاء بابك (سوى الارزاق والانزال والمعاون) عن كل يوم يركب فيه عشرة آلاف درهم وعن كل يوم لا يركب فيه خمسة آلاف درهم . ولما عاد الافشين تقدم المعتصم بنفسه وألبسه وسامين مرصعين بالجوهر ووصله بعشرين مليون درهم : عشرة ملايين منها لنفسه وعشرة يفرقها فى عسكره، وعقد له على السند وادخل عليه الشعراء يمدحونه(١)

فالافشين لم يثبت فى محاربة بابك الا طمعا فى المال ، مع ما كان يواصله به المعتصم من الخلع والاموال فى أثناء الحرب ، ثم ما دفعه اليه عند رجوعه . وكان الافشين يرسلها كلها الى بلاده حتى وهو فى دار الحرب . فكان اذا اجتمع اليه مال من غنيمة أو هدية بعث به رأسا الى بلدة اشروسنة فيما وراء النهر بطريقة سرية ، فيجتاز حملة المال بخراسان فيعلم بهم عاملها ابن طاهر فيكتب الى المعتصم بشأنهم ، المعتصم يأمره أن يطلعه على كل ما يراه من هذا القبيل . فأنفذ الافشين مرة مالا كثيرا جعله فى أوساط أصحابه فى الهمايين فبعث ابن طاهر ففتشهم فوجد المال فقال : « من أين لكم هذا المال ؟ » قالوا : «للافشين» فأخذه وأظهر أن الافشين لا يفعل ذلك وانما هم لصوص . فوقعت الوحشة من يومئذ بين ابن طاهر والافشين حتى آل الامر الى حبسه ، وقد تبين من محاكمته أنه لم يعتنق الاسلام الا طمعا فى المال وأنه لا يزال على المجوسية(٢)

***

وقس على ذلك سائر جند المعتصم ، فانهم انما كانوا يحاربون لمجرد كسب الاموال وحملها الى بلادهم فى أقصى الشرق ـ فكيف تستقيم دولة هذا جندها ؟ ـ على أن الخلفاء لم يكونوا يجدون بدا من استنصارهم ، ولا سبيل الى ذلك الا بالمال .. فكانوا يبذلون لهم الرواتب الكبيرة غير ما يهبونهم اياه من الهدايا ونحوها ، اقتداء بما كان يفعله المعتصم معهم ـ لانه بنى لهم سامرا ، وأقطعهم فيها الاقطاعات ، واشترى لهم الجوارى فأزوجهم منهن ،

---

(١) الطبرى ١٢٣٢ ج ٣ (٢) ابن الاثير ٢٠٩ و ٢١١ ج ٦

Marfat.com

ومنعهم أن يتزوجوا او يصاهروا احدا من المولدين ، الى أن ينشأ لهم الولد فيتزوج بعضهم الى بعض • وأجرى للجـوارى الاتراك أرزاقا قائمة ، وأثبت أسماءهن فى الدواوين ، فلم يكن يقدر أحد منهم على ان يطلق امرأته ولا ان يفارقها (١)

فاذا اعتبرت هذه النفقات مع أرزاق الرجال ، وما قد يحتاجون اليـه من المؤونة والاخرجة كان المجموع عظيما جدا ••• قال الطبرى فى حوادث سنة ٢٥٢ هـ : « وذكر ان ارزاق الاتراك والمغاربة والشاكرية قدرت فى هـذه السنة ، فكان مبلغ ما يحتاجون اليه فى السنة ٢٠٠ر٠٠٠ دينـار ، وذلك خراج المملكة كلهـا لسنتين » (٢) • ونظن أن المـراد ٢٠٠ر٠٠٠ درهم (لا دينـار) ، اذ يستبعد أن يجتمع هـذا القـدر من الخراج دنانير فى سـنتين ، لاننا لو حـولناها الى دراهم باعتبـار الدينار عشرين درهما ـ وهى قيمتـه فى ذلك الحين ـ كان خـراج المملكة فى السـنة ٢ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم ، وقد رأينـا خراجها فى ابان ثروتها لا يزيد على ٤٠٠ر٠٠٠ درهم ـ فانفاق ٢٠٠ مليون درهم على الجند فى سـنة واحدة أمر عظيم جدا ، وخصوصـا اذا اعتبرنا قيمة النقود فى تلك الايام • ولكنه لا يعد شيئا بالنظر الى نفقات الجند فى هذه الايام (سنة ١٩٠٣) لان التمدن الحديث اقتضى الاحتياط والتجنيد واعداد المعدات ، حتى كثرت نفقات الجند كثرة فاحشة وخصوصا اذا أضفنا اليها نفقات الاسـاطيل ـ فانجلترا مثلا تنفق على جنديتها برا وبحرا نحو ٤٠ر٠٠٠ر٠٠٠ جنيه فى السنة (*)، وفرنسا تنفق نحو هذا المبلغ ، وكذلك روسيا • وهو مع اعتبار قيمة النقود بالنسبة الى تلك الايام لا يزال يعادل ضعفى ما كان ينفقه العباسيون تقريبا، ولكننا أعظمنا ما أنفقوه بالنظر الى ما كان من طرق انفاق الجند عندهم

ناهيك بما كان يرتكبه الجند العباسى من اغتصاب أموال الناس فى منازلهم وحوانيتهم لاقل سبب يحدث ، والخلفاء لا يعدون ذلك ذنبـا لهم ، بل ربما عنفوا الناس لانهم لم ينقلوا سلعهم وأمتعتهم الى مكان لا يعرفه الجند

على أن الخلفاء كانوا ينشطون مطامع الجند فيهم ، بما كانوا يشرطونه عـلى أنفسهم من المال اذا هم فعلوا لهم الامر الفلانى حتى فى ساحة الحرب • فكانوا اذا احتدم القتال وخاف الخليفة أو الأمير ضعفا صاح فى جنـده : « من جاء بأسير فله عشرة دنانير ، ومن جاء برأس فله خمسة دنانير » كما فعل المقتدر سنة ٣٢٠ هـ (٣)

---

(١) اليعقوبى (كتاب البلدان) ٣٣ (٢) الطبرى ١٦٨٥ ج ٣

(*) ذكر المؤلف قيمة هذا المبلغ بالفرنكات الفرنسية بسعر تلك الايام ، فقال انها ١٠٠٠ مليون فرنك ، وذكر أن الفرنك يساوى الدرهم تقريبا ، وقيمة الفرنك الفرنسى (بسعر سنة ١٩٠٣) ٤ر٣٧٥ قرشا

(٣) ابن الاثير ٩٠ ج ٨

أما رواتب الجند العباسى ، أى ما كانوا يتقاضونه قدرا معينا فى العام ، فقد تبين من قائمة نفقات الدولة فى أيام المعتضد ـ على ما مر فى هذا الكتاب ـ ان أرزاق الجند من الفرسان والمماليك ونحوهم لا تزيد على ١ر٥٠٠ر٠٠٠ دينار أو ٣٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم٠ثم استفحل أمر الجنود الاتراك بتوالى الاعوام وتعددت فرقهم ، وتزايدت رواتبهم مما لا يمكن حصره ، لانه يختلف باختلاف الازمان والاحوال فضلا عن سكوت المؤرخين فى هذا الشأن الا ما قد يتناولونه عرضا

فقد بلغ عدد فرقة الرجالة المصافية (أى الحرس) الملازمين لدار الخليفة المقتدر سنة ٣١٧ هـ ٢٠ر٠٠٠ رجل ، بلغت رواتبهم ١٢ر٠٠٠ دينار فى الشهر ، أى ستة دنانير لكل واحد ٠ وكان عدد الفرسان ١٢ر٠٠٠ فارس رواتبهم فى كل شهر ٥٠٠ر٠٠٠ دينار ، وذلك نحو ٤٢ دينارا لكل واحد ٠ أو نحو ١٢ر٠٠٠ درهم فى السنة للفارس ، و ١ر٤٤٠ درهما للراجل ٠ وكانوا مع ذلك كثيرا ما يثورون ويطلبون الزيادات ويهددون الخليفة بالقتل اذا لم يجبهم (١) ٠ وتداخلوا فى منازل الخلفاء ، ووضعوا أيديهم على الخلافة ، وصاروا يولون من شاءوا واذا أتت الاموال اقتسموها فيما بينهم لا يتركون منها للخليفة أو الديوان الا القليل،كما فعل أتامش وشاهك فى أيام المستعين بالله سنة ٢٤٩ هـ (٢)

وكما كان القواد يطمعون فى الخلفاء ويستبدون بهم كانوا أيضا يستأثرون بالاموال دون أفراد الجند حتى لقد ثار هؤلاء مرارا على قوادهم وطالبوهم بالاموال وهددوهم ، واذا لم يروا منهم اصغاء وتلبية قتلوهم ٠ كما فعلوا بالقائد وصيف سنة ٢٥٣ هـ فان الاتراك والفراغنة والاشروسنية شغبوا وطلبوا أرزاقهم لاربعة أشهر فخرج اليهم بغا ووصيف وسيما فكلمهم وصيف بالجفاء وقال لهم : « خذوا التراب ، ليس عندنا مال ! » فوثب عليه بعضهم وقتلوه (٣) وكثيرا ما تظلموا للخلفاء ، وشكوا مما صار اليه قوادهم من الاقطاعات التى قد أجحفت بالضياع والخراج ، وما صار الى كبرائهم من المعاون (*) والزيادات فى الرسوم القديمة بالاضافة الى ما كان ينفق فى أرزاق النساء والدخلاء الذين قد استغرقوا أكثر أموال الخراج (٤) حتى طلبوا التخلص منهم وعرضوا ان يقود الجند أخو الخليفة

---

(١) صلة تاريخ الطبرى لعريب بن سعد ١٤٢ ـ ج ١٥١ (٢) الطبرى ١٥١٢ ج ٢ (٣) ابن الاثير ٧٠ ج ٧

(*) المعاون ، بفتح الميم جمع معونة ، وكانت نوعا من السخرة يفرض على الفلاحين لحفر الترع واقامة السدود وما الى ذلك ، ثم استبدلت بضريبة يدفعها الناس فى مقابل قيام الحكومة بهذا العمل ، وهذه الضريبة هى المعونة وجمعها المعاون ٠ وكان رجال الدولة يجمعونها ولا يقومون بشىء

(٤) الطبرى ١٧٩٦ ج ٣

Marfat.com

رواتب الجند الآن

على أننا اذا اعتبرنا رواتب الجند الاسلامى على اختلاف عصـــوره من أيام الراشدين الى أواخر الدولة العباسية ، وقسناها برواتب جنود هـذه الايام (سنة ١٩٠٣) رأيناها تزيد عليها زيادة فادحة • فقد رأيت أن راتب الجندى فى ايام الراشدين تراوح بين ٣٠٠ و٥٠٠ درهم فى السنة ، ثم صـار أيام بنى أمية الف درهم ، وتقلب فى أيام العباسيين حتى صار فى أيام المقتـدر ١٤٤٠ درهم للراجل ، و ١٢٫٠٠٠ درهم للفارس فى الســنة ـ تلك رواتب افراد الجند (الانفار) عندهم مع ان راتب النفر فى الدولة الانجليزية للراجل شلن وللفارس شلن و ٩ بنسات فى اليوم ، ومقدار ذلك فى السنة نحو٤٥٥ درهما (حوالى ١٩٩٠ قرشا مصريا) للراجل و ٣٥ جنيها مصريا للفارس • على أن رواتب الجند عندهم تختلف فى كل من المشاة والفرسان باختـــلاف الفرق • ولكنها فى كل الاحوال عظيمة بالنظر الى رواتب الجنـــد فى الدول الاخرى • وأما بالنظر الى الدولة العباسية فانهاصغيرة وخصوصا اذا اعتبرنا قيمة النقود فى الحالتين

ومن أسباب كثرة نفقات الجند اليوم كثرة الضباط وكبر رواتبهم ، وان كنا لا نعلم مقدار رواتب ضباط تلك الايام وهم القواد • وهاك رواتب الجند الانجليز من أكبر الضباط الى النفر (العسكرى) فى اليوم (١) ثم رواتب الجندين العثمانى والمصرى :

رواتب الجند الانجليزى فى اليوم بالجنيه والشلن والبنس (سنة ١٩٠٣)

المشاة			الفرسان			
بنس	شلن	جنيه	بنس	شلن	جنيه	
—	—	٨	—	—	٨	الجنرال (المشير)
—	١٠	٥	—	١٠	٥	الفريق
—	—	٣	—	—	٣	اللواء
—	١٨	—	٦	١	١	أمير لاى
—	١٨	—	٦	١	١	قائمقام
٧	١٠	—	—	١٥	—	بكباشى
٧	١١	—	—	١٣	—	يوزباشى
٦	٦	—	٦	٧	—	ملازم أول
٣	٥	—	٨	٦	—	» ثان
—	١	—	٩	١	—	النفر

(١) ويتكر ٢٢٠

Marfat.com

رواتب الجند العثمانى فى الشهر (سنة ١٩٠٣)		رواتب الجند المصرى فى الشهر (سنة ١٩٠٣)	
قرش عثمانى		قرش مصرى	
٢٥٠٠٠	المشير	٠٠٠٠	المشير (لا يوجد)
١٠٠٠٠	الفريق	٧٥٠٠	الفريق
٦٠٠٠	اللواء	٦٥٠٠	اللواء
٢٠٠	أميرالاى	٤٧٠٠	أميرالاى
١٨٠٠	قائمقام	٣٠٠٠	قائمقام
١٢٠٠	بكباشى	٢٥٠٠	بكباشى
٧٠٠	قولاغاسى	١٥٠٠	صاغقولاغاسى (هو الصاغ اليوم)
٥٠٠	يوزباشى	٩٠٠	يوزباشى
٢٥٠	ملازم أول	٦٠٠	ملازم أول
٢٠٠	« ثان	٥٠٠	« ثان
٢٠	نفر	٣٠	نفر

رواتب اخرى

كانت سياسة الملك فى تلك العصور تقتضى استرضاء بعض الناس ممن يخاف الخلافاء أقلامهم أو السنتهم أو احزابهم . لان المملكة لم تكن تخلو من دعاة يطلبون الخلافة لانفسهم من العلويين أو الخوارج أو غيرهم ــ والملك لا يخلو من حساد يترقبون فرصة للانتقام . وكان للخطابة والحماسة يومئذ تأثير على الرأى العام أكثر مما للصحافة فى هذه الايام . فالخلفاء العقلاء كانوا يؤثرون ملافاة شرور المقاومين بالاحسان اليهم أو الرفق بهم ، فيقطعون ألسنتهم بالجوائز الوقتية أو بالرواتب الجارية ، كما يفعل ملوك هذه الايام بالصحافة ، فان بعضهم يدفع الرواتب السنوية الى أرباب الصحف فى مقابل سكوتهم عنه ، والبعض الآخر يبتــاع مساعدتهم فى انهاض الهمم أو جمع كلمــة الاحزاب . فالشعراء والخطباء ونحوهم كان شأنهم فى تلك الايام مثل شأن الصحافة اليوم . فلا غرابة اذا بذل الخلفاء الاموال لاسترضائهم

واول من فعل ذلك فى الاسلام معاوية بن أبى سفيــان . فكان يسمع التقريع بأذنه ولا يجازى عليه الا بالعطاء ، ولذلك كانوا يعبرون عن اجازة الشاعر بقطع لسانه (١) وكان يفعل ذلك بالشعراء والوجهاء وغيرهم . وسار

(١) المستطرف ٣٤ ج ١ ، اى انهم يقولون ان الخليفة أعطى فلانا الشاعر كذا من الدنانير ليقطع بذلك لسانه عنه

Marfat.com

الخلفاء بعده على خطواته وفرضوا الاعطية لرؤساء الاحزاب من بنى هاشم والطالبيين ونحوهم ، وصاروا يهبون الاموال لمن يخافونهم على سلطانهم ، وأكثر ماكان الخلفاء يهبونه من الجوائز والعطايا للوفود والشعراء انما كان يعطى لنحو ذلك الغرض

وكانوا يفرضون الرواتب أحيانا لاناس يرجون نصرتهم على مناظريهم فى الملك ، كما فعل العزيز بالله الفاطمى سنة ٣٨١ هـ بعلى بن الحسين من آل المغربى لما جاءه من بغداد ، فانه جعل له ٦٫٠٠٠ دينار فى السنة وسماه من شيوخ الدولة (١) وقد يفرضونها لطبقات الناس من أهل العوز ، كما فعل الاخشيد بمصر فىاوائل القرن الرابعللهجرة ، فانه فرض للضعفاء والمستورين من أبناء النعم وأجناس الناس (ليس فيهم أحد من الجيش ولا من الحاشية ولا من المتصرفين بالاعمال) رواتب بلغ مقدارها فى ايام كافور الاخشيدى ٥٠٠٫٠٠٠ دينار فى السنة (٢) ، فلا بد من أن يكون مثل هذه الرواتب فى الدولة العباسية

ناهيك برواتب الحاشية والاعوان ونحوهم ، ممن تندرج رواتبهم فى نفقات الدولة ، فقد رايت أنها كانت كبيرة . ومن هذا القبيل حواشى الامراء والعمال والوزراء وغيرهم ، وقد يبلغ عددهم عند بعضهم بضعة آلاف (٣) او تزيد

عدد أيام الشهور

شرعت الدولة العباسية فى زيادة الرواتب فى ابان ثروتها ، ولم تكن تشعر بثقل تلك الزيادة لوفرة الاموال الواردة على بيت المال . ثم مالبثت ان رأت الجباية تتناقص ولم يعد فى امكانها انقاص الرواتب بعد أن تعود اصحابها الاسراف والبذخ واقتناء الخدم والمماليك اقتداء بخلفائهم ، ولم يعد فى الامكان كذلك اقالتهم خوفا من غضبهم ، فعمد الوزراء الى حيلة حسنة اقتصدوا بها شيئا كثيرا من المال . وذلك أنهم جعلوا الرواتب مياومة ، فاذا ارادوا تخفيض بعضها وكان مقدار الراتب ألف دينار فى الشهر مثلا ، فبدلا من ان يجعلوه ٨٠٠ دينار يبقونه على ماكان ويزيدون أيام ذلك الشهر فيجعلونها أربعين يوما أو خمسين . فأصبح لكل فئة من الموظفين تقريبا شهر خاص يختلف عدد أيامه عن أيام أشهر الآخرين

فقائمة نفقات المعتضد المنشورة فى هذا الجزء يختلف شهر كل من اصحاب الرواتب فيها عن شهر غيره . فالغلمان الذين اعتقهم الناصر كانت ايام شهورهم اربعين يوما ، فأساءوا الادب فى مطالبة كانت منهم فجعلها خمسين

---

(١) المقريزى ٤٥٩ ج ٢ (٢) المقريزى ٩٩ ج ١ (٣) ابن الاثير ١٨٣ ج ٧

يوما . ثم لما تولى المعتضد جعلها ستين يوما . والفرسان الاحرار والمميزون كانت شهورهم خمسين يوما فجعلها تسعين ونسبوا الى التسعينية ، ثم جعل شهور بعضهم ١٢٠ يوما . وأشهر المختارين سبعون يوما ، واشهر الفرسان المثبتين ١٢٠ يوما ، وكذلك المرتزقة برسم الشرطة بمدينة السلام والسقايين وقس عليهم سائر الموظفين فى هذه القائمة وغيرها . فالذى راتبه ألف دينار فى الشهر اذا جعل شهره ١٢٠ يوما كأنه تنزل الى الربع . وكثيرا ماكان يعجز بيت المال عنها ويقصر عن تأديتها شهرا بعد شهر حتى يثور الجند ، فاما أن يخلعوا الخليفة أو يقتلوه ويفوز بالخلافة صاحب المال

(٤) النفقة على البيعة

رأيت فيما تقدم أن الخلفاء فى أوائل الدولة العباسية كانوا يحتاجون فى تأييد بيعتهم الى استرضاء أهل الحرمين ، وكانوا يحملون اليهم الاموال ويبذلون لهم الاعطية ويفرقون فيهم الهدايا . فلما ضعف شأن العرب بعد المعتصم ، وقوى جند الاتراك أهمل أمر الحرمين ، وصارت القوة اليهم أو بالاحرى الى المال ــ لان الاتراك انما يحاربون مع المال . وصارت مبايعة الخلفاء راجعة الى رضاهم ، أو الى من يدفع المال اليهم . على أن الخلفاء كانوا من أوائل الدولة يسترضون الجند ويكرمونهم بالهدايا عند كل بيعة ، ويسمون مايدفعونه اليهم فى هذه السبيل « حق البيعة » ، فلما تولى الامين فرق فى الجند رزق ٢٤ شهرا (١) ولولا ذلك لم يحكم شهرا واحدا . ولما أراد المأمون أن يبايع لعلى الرضا صرف للجند راتب شهر على أن يصرف لهم الباقى اذا أدركت الغلة (٢) فلم يقبلوا ولعله لو عجل لهم بالمال لبايعوا لمن شاء . وكان بنو أمية يعطون فى مقابل البيعة ولاية عمل يجعلونها طعمة عدة سنين ، كما فعل عبد الملك بن مروان مع عبد الله بن خازم سنة ٧٢ هـ وكان عبد الملك يحارب ابن الزبير فى مكة ويخاف منه ، فبعث الى ابن خازم المذكور يدعوه الى بيعته ويطعمه خراسان سبع سنين (٣)

واما بعد أيام المعتصم ، فأصبحت البيعة تجارة ينالها صاحب المال أو صاحب الجند والمعنى واحد . وكان الجند يسرون بخلع الخلفاء طمعا فى المال لانهم كلما تولى خليفة طالبوه بحق البيعة ورزق ستة أشهر أو سنة أو اكثر او اقل على قدر مطامعهم (٤) وهناك من أمثال هذه المطالبات ما لايعد ولا يحصى ، فتراجع فى تاريخ الخلفاء العباسيين . فانشغل الخلفاء بذلك عن سياسة المملكة ، واختلت الاحكام ، واصبح همهم منصرفا الى حفظ

---

(١) ابن الاثير ٨٩ ج ٦ (٢) الطبرى ١٠٣ ج ٣ (٣) ابن الاثير ١٦٨ ج ٤ (٤) ابن الاثير ٧٥ ج ٨

Marfat.com

ارواحهم واستبقاء ضياعهم ، وصارت البلاد فوضى للجند ، او لمن يستطيع استخدامهم ، وانشغل الناس عن الزراعة والتجارة ، واهملت الاعمال بوجه الاجمال

***

وزاد اهل البلاد شقاء ان قواد الجند كانوا اذا اعوزهم المال ، ولم يكن فى بيت المال مايكفى ، استخرجوه من الاهالى . وكثيرا ماكان يحدث ذلك فى أثناء الحروب بين فرق الجند فى تنازعهم على تولية احد الخلفاء . فقد نهب جند الديلم اموال الناس فى بغداد ، فى أثناء الخصام بين ناصر الدولة ومعز الدولة سنة ٣٣٤ هـ ، بشأن الخليفة المطيع لله ، وكان مقدار مانهبوه من اموال المعروفين فقط ١٠.٠٠٠.٠٠٠ دينار (١) ولما عين الخليفة المستكفى « شير زاد » أميرا للامراء فى تلك السنة ، زاد هذا اعطيات الجند زيادة كثيرة على جارى عادتهم عند كل بيعة ، لكنه لم يجد فى بيت المال مايعطيهم ، فقسط الاموال على العمال والكتاب والتجار وغيرهم ، وظلم الناس . فظهرت اللصوص فى بغداد ، وأخذوا الاموال نهبا ، ففر التجار واصبحت البلاد فوضى (٢)

فآل ذلك وامثاله الى تتابع الاحن على البلاد ، فتقاعد اهل المدن عن العمل، كما تقاعد أهل القرى عن الزرع ، وغلت الاسعار ، وتوالى الجوع أعواما على مدن العراق ، وخصوصا بغداد ، فكثر اللصوص وصاروا طوائف عديدة ، لاعمل لهم الا النهب عند سنوح الفرصة ، وخصوصا فى أثناء الفتن . ومنهم العيارون والشطار . ولم يجد الخلفاء ما يستأجرون به جندا لدفع الفتن او اخماد الثورات . على انهم كثيرا ماكانوا يمسكون عن دفع المال ، ولو كان فى خزائنهم ، لانهم يرون النفوذ لسواهم . كما حدث للمقتدر سنة ٣٢٠ هـ فانه أمسك عن دفع الاموال وهى عنده وعند والدته ، حتى آل الامر الى قتله بمساعى مؤنس الخادم . فكان مافعله مؤنس سببا لجراة اصحاب الاطراف على الخلفاء وطمعهم فيهم (٣) حتى تجراوا على نهبهم ومصادرتهم ، كما حدث للمطيع سنة ٣٦١ اذ سطا جند الروم من جهة الجزيرة حتى بلغوا نصيبين ، وسبوا واحرقوا ففر اهلها الى بغداد ، يستنجدون الخليفة وجنده وأهل المدينة ، فشغب الناس وخافوا فطلب بختيار (صاحب الامر يومئذ هناك) الى الخليفة ان يدفع المال للنفقة على الغزاة لمحاربة الروم ، فقال المطيع : « ان الغزاة والنفقة عليها وعلى غيرها من مصالح المسلمين تلزمنى اذا كانت الدنيا فى يدى ، وتجبى الى الاموال ، واما اذا كانت حالى هذه فلايلزمنى

---

(١) ابن الاثير ١٧٨ ج ٨ (٢) ابن الاثير ١٧٦ ج ٨ (٣) ابن الاثير ٩٠ ج ٨

شيء ، وانما يلزم من البلاد فى يده ، وليس لى الا الخطبة فاذا شئتم أن أعتزل فعلت » فلم ينفعه ذلك الاحتجاج فاضطر الى بيع ثيابه وانقاض داره وغير ذلك لدفع ٤٠٠ر٠٠٠ درهم . فشاع الخبر أن الخليفة صودر . على أن المال المذكور لم ينفق فى الغزاة وانما أنفقه بختيار فى مصالحه (١) ، وما اشبه حال الخلفاء العباسيين مع جندهم الاتراك بحال سلاطين آل عثمان مع جندهم الانكشارية فى القرن الثامن عشر وبعيده ، ولا ندرى كيف كان يصير حالهم لو لم ينكبهم السلطان محمود الثانى سنة ١٨٢٦

فلم يبق فى الدولة العباسية ، والحالة هذه مصدر للمال للقيام بنفقات مصالحها واستبقاء جندها ، لان الفتن أقعدت الناس عن العمل فخربت البلاد . ولكن الجند لابد منه لحفظ السلطة ، فلما استولى معز الدولة بن بويه على بغداد فى خلافة المطيع شغب الجند عليه وأسمعوه المكروه فضمن لهم ايصال ارزاقهم . ولما أعجزه ذلك من طريق الحلال ، اضطر الى ضبط الناس واخذ اموالهم من غير وجوهها فلم يغنه ذلك شيئا ، فارتأى أن يسلم القرى والضياع الى قواده ورجاله ليزرعوها ويستغلوها ، فسلم اليهم ضياع الخلافة وضياع أصحاب الاملاك فبطل لذلك أكثر الدواوين وزالت أيدى العمال . وكانت البلاد قد خربت للاسباب التى قدمناها ، فاستأثر القواد بالقرى العامرة فزادت عمارتها وتوفر دخلها بسبب الجاه والنفوذ . واخذ الاتباع القرى الخربة فزادت خرابا فردوها وطلبوا غيرها ، وأهملوا الاهتمام بمشارب القرى وتسوية طرقها ، فهلكت وبطل كثير منها وأخذ غلمان المقطعين فى تحصيل العاجل بالظلم . وبالجملة فقد تعذر على معز الدولة بهذه الطريقة جمع ذخيرة للنوائب والحوادث . وكان قد أكثر من اعطاء غلمانه الاتراك والزيادة لهم فى الاقطاع ، فحسدهم الديلم فزادت الوحشة والمنافرة عما كانت عليه بينهما (٢)

(٥) استئثار رجال الدولة بالاموال لانفسهم

اذا بلغت الدولة الى قمة ثروتها ، وانغمس الملك فى الترف والقصف ، وتقاعد عن مباشرة الاحكام بنفسه ، تحول النفوذ الى المحيطين به ، أو الذين ينوبون عنه ، أو يتوسطون بينه وبين الناس ، كالوزير ، والعامل ، والكاتب ، والحاجب ، والقائد ، وأصبح الامر والنهى فى أيديهم ، فيستأثرون بالاموال لانفسهم يجمعون منها ما استطاعوا ، فيسرفون ويبذخون على ماتقتضيه احوالهم واطوارهم . ولا يكون ذلك الا فى الدولة المطلقة التى ليس على أعمالها مراقب ولا محاسب . فمن ينوب عن الملك من الوزراء او الكتاب أو الحجاب

---

(١) ابن الاثير ٢٤٤ ج ٨ (٢) ابن الاثير ١٧٩ ج ٨

Marfat.com

فى عصر الترف والتقاعد يكون له مثل ذلك من النفوذ ، وخصوصا فى مثل الدولة العباسية ، لان وزراءها وكتابها من أمة لم تقم دولتهم الا بها ، ولم يزه تمدنهم الا بعلمائها . ولذلك كان للوزراء فى هذه الحالة الكلمة النافذة ، والسيف القاطع ، حتى فى ابان تمدنها .. اعتبر ما كان من نفوذ البرامكة فى أيام الرشيد،وما كان من احرازهم الاموال لانفسهم،حتى كان الرشيد يحتاج الى اليسير من المال فلا يقدر عليه (١) فلما غلوا يديه عما كانت تتطلبه نفسه من الترف والاستبداد (٢) نكبهم على ماهو مشهور ، كما نكب المهدى قبله وزيره يعقوب بن داود ، وكان قداستوزره وسلم اليه الامور ، وفوض اليه الدواوين ، وانشغل المهدى عنه باللهو وسماع الاغانى ، فعظم ذلك على الناس ، وخصوصا العرب ، فهجوا يعقوب ، ومن ذلك قول بشار بن برد :

بنى أمية هبوا طال نومكم ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا خلافة الله بين الناى والعود(٣)

ووشى بعض الناس الى المهدى بذلك فاستدعاه ، وقبض عليه وسجنه وظل فى سجنه أعواما طوالا

وكما اتفق للمأمون مع يحيى بن اكثم القاضى عندما عهد اليه بتدبير مملكته وأكرمه نحو اكرام الرشيد للبرامكة (٤) ولكنه لم يكن راضيا عنه لاشياء لم تعجبه منه ، ولذلك فلما دنت وفاة المأمون أوصى اخاه المعتصم قائلا : «لاتتخذن وزيرا تلقى اليه شيئا ، فقد علمت مانكبنى به يحيى بن اكثم فى معاملة الناس وخبث سيرته »(٥) . وكان العرب يكرهون الوزراء خصوصا لانهم فى الغالب من الفرس ، وكانوا يصفونهم بالجبن والبخل وقبول الرشوة .. قال اعرابى يصف وزيرا :

ومظهر نسك ماعليه ضميره يحب الهدايا بالرجال مكور
أخال به جبنا وبخلا وشيمة تخبر عنه انه لوزير (٦)

على أن الوزراء كثيرا ماكانوا يمنعون المال عن الخلفاء ضنابيت مال المسلمين أن يذهب فى الاسراف لاطمعا فيه لانفسهم ، كما اتفق للواثق مع وزيره ابن الزيات ، اذ اعجبه صوت غنته اياه جارية اسمها « علم » فأمر لصاحبها بخمسة آلاف دينار ، فمطل ابن الزيات فى دفعها فغضب الواثق وأمره ان يدفع ضعف ذلك المال ، فدفع اليه ١٠٫٠٠٠ دينار (٧)

وكان الوزراء يزدادون نفوذا واستئثارا بالمال بزيادة ضعف الخلفاء ، حتى صارت معظم الاموال اليهم

---

(١) المسعودى ٢٠١ ج ٢ (٢) الطبرى ١٣٣٢ ج ٣ (٣) الفخرى ١٦٦ (٤) ابن خلكان ٢١٧ ج ٢ (٥) الطبرى ١١٣٩ ج ٣ (٦) الطبرى ١٠٨٨ ج ٣ (٧) ابن الاثير ١٣ ج ٧

Marfat.com

الوزراء

بلغ من ثروة الوزراء ما يشـــبه ثروة الخلفـــاء أو بيت المـــال فى أيام الازدهار كأن الاموال تحولت من بيت المال الى بيوت هؤلاء الناس ، وصارت الوزارة مطمح أنظار أهل المطامع ، يبذلون الرشى ويقدمون الهدايا رغبة فيها. على أنها كثيرا ماكانت تعرض عرضا على من يقوم بنفقات الجند (١) ولكن الغالب أن تبذل الاموال فى سبيل الحصول عليها اما رأسا الى الخليفة ، كما فعل ابن مقلة اذ بذل ٥٠٠ر٠٠٠ دينار حتى استوزره الراضى فى أوائل القرن الرابع للهجرة ، وكما فعل ابن جهير اذ ابتاع الوزارة من القائم بأمر الله بمبلغ ٣٠٠ر٠٠٠ دينار (٢) ، أو بواسطة واحد من خاصة الخلفاء يستخدمونه بالمال. وهم لم يكونوا يفعلون ذلك الا لاعتقادهم أنهم يسترجعون فى أثناء وزارتهم أضعاف مابذلوه ، بما تصل اليه أيديهم من الرشوة ، من تولية العمال والنظار والكتاب وغيرهم

ومن غريب مايحكى عن ارتشاء الوزراء : أن الخاقانى وزير المقتدر بلغ من سوء سيرته فى قبول الرشوة أنه ولى فى يوم واحد ، تسعة عشر ناظرا للكوفة، وأخذ من كل واحد رشوة ، فانحدروا واحدا واحدا حتى اجتمعوا جميعا فى بعض الطريق ، فقالوا : كيف نصنع ؟ فقال أحدهم : ينبغى ان اردتم النصفة أن ينحدر الى الكوفة آخرنا عهدا بالوزير ، فهو الذى ولايته صحيحة لانه لم يأت بعده احد . فاتفقوا على ذلك فتوجه الرجل الاخير نحو الكوفة وعاد الباقون الى الوزير ففرقهم فى عدة أعمال . وهجاه بعض الشعراء بقوله :

وزير لا يمـــل من الرقاعه يولى ثم يعزل بعـــد ساعه
ويدنى من تعجـــل منه مال ويبعد من توسل بالشـــفاعه
اذا أهل الرشى صاروا اليه فأحظى القوم أوفرهم بضاعه(٣)

وكانت الاموال ترد على الوزراء من العمال وغيرهم من موظفى الدولة ، ضريبة فى كل عام بصفة هدية استبقاء لرضاهم

على أن بعضهم ، وهو نادر ، لم يكن يقبل الرشوة، ولايعمل الا بالحق، مثل عبيد الله ابن يحيى بن خاقان وزير المتوكل على الله فانه كان عفيفا ـ ذكر الفخرى ان صاحب مصر حمل اليه ٢٠٠ر٠٠٠ دينار وثلاثين سفطا من الثياب المصرية على عادته مع غيره من الوزراء ، فلما أحضرت بين يديه قـــال لوكيل صاحب مصر : « لا والله لا اقبلها ولا اثقل عليه بذلك » ثم فتح الأسفاط وأخذ منها

---

(١) ابن الاثير ٨٣ و ٨٦ ج ٨ وصلة تاريخ الطبرى ٧٩ (٢) الفخرى ٢٥٣ و ٢٦٦ (٣) الفخرى ٢٤١

Marfat.com

منديلا وضعه تحت فخذه وأمر بالمال فحمل الى خـزانة الديوان وصحح بها واخذ به دورا لصاحب مصر (١)

ومن الوزراء الذين اشـتهروا بالعفة وصـدق الخدمة على بن عيسى وزير المقتـدر ، وهو صاحب جريدة الخراج التى نشرناها فى هـذا الجـزء . ولا يخلو أن يكون غيرهم قد أخلص الخدمة ، ولكن يقال بالاجمال ان الوزراء فى عصر التقهقر العباسى قلما كانوا يتولون الوزارة الا طمعا فى اختزان الاموال. فان أبا الحسن بن الفرات وزر للمقتدر ثلاث دفعات : الأولى سنة ٢٩٦ هـ بقى فيها ثلاث سنين ، فكان مقـدار ما اجتمع عنـده من المال يسـاوى ٧ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار أخذت كلها مصادرة . ثم عاد الى الوزارة سنة ٣٠٤ ، وخلع سنة ٣٠٦ ، ثم عاد ثالثة سنة ٣١١ ، وخلع سنة ٣١٢ ، فمجموع المدة التى مكث بها فى الوزارة فى الدفعتين الأخيرتين نحو ثلاث سنوات ، فكان عنده لما خلع اخيرا ما يزيد على ١٠ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار ، وضياع يستغل منها كل سنة ٢ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار (٢) ومع ذلك لم يذكره المؤرخون بسوء لفـرط كرمه واحسـانه . وكان اذا ولى الوزارة يغلو الثلج والشـمع والكاغد لكثرة استعماله له ، لأنه ما كان يشرب أحد كائنا من كان فى داره فى الفصول الاربعة الا الماء المثلوج ، ولا كان أحد يخرج من عنده بعـد الغـروب الا وبين يديه شمعة كبيرة نقية (*) . وكان فى داره حجرة معروفة بحجرة الكاغد كل من دخلها واحتاج الى شىء منه أخذه (٣) (**) وكان يطلق لاصحاب الحديث عشرين ألف درهم ، وللشـعراء عشرين الف درهم ، ولأصحاب الادب ٢٠ر٠٠٠ درهم ، وللفقهاء ٢٠ر٠٠٠ درهم ، وللصوفية ٢٠ر٠٠٠ (٤) . وكان يجرى الرزق على خمسة آلاف من أهل العلم والدين والبيوت والفقراء ، واكثرهم تبلغ نفقته

---

(١) الفخرى ٢١٦ (٢) ابن خلكان ٣٧٢ ج ١

(*) جاء فى كتاب الوزراء لهلال الصابى (ص ١٤٢) فى وصف دار الوزير ابى الحسن بن الفرات انه كان فيها « دار كبيرة للشراب ، وفيها ماذيان يجعل فيهما الماء المبرد ويسقى منه جميع من يريد الشرب من الرجالة والفرسان والاعوان والخزان ، ومن يجرى مجراهم من الاتباع والغلمان . وكان بالدار مزملات فيها الماء الشديد البرد ، وبرسم خزانة الشراب خدم نظاف عليهم الثياب الديبقية السرية ، وفى يد كل واحد منهم قدح فيه سكنجبين او جلاب ومخوض وكوز ماء ، ومنديل من مناديل الشراب نظيف . فلا يتركون أحدا ممن يحضر الدار من القواد والخـدم السلطانيين والكتاب والعمال الا عرضوا ذلك عليه »

(٣) الفخرى ٢٤

(٤) ابن الاثير ٥٧ ج ٨

(**) جاء فى كتاب الوزراء للصابى (ص ٦٣) : « وكان فى جانب الدار ادراج كثيرة لاصحاب الحوائج والمتظلمين ، حتى لايلتزم احد منهم مئونة لما يبتاعه من ذلك ... ولما خلعت عليه خلع الوزارة زاد فى ذلك اليوم ثمن الشمع قيراطا فى كل من ، وزاد سعر القراطيس لكثرة استعماله لهما ، ولانه كان من رسمه الا يخرج أحد من داره وقت العشـاء الا ومعه شمعة منوية ودرج منصورى . وقد سقى فى داره فى ذلك اليوم والليلة أربعون الف رطل ثلجا »

ولم يكن الناس يصنعون الثلج فى ذلك الحين ، وانما كان يؤتى به من الجبال العالية فى الموصل ويلف لفا جيدا بالقماش والقطن ويحمل فى سرعة الى بغداد . وكانت نفقة الثلج لهذا عظيمة ، وخاصة فى أيام الصيف

Marfat.com

١٠٠ دينار فى الشهر ، وأقلهم خمسة دراهم وما بين ذلك (١) فغطى الكرم طمعه ، كما غطى طمع البرامكة قبله،وقطعالسنة الشعراء وكسر أقلام المؤرخين

وهناك كثيرون من الوزراء جمعوا أموالا طائلة ، وانغمسوا فى أنواع الترف والبذخ ، وذلك طبيعى فى الدول المنتظمة على الطرق القديمة (*) ، لأن الوزراء كانوا يجمعون الاموال الكثيرة حيثما كانوا فى العراق أو فى مصر أو الاندلس. فقد خلف المادرائى وزير بنى طولون بمصر من الضياع الكبار ما لم يملكه أحد قبله الا فى النادر وارتفاعها ٤٠٠ر٠٠٠ دينار كل سنة سوى الخراج ، وقد وهب وأعطى وأفضل وحج ٢٧ حجة أنفق فى كل منها ١٥٠ر٠٠٠ دينار (٢). ويعقوب بن كلس أول وزراء الفاطميين كان فى جملة أملاكه اقطاع فى الشام دخله ٣٠٠ر٠٠٠ دينار فى السنة ،وخلف أملاكا وضياعا وقياسرة ورباعا وخيلا وبغالا ونوقا وغير ذلك ما قيمته ٤ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار ، غير ما أنفقه فى تجهيز ابنته وهو ٢٠٠ر٠٠٠ دينار ، وخلف ٨٠٠ حظية سوى جوارى الخدمة ، وأربعة آلاف غلام عرفوا بالطائفة الوزيرية (٣) وخلف الافضل أمير الجيوش وزير المستنصر الفاطمى ما لم يسمع بمثله وذلك ٦٠ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار عينا (٤) و ٢٥٠ أردب دراهم ، من نقد مصر و ٧٥ر٠٠٠ ثوب ديباج أطلس ، و ٣٠ راحلة احقاق ذهب عراقى، ودواة ذهب فيها جوهر قيمته ١٢ر٠٠٠، ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال فى عشرة مجالس فى كل مجلس عشرة مسامير ، على كل مسمار منديل مشدود مذهب بلون من الألوان أيما أحب لبسه ، و ٥٠٠ صندوق كسوة ما عدا الخيل والبغال والماشية والجوارى والعبيد مما لا يحصه عد (٥) (**)

***

وقس على ذلك أحوال الوزراء فى الأندلس ، فان هدية الوزير ابن شهيد

---

(١) ابن خلكان ٣٧٢ ج ؛

(*) خذ مثلا لذلك ما يحكي عن الوزير ابى الحسن على بن الفرات الآنف الذكر ، فقد كان له فى داره مطبخان : مطبخ الخاصة ، ولا يمكن أن يحصى ما كان يدخله من الحيوان لكثرته ، ومطبخ العامة الذى يختص بما يقدم الى الحجاب المقيمين بالدار ، ويفرض منه للرجالة ، والبوابين واصاغر الكتاب وغلمان اصحاب الدواوين . وكان يقدم فى هذا المطبخ كل يوم تسعون رأسا من الغنم وثلاثون جديا ، ومئتا قطعة دجاجا سمانا ، وفراريج مصدرة ، ومائة قطعة دراجا ، ومائتا قطعة فراخا ، وهناك خبازون يخبزون الخبز ليلا ونهارا ، وقوم يعملون الحلواء عملا متصلا »

(٢) المقريزى ١٥٥ ج ٢ (٣) المقريزى ٦ ج ٢ (٤) وهو فى الاصل ستمائة ألف ألف دينار ، ولا بد أن خطأ تطرق الى نصه اذ لا يعقل أن يجتمع هذا المال عند واحد وهو يفوق مجموع خراج مصر لمائة سنة . فالارجح أن يكون المراد ستين ألف ألف دينار كما قلنا . ويستبعد أن يكون المراد دراهم بدل دنانير ، لان أموال مصر قلما قدرت بالدراهم (٥) ابن خلكان ٢٢٢ ج ١

(**) ومع ذلك فقد كان أولئك الوزراء رغم ثرائهم الطائل يبخلون بالقليل . حكى أن الاخفش النحوى المتوفى عام ٣١٥ / ٩٢٧ طلب من على بن عيسى أن يجرى عليه رزقا ، ووسط فى ذلك أبا على بن مقلة ، فانتهره على بن عيسى انتهارا شديدا فى مجلس حافل ، فشق ذلك على ابن مقلة ، وقام من مجلسه وقد « اسودت الدنيا فى عينيه ، ووقف الاخفش على الصورة فاغتم ، وقيل انه قبض على قلبه فمات »

انظر : معجم الادباء لياقوت ٢٢٤/٥ ـ ٢٢٥ ، آدم ميتز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع ، الترجمة العربية ١٢٦/١

لعبد الرحمن الناصر سنة ٣٢٧ هـ تدل على مقدار تلك الثروة ، فقد أوردها ابن خلدون والمقرى وفصلها هذا الأخير تفصيلا حسنا فى ثلاث صفحات كبيرة (١)

وحدث نحو ذلك فى الدولة العثمانية فى ابان ثروتها وبعيدها ، فكان الوزراء يقتنون الضياع الواسعة ويحتالون فى استغلالها بأن يوقفوها على بعض المساجد بشرط ان يستولى ورثتهم على معظم ريعها ليخلصوا انفسهم من خراجها أو عشورها (٢)

واما الأبواب التى كان وزراء الدولة العباسية يكتسبون منها تلك الاموال فكثيرة . من جملتها قبول الرشوة فى التوظيف كما تقدم ، وما يرد عليهم من هدايا العمال للسبب نفسه ، ومنها اغتصاب الضياع بمالهم من النفوذ فيستولون على ما شاءوا بغير حساب ، ناهيك بما كانوا يمدون اليه ايديهم من أموال الخراج الواردة الى الديوان ، وقد تقدم أن طرق دفاتر تلك الأيام لم تكن تمنع الاختلاس او تظهره

ومن أبواب الكسب أيضا أن بعض الموظفين كانوا يحتاجون الى رواتبهم ، وهم مشغولون بما هم فيه من الخدمة ، ولا سبيل لهم الى المال ، فكان بعض الوزراء يقيم من قبله أناسا يشترون توقيعات ارزاق اولئك الموظفين بنصف قيمتها ، ثم يقبضها هو كاملة (٣) وكانوا يفعلون نحو ذلك أيضا فى رواتب الفقهاء وأرباب البيوت ، فكأنهم يقاسمون الناس على انصاف رواتبهم . وهو اتجار برواتب الموظفين ، فضلا عن اتجارهم بالأرزاق وعما كانوا يكتسبونه ممن يضمن بلدا أو خراجا على سبيل الرشوة او الاقتسام ، وما كانوا يغتصبونه من التجار بنفوذهم واغضاء الخلفاء عنهم (٤) وكانوا يسمون ما يكتسبه الوزراء على هذه الصورة « مرافق الوزراء » وكانت مشهورة بين الناس . ومن مرافقهم ايضا تنقيص عيار النقود ، فكانوا يضربون الدنانير ناقصة فيربحون من ذلك مالا طائلا (٥)

***

تلك كانت حال الوزراء وفى أيديهم الحل والعقد ، ومع ذلك فالخلفاء هم المطالبون بأرزاق الجند . وقد علمت ما كان من أمر الأتراك واستبدادهم بالخلفاء ومطالبتهم بالاموال لارزاقهم ونفقاتهم ، فلم يكن يرى الخلفاء سبيلا الى ذلك الا بمطالبة الوزراء ، فاذا لم يدفعوا اخذوا المال منهم بالقوة وهو

---

(١) نفح الطيب ١٦٨ ج ١ (٢) Porter's Const. Hist. of Turkey Ms.
(٣) ابن الاثير ٨٤ ج ٨ (٤) الطبرى ٧٠٣ ج ٣ (٥) ابن الاثير ١٤٩ ج ٨

Marfat.com

ما يعبرون عنه بالمصادرة . وكانت رائجة فى عصر التقهقر ، اذ لم يكن من سبيل الى سد نفقات الدولة الا بها ، ولا يكاد يتولى وزير الا انتهت وزارته بالمصادرة أو بالقتل أو بهما جميعا (*).

المصادرة

هى قديمة فى الاسلام تتصل بعصر الراشـــدين ، وكان العمـــال أول من وقعت عليهم المصادرات ، فكانوا اذا اكتسبوا مالا من تجارة أو سبيل آخر غير مرتباتهم المفروضة أخذ الخلفاء نصفه واضافوه الى بيت المال ــ كذلك فعل عمـــر بن الخطاب بعماله على الـكوفة والبصرة والبحـــرين (١) وكانوا يسمون ذلك مقاسمة أو مشاطرة . فلما افضت الامور الى بنى أمية وكان

(*) مرت الوزارة أيام العباسيين فى ادوار تكاد توازى ادوار تاريخ الخلافة العباسية نفسها. الدور الاول يبدأ من أيام أبى جعفر المنصـــور فقد استوزر أبا سلمة الخلال ، وكان رجلا قويا ذا شخصية ظاهرة ورأى فى خلافة بنى العباس ، وقد قتله المنصور خوفا منه . وطالما كان هناك خلفاء أقوياء ، فقد كان هناك وزراء أقوياء أيضا ، بل بلغ من قوتهم أن خافهم الخلفاء ، وأصبح الصراع على الحكم بين الوزراء والخلفاء هو الطابع المميز للحالة السياسية الداخلية للدولة حتى نهاية أيام المعتصم .

وابتداء من خلافة المنتصر (٨٦١/٢٤٧ ــ ٨٦٢/٢٤٨) تدخل الوزارة فى دورها الثانى ، فيجعل محل كبار الوزراء ذوى الثقافة العالية والشخصية القوية وزراء لايمتازون بكفاية حقيقية أو قدرة ظاهرة ، وقد عجزوا جميعا عن علاج المشكلة الرئيسية التى واجهت الدولة العباسية من ايام المتوكل (٨٤٧/٢٣٢ ــ ٨٦١/٢٤٧) وهى المشكلة المالية . ويظهر هذا الانتقـــال بصورة واضحة جدا فى انتقال الوزارة من عبيـــد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل الى أحمـــد بن الخصيب وزير ابنه المنتصر ، فقد كان ابن خاقان رجلا لا بأس بقدرته ، قال الفخرى : « كان عبيد الله حسن الخط ، وله معرفة بالحساب والاستيفاء ، الا أنه كان مخلطا مجدودا ، فكانت سعادته تغطى عيوبه ، وكان كريما حسن الاخلاق ، وكان كرمه أيضا يستر كثيرا من عيوبه ، وكان فيه تعفف » . فاذا انتقلنا الى احمد بن الخصيب وجدناه « مقصرا فى صناعته ، مطعونا عليه فى عقله ، وكانت فيه مروءة وحدة وطيش ،فمن احتمله بلغ منه ما أراد » كما يقول الفخرى . ولم يكن من أتى بعد ابن الخصيب احسن منه بكثير ، حتى على بن الفرات وعلى بن عيسى لم يتصفا بالصفات الحقيقية التى كانت الوزارة تستلزمها . ثم انهما لم يكونا اكثر أمانة من غيرهما على أموال الدولة . وتكاد الخيانة المالية أن تكون الصفة المشتركة بين وزراء هذا العهد جميعا مما هون أمرهم على الناس والجند خاصة ، فجرءوا عليهم حتى ضربوهم ضرب الموت كما حدث لابى جعفر احمد بن اسرائيل وزير المعتز (٨٦٦/٢٥٢ ــ ٨٦٦/٢٥٥)

وابتداء من ايام بنى بويه (ابتداء من ٩٣٢/٣٢٠) تسقط هيبة الوزراء تماما ، ويصبحون مجرد خدم للامراء فى شئون الكتابة . وربما كانت وزارة ابى جعفر محمد بن القاسم الكرخى وزير الراضى (٩٣٤/٣٢٢ ــ ٩٤٠/٣٢٩) كالرمز الى ذلك التحول ، فقد « كان قصيرا جدا ، فى غاية القصر ، فاحتاجوا أنهم قطعوا من سرير الخلافة اربع أصابع حتى يتمكن الكرخى الوزير من مشاورة الخليفة ، وتطير الناس من ذلك ، وقالوا : هذا مؤذن بنقض الدولة ، فكان الامر كما قالوا عليه ، واختلفت الاحوال ، واضطربت الامور لديه فاستتر . قالوا انه لما اراد الاستتار قلع راس مزملة (زير) وجلس فيها ، واخرجت المزملة على انها مزملة ، وهو فى وسطها ، وما زال مستترا حتى ظهر وصودر ثم تخلص » (الفخرى ، ص ٣٠٧) . وهى صورة فكهة ، ولكنهـــا فكاهة محزنة كهذه التى تكثر فى أيام الانهيار . وعقب وزارة الكرخى هـــذا ظهر عجز الوزراء بصورة واضحة مما اضطر الراضى الى استدعاء ابن رائق وتسليم الامور اليه وتلقيبه اياه بأمير الامراء . ومنذ ظهور امراء الامراء تلاشت نهائيا اهمية الوزراء فى الدولة العباسية

(١) اليعقوبى ١٨١ ج ٢ والبلاذرى ٢٨٣و٢٨٥

Marfat.com

ماكان من استبداد عمالهم وطمعهم فى أموال الجباية ، أصبح الخلفاء فى أواخر الدولة لايعزلون عاملا عنعمله الا حاسبوه على ما عنده من المال، واستخرجوا ما تصل اليه أيديهم ، وكانوا يسمون ذلك « استخراجا »

ولما تسنم العباسيون منصة الخلافة كان معظم العمال فى أوائل الدولة من اخوتهم وأعمامهم ، ولم يكن ثمة ما يدعو الى الاستخراج أو المقاسمة ولو ساءت سيرة بعضهم . ثم انتقلت الاعمال الى رجال الدولة من غير أهلهم ، فجنح العمال الى الطمع والعنف فى استخراج الاموال ، فعمد الخلفاء الى مصادرة أموالهم لاسترجاع ما استولوا عليه من غير وجه الحق . حتى فى أيام المنصور ، فكان لا يعزل عاملا الا قبض ماله وتركه فى بيت مال مستقل سماه « بيت مال المظالم » (١) . وتكاثر تعدى العمال فى أيام المهدى (سنة ١٥٨ ــ ١٦٩ هـ) فاضطر هذا الخليفة الى النظر فى المظالم ــ وما هى الا مظالم العمال . ثم نظر فيها بعده الهادى فالرشيد فالمأمون الى المهتدى فى أواسط القرن الثالث

ومما نبه الخلفاء الى مظالم العمال أن الوزراء كانوا يباشرون الاعمال نيابة عن الخلفاء ، وكان هؤلاء يستشيرونهم فيمن يولونه من العمال ، فربما استمعوا اليهم وربما خالفوهم . وخصوصا البرامكة فانهم كانوا اذا استشارهم الخليفة فى ولاية عامل بينوا له ما يعلمونه من أمره ، ويتركون الامر للخليفة بعد ذلك يقضى فيه بما يريد . ومن هذا القبيل ان الرشيد استشار وزيره يحيى بن خالد فى تولية على بن عيسى بن ماهان على خراسان فأشار عليه ألا يفعل ، فخالفه الرشيد وولاه اياها . فلما شخص على اليها ظلم الناس وجمع مالا كثيرا ووجه الى الرشيد هدايا من الخيل والرقيق والثياب والمسك والاموال لم ير مثلها قط . فلما وصلت الهدايا الى الرشيد أعجب بها وكان يحيى الى جانبه فقال له الرشيد : « يا أبا على .. هذا الذى أشرت علينا الا نوليه هذا الثغر ، فقد خالفناك فيه فكان فى خلافك البركة ! » فقال : « يا أمير المؤمنين ، جعلنى الله فداءك ... انا وان كنت أحب أن أصيب فى رأيى وأوفق فى مشورتى ، فانى أحب أن يكون رأى أمير المؤمنين اعلى وفراسته اثقب وعلمه اكثر من علمى .. ان لم يكن وراء ذلك ما يكره .. أن هذه الهدايا ما اجتمعت لهذا العامل حتى ظلم فيها الاشراف ، وأخذ أكثرها ظلما وتعديا . ولو أمرنى أمير المؤمنين لأتيته بضعفيها الساعة من بعض تجار الكرخ »

قال الرشيد : « وكيف ذلك ؟ » قال : « قد ساومنا عونا على السفط

---

(١) الطبرى ٤١٥ ج ٣

Marfat.com

الذى جاء به من الجوهر فأعطيناه به ٧ر٠٠٠ر٠٠٠ فأبى أن يبيعه ، فابعث اليه الساعة بحاجبى يأمره أن يرده الينا لنعيد فيه نظرنا ، فاذا جاء به جحدناه وربحنا ٧ر٠٠٠ر٠٠٠ . ثم كنا نفعل بتاجرين من كبار التجار مثل ذلك » (١) . وفى كلام يحيى دليل صريح على ما كان يستطيعه الوزراء والعمال من جمع الاموال بلا حساب (*)

وقد رأيت ان الطمع تطرق الى العمال ، حتى فى أيام الزهو العباسى ، ولكن البرامكة أخلصوا المشورة فغلوا أيدى العمال عن الظلم . فلما نكب البرامكة كان فيمن جاء بعدهم من الوزراء المخلص وغير المخلص ، فأطلقت أيدى العمال وأحرزوا الأموال لانفسهم ، وكانوا يسترضون الوزراء بالرشوة كما تقدم ، حتى استفحل أمرهم واكتنزوا الاموال الطائلة

---

(١) الطبرى ٧٠٢ ج ٣

(*) الخبر كما هو وارد فى الاصل مختصر كما هو واضح ، وقد بحثت عنه فى الطبعة التى بين يدى من الطبرى فلم أجده لاكمله منه . ويكفى ان نذكر هنا ان اشارة يحيى الاخيرة كانت الى سفط جوهر كان قد بعث به عون الجوهرى الى الرشيد ليشتريه ، فعرض الرشيد عليه سبعة ملايين درهم ، فرفض الرجل واخذ السفط ومضى . وقد أشار يحيى بن خالد الى أنه من الممكن للوزير ان يستولى عليه دون ثمن ، بأن يطلب السفط ثم ينكر ثمنه ، فلا يستطيع الرجل شيئا . والاشارة هنا الى ماكان على بن عيسى بن ماهان يفعله فى خراسان ليحصل على المال من الناس ظلما ، فيرسل الى الرشيد منه شيئا طائلا يجعله يلهج بذكره وقدرته

وقد فصل محمد بن عبدوس الجهشيارى اسلوب على بن عيسى بن ماهان فى ادارة خراسان فى خبر رواه ، قال : « وكان الرشيد بعد صرف الفضل بن يحيى عن خراسان قلد على بن عيسى بن ماهان ، لتكثير وقع عنده على الفضل فى الاقوال ، فقتل على بن عيسى وجوه أهل خراسان وملوكها ، وجمع أموالا جليلة ، فحمل الى الرشيد الف بدرة مختومة من ألوان الحرير ، وفيها عشرة آلاف الف درهم ، فلما وصلت اليه سر بها ، وأحضر يحيى بن خالد ، فقال له : يا أبه ، أين كان الفضل عن هذا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين، ان خراسان سبيلها ان تحمل اليها الاموال ، ولا تحمل منها ، والفضل اصلح نيات رؤسائها ، واستجلب طاعتهم ، وعلى بن عيسى قتل صناديد أهل خراسان وطراختنها (جمع طرخان وهو الرئيس) وحمل أموالهم ، ولو قصدت لدرب من دروب الصيارف بالكرخ ، لوجدت فيه أضعاف هذه . وسينفق أمير المؤمنين مكان كل درهم منها عشرة » . فثقل هذا القول منه على الرشيد ، فلما انتقض أمر خراسان ، وخرج رافع ابن الليث ، واحتاج الى النهوض اليها بنفسه ، حتى صار الى طوس ، جعل يتذكر هذا الحديث ، ويقول : « صدقنى والله يحيى ونصح لى ، فلم اقبل منه . والله لقد انفقت مائة ألف ألف درهم وما بلغت شيئا »

كتاب الوزراء والكتاب، تصنيف أبى عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى (نشر السقا والابيارى وشلبى) القاهرة ١٩٣٨ ص ٢٢٨

وانظر عن الوزارة والوزراء غير ماذكره المؤلف وما ذكرناه فى التعليقات :

Geiger Kuhn, Grundriss der Arabische Filologie 1, 2, 48, 91, 181.
J. Wellhausen, Das arabische Reich und sein strutz. p. 81

الماوردى : كتاب أدب الوزير ، القاهرة ١٩٢٩

ابن الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة

خليل الظاهرى : زبدة كشف الممالك ، طبعة رافيس ، باريس ١٨٨٤ ص ٨٤

H. Bowen, The good vizier Ali ibn Isa. Cambridge 1928

والمادة التى كتبها فرانتس بابنجر Franz Babinger عن لفظ وزير فى دائرة المعارف الاسلامية

Marfat.com

العمال

وغنى العمـال ميسـور فى تلك العصور بالنظـر الى اسـتقلالهم فى ادارتهم وشؤونهم ، وخصوصاً عمل الاسـتيلاء الفوضـوى فى كل شىء . وأبواب الكسب عندهم كثيرة : منها أن العامل اذا جاء فأول شىء يتوقعه أن يحمل اليه الناس الهدايا ، وفيها من الدواب والجـوارى والاموال والثيـاب ما يبلغ مقداره شيئا كثيرا (١) وقد يترك ذلك فى مقابل ما يقدمه العمال من أمثال هذه الهدايا الى الخليفة أو الوزير أو القهرمانة او الكاتب او الحاجب او غيرهم من حاشية الخلفاء (٢) على أنهـم كانوا يكسبون من مصـادر أخـرى كالاتجار بأصناف البضائع والاخشاب وغيرها (٣) ناهيك بماكانوا يخترعونه من صنوف الضرائب وتحصيل بعضها مرتين أو ثلاث مرات ، تبعا لما تقتضيه حاجتهم الى المال فى ارضاء الوزراء ، أو لادخاره والانتفاع به عنـد الاعتزال من المنصب . ومن اوسع ابواب الضرائب كسبا لهـم المكوس على التجارة . فقد ذكر المقدسى أن ثلث أموال تجار اليمن كان يذهب الى السـلطان (٤) وكانوا يأخذون على حمل الحنطة هناك نصف دينار

ومن أبواب الكسب للمال ان ينفق العـامل على بناء بيت او جسر او على حفر ترعة أو نهر ألف دينـار مثـلا ، ويطالب بعشرة آلاف أو مائة ألف ، وربما قدروا ما ينفقون فيه عشرة دنانيربستين ألفدينار(٥)فضلا عناغتصاب الضياع وغيرها (٦) وما قد يجتمع لهم من فروق الاموال التى يقبضونها من الخراج بين الفضة والذهب .. فهل من عجب بعد ذلك اذا بلغت اموال محمد ابن سليمان عامل الرشيد على البصرة ٥٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم ، سوىالضياع والدور والمستغلات ؟ وكان محمد هـذا يغل كل يوم ١٠٠ر٠٠٠ درهم (٧) وبلغت أموال على بن عيسى بن ماهان ٨٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم (٨) ، فـلم ير الرشيد الا الجنوح الى الاستخراج وهو المصادرة

***

وكان الغالب فى بادىء الرأى أن يقبضوا أموال العمال بعد موتهم ، كما فعلوا بمحمد بن سليمان المذكور ، ثم صاروا يستخرجون اموالهم وهماحياءكما فعل الرشيد بعلى بن عيسى ، فانه عزله واستصفى أمواله المذكورة ، وحملها

---

(١) ابن الاثير ٥١ ج ٦
(٢) Ein. Abb. 80
(٣) المقريزى ١٠٩ و ٢٣٢ ج ١
(٤) المقدسى ١٠٤
(٥) Ein Abb. 76
(٦) الماوردى ٧٨
(٧) المسعودى ١٨٨ ج ٢
(٨) الطبرى ٧١٢ ج ٣

Marfat.com

مع خزائنه وأثاثه على ١٥٠٠ جمل ، غير ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم كان ابنه عيسى ابن على قد دفنها فى بستان بداره فى بلخ (١)

مصادرة الوزراء

على أن مصادرة العمال لم يطل أمرها لاستقلالهم بأعمالهم بعد قليل ، فأصبح المطلوب منهم لبيت المال فى الغالب مالا معينا فى العام على سبيل الضمان ونحوه • وتحولت الثروة المغتصبة الى الوزراء ، وفسدت النيات فلم يجد الخلفاء سبيلا لسد عوز بيت المال الا بمصادرتهم — وكان الخلفاء لا يرون فى ذلك جورا ولا شدة لاعتبارهم ما فى أيديهم مختلسا من حقوق بيت المال

بدأت مصادرة الوزراء فى الدولة العباسية من أولها ، ولكنها كانت فى أول الامر على سبيل النكبة ، والغرض منها الانتقام من الوزير لجريمة سياسية او للتخلص منه لغرض آخر • ومن هذا القبيل مقتل أبى سلمة الخلال أول وزراء بنى العباس ، فبعد أن أيد دعوتهم بأمواله كما أيدها أبو مسلم الخراسانى بسيفه وشى الى السفاح أنه ينوى اخراج الدولة من أيديهم ، فأوعز الى أبى مسلم فقتله ، ثم أصاب أبا مسلم من المنصور مثل تلك النكبة — ويقال نحو ذلك فى نكبة البرامكة فى أيام الرشيد ، والفضل بن مروان فى أيام المعتصم • وفى نكبة الفضل هذا رغبة فى قبض أمواله لأن المعتصم نكبه سنة ٢٢١ هـ وأخذ من داره ١٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار ، وأثاثا وآنية قيمتها ١٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار (٢) ولما تمكن الاضمحلال من الدولة صار الغرض من مصادرة الوزراء مجرد الاستحواذ على أموالهم

***

وبلغت المصادرة معظمها فى أيام المقتدر (سنة ٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) لان الوزراء استخفوا به لصغر سنه وأفضى تدبير الامور فى صدر ايامه الى أمه ونسائه وخدمه • فكانت دولته تدور أمورها على تدبير النساء والخدم ، فخربت الدنيا وخلت بيوت الاموال وخلع وأعيد ثم قتل (٣) وكثر تبديل الوزراء فى أيامه وكثرت مصادراتهم • وأولهم ابن الفرات ، وزر له ثلاث مرات ، وقد تقدم ذكر ما احتشده من الاموال وقد صودر ، فأخذت كلها منه . وخلفه الخاقانى وكان سىء السيرة كما تقدم • ثم على بن عيسى ، وكان فاضلا ورعا حاول

---

(١) ابن الاثير ٨١ ج ٦
(٢) ابن خلكان ٤١٥ ج ١
(٣) الفخرى ٢٣٦

اصلاح الامور فلم يستطع لتمكن الفساد من عروق الدولة (*) ثم حامد بن عباس وكان قاسى القلب فى استخراج الاموال • ووزر له أبو على محمد بن عبيد الله الخاقانى وأحمد بن عبيد الله احمد بن الخصيب . ومحمد بن على بن مقلة صاحب الخط الحسن المشهور • وسليمان بن الحسن بن مخلد • وعبيد الله بن محمد الكلوذاتى . والحسين بن القسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب (١) وما من وزير الا وقبض أو صودر فأخذت امواله وسجن او قتل . وكثرت المصادرات فى أيام المقتدر لغير الوزراء حتى القضاة والنساء والخدم• وربما زاد مجموع ما قبضه من المصادرة على ٤٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار ــ على أنهم قدروا جملة ما أنفقه من الاموال تبذيرا وتضييعا فى غير وجه نيفا و ٧٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار ، سوى ما أنفقه فى الامور غير الواجبة (٢) وقس على ذلك أحوال سائر الوزراء

فأصبحت المصادرة بتوالى الايام المرجع الرئيسى فى تحصيل المال •• فالعامل يصادر الرعية ، والوزير يصادر العمال ، والخليفة يصادر الوزراء ويصادر الناس على اختلاف طبقاتهم .. على أن الخلفاء لم يكونوا يعمدون الى المصادرة الا عند حاجتهم الى المال لأرزاق الجند أو لغيرها من نفقات الدولة ، كما تعمد دول أوربا اليوم الى عقد القروض لسد ما يعرض لها من النفقات اللازمة لحرب أو مشروع كبير

وكان الخلفاء يعتبرون أموال أولئك الوزراء أو العمال حقا لبيت المال قد اغتصبوه ،فاسترجاعه لا يعد جورا أو اجحافا • وقد نجاهم ذلك من أثقال الدين الاهلى الذى تئن تحت عبئه معظم دول العالم المتمدن اليوم ، فيذهب نحو ربع دخلها أو ثلثه فى وفائه أو استهلاكه ، وتضطر الى استنباط الضرائب من أجل ذلك ، حتى أصبحت تلك الدول وخصوصا انجلترا تكلف الناس جعلا على كل عمل يرجون به كسبا

(*) جاء فى كتاب الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع لآدم ميتز (الترجمة العربية جـ١ ص١٢٧): « ولكن على بن عيسى مع تقواه هذه وتدقيقه فى الامور الصغيرة لم يصدق الخليفة حينما راسله ليقر له بما عنده من اموال ، فكتب له يذكر أنه لايقدر على اكثر من ٣ آلاف دينار ، هذا وقد وجد له بعد ذلك عند رجل سبعة عشر ألف دينار ، ولما ضيقوا عليه استجاب أخيرا الى دفع ٣٠٠ الف دينار ، يعجل منها الثلث فى ثلاثين يوما ، ويؤدى الباقى على رسم المصادرات (كتاب الوزراء للصابى ٢٦٠ ، ٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٢٩٥ ، ٣٥١) وكان على بن عيسى يوبخ أبا عبد الله البريدى لانه حلف للسلطان ان استغلال ضيعته عشرة آلاف دينار ، وهو فى الحقيقة ثلاثون ألفا ، فقال البريدى انه اقتدى بعلى بن عيسى حيث حلف لابن الفرات ان ارتفاع ضيعته عشرون الفا ، فوجد بعد ذلك انه خمسون ألفا ، فكأنه ألقم على بن عيسى حجرا (تجارب الامم لمسكويه • طبعة أمدروز ، جـ ٥ ص ١٩٧ ــ ١٩٨) فلم يكن هذا الوزير نقى اليد تماما ، وقد فرط فى تضمين الشام ومصر ، وترك مالا معجلا الى مال مؤجل ، لايدرى مايجرى فيه ، وقد واجهه خصومه بذلك ، فلم يستطع أن يبرر هذا التصرف » (كتاب الوزراء للصابى ص ٢٩٠)

(١) الفخرى ٢٣٩ ــ ٢٤٩ (٢) ابن الاثير ٩٠ ج ٨

Marfat.com

الكتاب

وهنـــاك فئات أخـرى من موظفى الدولة كانوا يستأثرون بأموالهـا ، ومنهم كتاب الخراج ويهون ذلك عليهم لأنهم يباشرون مصادر الجباية رأسا • وقد كانوا يطمعون فى تلك الاموال فى أيام بنى أمية فما بعدها • ولكنهم لم يشع أمرهم ويخش شرهم الا فى عصر التقهقر العباسى • فأمر الواثق سنة ٢٢٩ هـ بحبس الكتاب والزامهم مالا كثيرا استخرجه منهم بالعنف (١) وفعل نحو ذلك المعتز سنة ٢٥٥ هـ (٢) . ومن الكتاب الذين اشتهروا بالغنى من مهنة الكتابة بيت المادرائى بمصر (٣) (*)

ولم يكن الغنى خاصا بكتـاب الدواوين ، بل كان يتناول كل كاتب من كتاب أهل الخلفاء وغيرهم • وكانت أكثر أموالهم تؤخذ بالرشوة والاختلاس، حتى اشتهروا بالظلم كما اشتهر الوزراء وهجاهم الشعراء كما هجوا هؤلاء ـ من ذلك قول بعضهم وهو يمدح أحد الامراء بالحزم والسـهر على مصلحـة الدولة :

هو ما علمت من الامير فما الذى ... تزداد منـــه وفيـــه لا يرتاب
لا تتقى الأجنـــاد فى أيامـــه ... فقرا ولا يرجو الغنى الـكتاب

وقال ابن حبيبات الشاعر الكوفى يهجو الوزير والكاتب معا :

ونجا خالد بن برمك منهـــا ... اذ دعوه من بعـــدها بالامـير
أســـوأ العـــالمين حالا لديهم ... من تسمى بـكاتب أو وزير (٤)

وكان من أبواب الكسب عند الكتاب ارتشاؤهم للتوسط فى تولية العمال أو سواهم ، كما فعل أحمد بن أبى خالد الاحول كاتب المأمون فى توسـطه لدى المأمون بتولية طاهر بن الحسين خراسان ، وقد شرط له على نجاحه فى ذلك ٣ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم (٥) وكان كتاب الدواوين فى الولايات يشـــاركون العمال فيما يأتيهم من الهدايا ، أو من الرشوة وقد يقاسمونهم على النصف(٦)

الحجاب

وكانت ثروة المملكة عرضـــة لطامع كل من كانت له دالة أو وســاطة لدى ولاة الامر ، وخصوصا الحجاب الذين يقفون بأبواب الخلفاء فانهـم من

---

(١) الطبرى ١٣٣٠ ج ٣ (٢) ابن الاثير ٨٥ ج ٧ (٣) المقريزى ٣٣١ ج ١

(*) يبدو أن استخراج الكتاب لاموال الناس فى سبيل قضاء مصالحهم لدى الدولة كان امرا طبيعيا لا يتنافى مع الامانة الادارية فى ذلك العصر . جاء فى سيرة الوزير أبى على محمد بن على ابن مقلة : « .. ثم انه تعلق بأبى الحسن بن الفرات الوزير ، واختص به ، وكان ابن الفرات كالبحر، سماحا وجودا ، فرفع من قدره ، وأعلى من شأنه ، فمكث بين يديه يعرض رقاعا فى مهمات الناس ، وينتفع بسبب ذلك ، وكان ابن الفرات يأمره بالتحصيل من هذه الجهة ايثارا لنفعه ، فمازال على ذلك حتى علت حاله وكثر ماله ... »
ابن طباطبا : الفخرى ، ص ١٩٩ ـ ٢٠٠

(٤) الفخرى ١٥٨ (٥) اليعقوبى ٥٥٤ ج ٢ (٦) المقريزى ٩٩ ج ١

Marfat.com

أكثر الناس دالة عليهم ، فكانوا كثيرا ما يستخدمون تلك الدالة واكتساب الاموال من تقديم الداخلين أو تأخيرهم والاذنلهم أو منعهم ، فكانوا يرتشون للتعجيل فى الاذن بالدخول على الخلفاء ، وكان ذلك شأنهم حتى فى عصر الراشدين ــ قال المغيرة بن شعبة : « ربما عرق الدرهم فى يدى ارفعه ليسهل اذنى على عمر » (١) وكثيرا ما كانوا يتوسطون فى تولية المناصب بالرشوة ، كما توسط الربيع حاجب المنصور ليعقوب بن داود بمنصب الوزارة برشوة مقدارها ١٠٠ر٠٠٠ دينار (٢) ، ويقال نحو ذلك فى كل من يتوفق الى دالة على الخليفة أو الامير ولو كان خادما (*)

الخلاصة

وخلاصة ما تقدم أن الدولة العباسية لما غلب الجند على أمرها واستبد قواد الاتراك بها ، تحولت ثروتها من بيت مالها الى أيدى رجالها ممنينوبون عن الخليفة أو يتوسطون بينه وبين الرعايا ، كالعمال ، والوزراء ، والكتاب ، والحجاب ، ونحوهم • وأصبح الخلفاء لا يستطيعون استبقاء حكومتهم الا باغتصاب أموال أولئك الموظفين ، فكانوا كالذى يغتذى بأكل لحمه فآل ذلك الى انحلال أمر الخلافة بعد أن بلغت غاية الضعف

وقد يتبادر الى الاذهان أن لثقل الضرائب دخلا كبيرا فى سقوط الدولة العباسية ، وقد رأيت أن الضرائب كانت ثقيلة فى عصر الازدهار العباسى ــ عصر الثروة والعلم ولم يكن الناس يشكون ثقلا ، بل ساءت حالهم منذ خفضت الضرائب ــ ولم يكن ذلك لأن تخفيض الضرائب يسوء الناس ، ولكن تخفيضها فى تلك الايام قلل مصادر الثروة الواردة الى بيت المال فزادت حاجة أصحاب

---

(١) الاعلاق النفيسة لابن رستة ١٩٥ ج ٧ (٢) الفخرى ١٦٦

(*) يبدو أيضا أن حصول الحجاب على الاموال من الناس لقاء تسهيل الاذن على الخلفاء كان أمرا عاديا لاينكره هؤلاء . روى الطبرى فى أخبار الرشيد أنه أراد أن يشرب الدواء يوما ، فقال ابن ابى مريم (المضحك) : « هل لك ان تجعلنى حاجبا غدا عند أخذك الدواء ، وكل شىء اكسبه فهو بينى وبينك ؟ » قال : « افعل » فبعث الى الحاجب : الزم غدا منزلك ، فانى قد وليت ابن أبى مريم الحجابة . وبكر ابن ابى مريم، فوضع له الكرسى ، واخذ الرشيد دواءه ، وبلغ الخبر بطانته . فجاء رسول أم جعفر (البرمكى) يسأل عن أمير المؤمنين وعن دوائه ، فأوصله اليه وعرف حاله ، وانصرف بالجواب ، وقال للرسول : اعلم السيدة ما فعلت فى الاذن لك قبل الناس ، فأعلمها ، فبعثت اليه بمال كثير ، ثم جاء رسول يحيى بن خالد ، ففعل به مثل ذلك ، ثم جاءه رسول جعفر والفضل ، ففعل كذلك ، فبعث اليه كل واحد من البرامكة بصلة جزيلة . ثم جاء رسول الفضل بن الربيع ، فرده ، ولم يأذن له ، وجاءت رسل القواد والعظماء ، فما أحد سهل اذنه الا بعث اليه بصلة جزيلة ، فما صار العصر حتى صار اليه ٦٠ ألف دينار . فلما خرج الرشيد من العلة ونقى بدنه من الدواء دعاه ، فقال له : « ماصنعت فى يومك هذا ؟ » قال : « ياسيدى ، كسبت ٦٠ الف دينار » فاستكثرها وقال : «واين حاصلى؟» قال : « ممزول » قال : « قد سوغناك حاصلنا ، فأهد الينا ١٠ آلاف تفاحة »، ففعل ،فكان أربح من تاجره الرشيد »

الطبرى (القاهرة ١٩٣٩) ٦/ ٥٣٢ ــ ٥٣٣

Marfat.com

لمطامع من رجال الدولة ، وكانت الاحوال قد اختلت بفساد النيات للأسباب التى ذكرناها ، فزال الأمن واختل النظام العام ، فتقاعد الناس عن العمل وقلت ايراداتهم وعجزوا عن اشباع مطامع رجال الدولة ، فعمد هؤلاء الى العنف فى استخراج الاموال ، فتعاظم الاضطراب وتضاعف الضيق فى الناس حتى سئموا الحياة فى دولة لا يأمنون فيها على أرواحهم ولا أموالهم

ولو كانت كثرة الضرائب تخرب الممالك لكانت انجلترا من أقرب الدول الى الخراب ، لما فيها من أصناف الضرائب التى لم يحلم بها العرب ولا خطرت ببالهم . لأنها فضلا عن ضرائبها على المحصولات والواردات على اختلاف أصنافها ، تقاسم الناس أرباحهم فتأخذ ضريبة على الايراد وجعلا على أية مهنة يريد الناس تعاطيها حتى المحاماة والطب فى مقابل الاذن لهم فى الاشتغال بها . والجعل المذكور ثقيل يختلف فيمن ينال أية رتبة من رتب القضاء من خمسين جنيها الى عشرين . وقس على ذلك رسوم الاطباء والصيادلة والمحامين حتى الخطباء والوعاظ ، وهناك ضرائب أخرى على معاملات المصارف وعلى أوراقها وعقودها وعلى الزواج والطلاق ، وغير ذلك فيجتمع لها من هذه الرسوم أموال كثيرة

وأما ضرائب الايراد عند الانجليز فانها تشمل كل عمل يتكسب منه الناس حتى الوعاظ والخطباء ، فكيف بأصناف التجارات والصنائع والبنوك وغيرها ؟ والدولة الانجليزية كلما احتاجت الى مال عدلت ميزانيتها بزيادة الضرائب وخصوصا على الايراد ، وأكثر ما تكون حاجتها الى المال فى حالة الحرب كما فعلت بميزانية سنة ١٩٠١ فى أثناء حرب الترنسفال ، فقد قدرت دخلها لذلك العام بمبلغ ١١٧ر٠٠٠ر٠٠٠ جنيه وخرجها بمبلغ ١٥٤ر٠٠٠ر٠٠٠ والفرق بينهما ٣٧ر٠٠٠ر٠٠٠ سددت معظمه بزيادة الضرائب ، وكانت ضريبة الايراد ثمانية بنسات على الجنيه أى نحو ٣ وثلث فى المائة ، فجعلتها شلنا فى كل جنيه أى خمسة فى المائة ، فكان مقدار ما اجتمع لها من تلك الزيادة نحو ٩ر٠٠٠ر٠٠٠ جنيه . وفرضت ضريبة اضافية على البيرة بلغت حصيلتها ١ر٧٥٢ر٠٠٠ جنيه ، وضريبة على سائر الخمور حصيلتها ١ر٠١٥ر٠٠٠ جنيه ، وعلى التبغ ١ر١٠٠ر٠٠٠ ، وعلى الشاى ١ر٨٠٠ر٠٠٠ جنيه وغير ذلك ، فلما انقضت الحرب عمدت الحكومة الى رفع تلك الاضافات ، فخفضت ضريبة الايراد أربعة بنسات أى أنها أرجعتها الى ما كانت عليه ، فقلت حصيلة الحكومة من الايراد ٨ر٥٠٠ر٠٠٠ جنيه ، وخفضت أيضا ضرائب القمح وغيره

وجملة القول أن انجلترا مع كثرة ضرائبها وما اثقل كاهلها من الديون ، فانها تعد من أثبت الدول قدما وأوفرها ثروة . فتخفيض الضرائب لا شك

Marfat.com

أنه رحمة للناس ، ولكن زيادتها لا تدعو الى الخراب ، وانما يدعو الى خراب الممالك « الظلم » ٠٠ فانه يقوض أركان الدول بما يدعو اليه من تقييد الايدى عن العمل فيقعد الزارع عن زراعته ، والتاجر عن تجارته ، والصانع عن صناعته ــ ولا مال الا اذا اشتغل هؤلاء ، ولذلك قالوا : « العدل أساس الملك ! »

فالدولة العباسية لما أصبحت بعد المعتصم غنيمة للأجناد الغرباء يحملون أموالها الى بلادهم ، وأصبح الوزراء والعمال انما يعملون لحشد الاموال ، وأمسى الخليفة لا سلطان له حتى فى قصره ، وبين غلمانه وجواريه، تجمعت تلك الأثقال على رؤوس الرعية ، لأن الجباية منهم ، فطالبوهم بها بدون ان يساعدوهم على استغلالها فساءت حالهم كما علمت ٠ أما دول هذه الايام فأساس نظامها الحرية الشخصية ، والمبادىء الاقتصادية ، فلا يطالب أحد من الناس الا بما يقتنع هو أنه حق صريح ، والا فانه يتظلم وظلامته مسموعة ــ وسنعود الى هذا البحث فى بعض الأجزاء التالية

Marfat.com

ثروة المملكة العباسية

أى البلاد وأهلها

فرغنا من الكلام فى ثروة الدولة (الحكومة) العباسية ورجالهـا ، وبقى علينا النظر فى ثروة المملكة ، وهى البلاد بما فيهـا من الناس على اختـلاف طبقاتهم من أهل التجارة والزراعة والصناعة وغيرهم • وكانت البلاد قسمين: المدن ، والقرى : (*)

المدن

كانت المدنية محصورة فى المدن دون القرى ، عملا بقاعدة التمدن فى تلك **الايام** ، وهى أن تكون الثروة والابهة حيثما يكون ولاة الامر ، ومن يلوذ بهم ، من الخليفة وآل بيته فرجال بلاطه فعماله ووزرائه • وهؤلاء كانوا يقيمون فى المدن وخصوصا العواصم ، ولذلك عمرت بغـــداد والبصرة ودمشق والفسطاط

(*) ذكر المقدسى فى « أحسن التقاسيم » ص ٤٧ المصطلح الخـاص بالمدن والتقســيمات الادارية ، وقد رأيت أن أورد هنا نص كلامه للفائدة ، بالنسبة لهذا الكتاب :

« اعلم اننا جعلنا **الامصار** كالملوك ، و **القصبات** كالحجاب ، و**المدن** كالجند ، **والقرى** كالرجالة

وقد اختلف فى الامصار ، فقالت الفقهاء : المصر كل بلد جامع تقام فيه الحدود ويحله أمير ويقوم بنفقته (أو بنفسه) ويجمع رستاقه مثل عثر ونابلس وزوزن

وعند أهل اللغة : المصر كل ماحجز بين جهتين ، مثل البصرة والرقة وأرجان

وعند العوام : كل بلد كبير جليل مثل الرى والموصل والرملة

وأما نحن ، فجعلنا المصر كل بلد حله السلطان الاعظم ، وجمعت اليه الدواوين ، وقلدت منه الاعمال ، وأضيف اليه مدن الاقليم ، مثل دمشق والقيروان وشيراز

وربما كان للمصر أو للقصبة نواح لها مدن ، مثل طخارستان لبلخ والبطائح لواسط والزاب لافريقية

فالاقاليم ١٤ : ٦ عربية : جزيرة العرب ثم العراق ثم أقور ثم الشام ثم مصر ثم المغرب • و ٨ عجمية : المشرق ثم الديلم ثم الرحاب ثم الجبال ثم خوزستان ثم فارس ثم كرمان ثم السند •

ولابد لـكل اقليم من كور

ثم لـكل كورة من قصبة

ثم لكل قصبة من مدن ، الا الجزيرة والمشرق والمغرب فان لكل واحد مصرين

والمصر قصبة كورته ، وليس كل قصبة مصرا

ثم الامصار اسم كورها أيضا ، الا الاربع الاول ، والمنصورة والثلاث الاواخر

وقد لخص آدم ميتز كلام المقدسى ، فذكر المصطلحات والتقسيمات كمايلى :

(١) **الامصار** ، وهى البلاد التى يحلها السلطان ، وتجتمع فيها الدواوين ، وتقلد منها الاعمال وتضاف اليها مدن الاقاليم

(٢) **القصبات** ، وهى عواصم الاقاليم ، ومقامها من الامصار مقام الحجاب من الملوك

(٣) **المدن أو المدائن** ، وهى مايلى القصبة فى الاقاليم ومقامها مقام الجند

(٤) **النواحى** مثل نهاوند وجزيرة ابن عمر

(٥) **القرى** ، وهى الملحقة بالمدن ، ومقامها مقام الرجالة

انظر : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، جـ ٢ ص ١٩٥

Marfat.com

والقاهرة والقيروان وقرطبـــة وغرناطة ونحوها ، وظلت القرى والضـياع مغارس لا عمارة فيها ، ولا تكاد تجد أثرا من آثار ذلك التمدن فى غير المدن

ففى هذه المدن فاضت ينابيع الثروة الاسلامية ، وعاش النـاس فى الرخاء والرغد بجوار الخليفة ورجال دولته ، ينالون جوائزهم وهداياهم ويبيعونهم السلع والجواهر ، والاقمشة وما اليها . وفى هذه المدن كان يجتمع العلمـاء والشعراء والمغنون والندماء يتعيشون بما يجود به الخليفة او امراؤه اورجال دولته

ويمثل طبقات الناس فى تلك الايام قول الفضل بن يحيى : « الناس اربع طبقات : ملوك قدمهم الاستحقاق ، ووزراء فضلتهم الفطنة والراى ، وعليـة أنهضهم اليسار ، وأوساط ألحقهم بهم التأدب . والناس بعدهم زبد جفاء وسيل غثاء ، لكع ولكاع ، وربيطة اتضاع ... هم أحدهم طعمه ونومه!»(١)

وقد جعل ابن خلدون عطاء السلطان أصل ثروة المملكة ، وعلة كثرة جبايتها، لاعتباره أن الدولة أو السلطان السوق الاعظم للعالم ومنها مادة العمران ، قال: « فاذا احتجن السلطان الاموال او الجبايات او فقدت فلم يصرفها فى مصارفها ، قل حينئذ ما بأيدى الحاشية والحامية ، وانقطع ايضاماكان يصل منهم لحاشيتهم وذويهم ، وقلت نفقاتهم جملة ، وهم معظم السواد، ونفقاتهم اكثر مادة للاسواق ممن سواهم ، فيقع الكساد حينئذ فى الاسواق وتضعف الارباح فى المتـاجر فيقل الخراج لذلك ، لان الخراج والجباية انما يكونان من الاعتمار ، والمعاملات، ونفاق الاسواق ، وطلب الناس للفوائد والارباح ، ووبال ذلك عائد على الدولة بالنقص لقلة أموال السلطان حينئذ بقلة الخراج . فان الدولة كما قلنا هى السوق الاعظم أم الاسواق كلها ، وأصلها ومادتها فى الدخل والخرج ، فان كسدت وقلت مصارفها فأجدر بما بعدها من الاسواق ان يلحقها مثل ذلك واشد منه » اهـ

فالمدن الاسلامية كانت مؤلفة من : الملوك وهم الاصل ، ثم رجال الدولة ، وانما يكونون كذلك لان الملوك يختارونهم لفطنتهم ، ثم الاغنياء ، واخـيرا الاوساط وهم جمهور الناس ويكونون كما يشاء أولئك . وذلك يخالف حال الهيئة الاجتماعية فى هذا العصر ، عصر الحرية الشخصية ، فالناس فيـه مستقلون بأعمالهم كل منهم يعد نفسه عضوا من أعضاء ذلك المجتمع لايستغنى عنه ، سواء كان صانعا أو كاتبا أو تاجرا أو موظفا

أما فى العصر العباسى فقد كان اهل المدن عالة على الخلفاء والامراء فتحوم آمالهم حولهم ـ يلتقطون مايجودون به عليهم وهؤلاء انما يجودون بما يصل

---

(١) ابن الفقيه ١

Marfat.com

اليهم من اموال الجباية ، فاذا كثرت اكثروا واذا قلت اقلوا . والجباية من الخراج ، والخراج على الارض ، والارض انما يعمل بها الفلاحون وهى القرى فالثروة العباسية مصدرها من القرى وتجمع من عرق الفلاحين ــ والفلاح اساس الثروة فى كل العصور ، وخصوصا فى البلاد الزراعية . وهو فى الغالب أقل الناس حظا منها ، وخصوصا فى عهد التمدن القديم أو مانسج علىمنواله، اذ كانت الثروة والقوة فى ايدى فئة الحكام او من ينوب عنهم او ينتمى اليهم ، ويبقى سائر الناس أعوانا أو اتباعا او خدما او عبيدا ، يشتغلون اما بالصناعة لصنع ماقد يحتاج اليه أولئك من اصناف الابنية والالبسة والاثاث والمجوهرات أو لخدمتهم فى قصورهم بالتطبيب او الكتابة او لامتاع سمعهم وبصرهم بالغناء والعزف او لترطيب قلوبهم بالنظم والنثر ونحوهما ، واما بالفلاحة فى الارض واستغلالها . والفلاحون هم الفئة الكبرى من الناس فى كل زمان ، وسنفصل ذلك فى الجزء المختص بالآداب الاجتماعية من هذا الكتاب

فالثروة فى المدن تابعة لثروة الحكومة أو رجالها للاسباب التى قدمناها . فلما كان بلاط الرشيد غاصا بالوفود وبيت ماله حافلا بالنقود والبرامكة يبذلون المئات والالوف ، كان تجار بغداد فى نعمة وثروة وخصوصا باعة المجوهرات والرياش ، لانها مما تتطلبه المدنية فى عهد الترف والبذخ . فقد رأيت فى بعض ما تقدم ان جوهريا بالكرخ فى بغداد ساومه يحيى البرمكى على سفط من الجوهر بمبلغ ٧ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم فلم يبعه (١) وهو جزء مما فى حانوته ، فما قولك بسائر ما فيه ؟ وهناك جوهرى آخر يقال له ابن الجصاص صادره الخليفة المقتدر سنة ٣٠٢ هـ ، فكان ما أخذوه من بيته من صنوف الاموال تزيد قيمته على ٢٠ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار (٢) وكانفى بغداد شريف يسمى محمد بن عمر بلغ خراج املاكه ٢ر٥٠٠ر٠٠٠ درهم فى السنة (٣) . وقس على ذلك سائر التجارات فى بغداد وغيرها . فقد كان فى اصطخر بيت ينتسب الى آل حنظلة احدهم عمرو بن عيينة بلغ من يساره أنه ابتاع بمليون درهم مصاحف فرقها فى مدن الاسلام ، وكان مبلغ خراج هذا البيت من ضياعهم نحو ١٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم . ومنهم مرداس بن عمر كان خراج ماله ٣ر٠٠٠ر٠٠٠ وابن عمه محمد بن واصل ملكه مثل ملكه (٤) . وكان فى سيراف تجار واسعو الثروة يزيد مال احدهم على ٦٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم اكتسبها من تجارة البحر من العود والكافور والعنبر والجواهر والخيزران والعاج والابنوس والفلفل وغيرها (٥) . ومنهم من يبنى دارا فينفق على بنائها ٣٠ر٠٠٠ دينار (٦) واوصى أحدهم بثلث ماله لعمل فبلغ ١ر٠٠٠ر٠٠٠

---

(١) الطبرى ٧٠٢ ج ٣ (٢) ابن الاثير ٢٣ ج ٨ (٣) ابن الاثير ٢٠ ج ٩
(٤) الاصطخرى ١٤٢ (٥) الاصطخرى ١٥٤ (٦) ابن حوقل ١٩٨

دينار بين مركب قائم بنفسه وآلته (١) ، وأمثال ذلك كثير فى معظم مدن المشرق

وقس عليه ثروة كل من خالط الخلفاء ونال جوائزهم ، أو خدمهم فى بلاطهم فى ابان ثروتهم غير الوزراء والكتاب والعمال ، فانهم جمعوا أموالا طائلة حتى المغنون والشعراء . فقد توفى ابراهيم الموصلى مغنى الرشيد عن ثروة مقدارها ٢٤ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم (٢) وتوفى جبريل بن بختيشوع طبيب الرشيد وخلف مايساوى ٩٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم من ضياع وجواهر ونقود كما تقدم

واعتبر ذلك فى سائر البلاد والاحوال ، فتجد الثروة كانت فى الغالب عند الخلفاء ، أو من ينتمى اليهم . حتى التجار فانهم انما كانوا يأمنون على ثروتهم بالانتماء الى أولى الامر

القرى

أما القرى فقد كان سكانها الفلاحين من اهل البلاد الاصليين ، ويسمونهم « أهل الخراج » ، فهؤلاء يعملون بالاجرة أو شركاء لاصحاب الاملاك من الخلفاء أو الامراء ، او من ينتمى اليهم من الاعيان ، وخصوصا الدهاقين فى العراق وفارس ، وهم أصحاب الاقطاعات الكبرى قبل الاسلام

فلما كان الاسلام تقرب أولئك الدهاقين من الحكومة بأموالهم (٣) ونفوذهم فى أهل بلادهم . ويندر أن يكون للفلاحين ملك خاص بهم لاسباب تقدم بيانها

فسكان القرى هم الفلاحون ومن يجرى مجراهم ، وكانوا يقنعون بالحصول على مايقوم بأود حياتهم ، ويغلب فيهم الفقر المدقع ، وربما كان بينهم من لم ير الدينار طول عمره ، فكان أهل الدولة فى المدن يبذلون الدنانير جزافا ويهبونها مئات وآلافا ، وأهل القرى فى فقر مدقع لو رأى احدهم الدينار لقبله مثنى وثلاث . ولو دفعت اليه عشرة دنانير او عشرين لاصابه خبل او مات لساعته كما اتفق للصياد بين يدى ابن طولون أمير مصر فى أواسط القرن الثالث للهجرة ، وهو مشهور بكرمه وبذخه ، بما انشأه من القصور والفياض والاصطبلات . وكان ينفق كل شهر ألف دينار على القراء ، وهو الذى جاء وكيله يوما وقال : « انى تأتينى المرأة وعليها الازار وفى يدها خاتم الذهب فتطلب منى فأعطيها » فقال له : « من مد يده اليك فأعطه » (٤) ومع ذلك فان هذا الامير نفسه ركب فى غداة باردة الى جهات المقس بجوار الفسطاط فأصاب بشاطىء النيل صيادا عليه خلق لا يوارى منه شيئا ، ومعه صبى فى

---

(١) ابن حوقل ٢٠٧ (٢) سير الملوك ١١٣ (٣) ابن الاثير ١٠١ ج ٥ (٤) ابن خلكان ٢٢٣ ج

Marfat.com

مثل حاله وقد القى الشبكة فى البحر ، فلما رآه ابن طولون رق لحاله وقال : يانسيم ادفع الى هذا عشرين دينارا ، فدفعها اليه ولحق ابن طولون . فسار ولم يبعد ورجع فوجد الصياد ميتا والصبى يبكى ويصيح ، فظن ابن طولون ان بعض سودانه قتله وأخذ الدنانير منه ، فوقف بنفسه عليه وسأل الصبى عن ابيه فقال له الغلام : « هذا (واشار الى نسيم الخادم) دفع الى أبى شيئا فلم يزل يقلبه حتى وقع ميتا » فقال : « فتشه يانسيم » فنزل وفتشه فوجد الدنانير معه بحالها ، فحرض الصبى أن يأخذها فأبى وقال : « هذه قتلت ابى وان أخذتها قتلتنى ! » فأحضر ابن طولون قاضى المقس وشيوخه وامرهم ان يشتروا للصبى دارا بخمسمائة دينار تكون لها غلة وأن تحبس عليه وكتب اسمه من أصحاب الجرايات وقال : « انا قتلت اباه لان الفنى يحتاج الى تدريج والا قتل صاحبه . هذا كان يجب أن يدفع اليه دينار بعد دينار حتى تأتيه هذه الجملة على تفرقة فلا تكثر فى عينيه » (١)

فاذا كان هذا حال رجل من اهل ضواحى العاصمة ، فكيف بأهل القرى البعيدين عن ترف الدولة وبذخها وجراياتها ووظائفها ؟

المدن الاسلامية

نريد بالمدن الاسلامية مابناه المسلمون من المدن لانفسهم،وهىغيرماافتتحوه من مدائن الروم والفرس . والمدن الاسلامية عديدة فى العراق والشام ومصر وافريقية والاندلس وغيرها ، ومنها مالم يزل عامرا الى اليوم كالبصرة وبغداد والقاهرة ، ومنها ما انقرض وعفت آثاره كالفسطاط بمصر والزهراء بالاندلس وسنذكر أشهرها ونصف ما بلغ اليه عمرانها فى ابان التمدن الاسلامى تتمة لموضوع هذا الجزء . ولكننا نقول قبل ذلك كلمة اجمالية فيما حمل العرب او المسلمين على انشاء تلك المدن

كان المسلمون فى صدر الاسلام عربا أهل خيام وماشية وخيل ، يكرهون الاقامة داخل الاسوار وينفرون من الانحصار فى المدن . فلما تأيد الاسلام واجتمع العرب على فتح الامصار فى العراق والشام ومصر ، كانوا فى بادىء الرأى اذا ساروا الى غزو أو فتح اصطحبوا نساءهم وعيالهم ، فاذا فتحوا بلدا أقاموا فى ضواحيه بخيامهم وأخبيتهم ، وجعلوا هذا الموضع معسكرهم . وكان عمر بن الخطاب يشترط على جنده المقيمين فى الامصار ألا يقيموا فى مكان يحول الماء فيه بينهم وبينه ، حتى اذا اراد ان يركب راحلته اليهم ركب. كذلك فعل عمرو بن العاص فىالفسطاط ، وسعد بن أبى وقاص فى الكوفة والبصرة ، وكانت كلها مضارب لجند العرب الفاتحين يعبرون عنها بالرابطة

(١) المقريزى ١٢٣

Marfat.com

او المعسكر ، فاذا طال بهم المقام اختطوا الاسواق وبنوا المنازل والقصور ، ذلك كان شأنهم فى صدر الاسلام فبنوا البصرة والكوفة والفسطاط على هذه الصورة

فلما ضخم ملك العرب وتعددت دول المسلمين صاروا يختطون المدن تثبيتا لفتوحهم كما فعل عقبة بن نافع عندما اختط القيروان فى افريقية (تونس الحالية) تثبيتا للفتح الاسلامى لهذه الناحية ، أو تحصنا بهـا من أعدائهم ـ كما فعل المنصور باختطاطه بغداد فانه بناها حصنا له ، وكذلك فعل الفاطميون بالقاهرة . وكثيرا ماكان الخلفاء يبنون المدن للتنزه بها والابتعاد عن الغوغاء ، مثـل سامرا والمتوكلية والزهراء وغيرها مما يطول بنا ايراده ـ فلنـأت الى وصف أشهر المدن الاسلامية فى ابان ثروتها

كثيرا ما وصف المؤرخون المسلمون المدن الاسلامية ، كما يصف السائحون اليوم ما يزورونه من المدن العظمى ، ولكنهم لم يذكروا عدد سكان تلك المدن أو مساحتها الا نادرا . وانما كان همهم تعداد مافى تلك المدن من الجـوامع والحمامات ، والغالب أن يبالغوا فى ذلك الى ما يتجاوز طور التصديق كماسترى واليك وصف أشهر المدائن الاسلامية مرتبة باعتبار قدمها :

البصرة

هى من أقدم المدن التى بناها المسلمون او هى أقدمها ، ولا تزال باقية الى الآن . مصرها عتبة بن غزوان سنة ١٦ للهجرة (١) وقد اتخذها العرب فى بادىء الامر معسكرا فى مكان لا يحول الماء بينه وبين مكة ، فكان من البصرة على الضفة الغربية للفرات الى مكة رمال وجبال وسهول لا يفصل بينهما نهر . وبنوها اولا بالقصب ثم خافوا الحريق فبنوها باللبن باذن عمر كما سيأتى فى الكلام عن الكوفة . وجعلوا المدينة خططا بحسب القبائل لكل قبيلة خطـة ، وجعلوا عرض شارعها الاعظم ستين ذراعا ، وهو مربدها ، وعرض ما سواه من الشوارع عشرين ذراعا . وجعلوا عرض كل زقاق سبعة اذرع ، ووسط كل خطة رحبة فسيحة لمرابط خيولهم وقبور موتاهم ، وتلاصقوا بالمنازل(٢) ونظرا لموقعها التجارى فرضة للعراق ووسطا بين الشام وفارس ، أسرع اليها العمران واتخذتها الحكومة مقرا لامارة العراق فى ايام بنى امية . فعمرت البصرة فى أيامهم واتسعت عمارتها ، حتى بلغت مساحتها فى امارة خالد بن عبد الله (القسرى) فرسخين فى فرسخين اى ٣٦ ميلا مربعا فى أرض منبسطة لاجبال فيها ، وذلك أوسع من مدينة القاهرة مع زيادة عمارتها اليوم (سنة ١٩٠٣ ـ

---

(١) ابن الفقيه ١٨٨ (٢) الماوردى ١٧١ . وانظر عن اختطاط البصرة وتنظيمها كتاب الدكتور الصالح أحمد العلى : التنظيمات السياسية والاقتصادية فى البصرة » ـ بغداد ١٩٥٢

Marfat.com

وكثرت ثروة البصرة فى ايام العباسيين لاجتماع التجار فيها ، وتجاراتهم تمتد شرقا الى الهند والصين ، وغربا الى أقصى بلاد المغرب ، وجنوبا الى الحبشة . وكانت السفن ترسو فى ميناها وتحمل أصناف التجارات من الاقمشة والاطياب وغيرها ، وتكاثرت الثروة فيها بتكاثر الناس القادمين اليها للاتجار أو الاقامة ، فابتنوا فيها القصور والحدائق وانشأوا الميادين والبرك ـ قال ابن حوقل : « وهى موصوفة بالمجالس الحسنة ، والمناظر الانيقة ، والميادين العجيبة ، والفواكه البديعة ، والبرك الفسيحة ، لا تخلو من المتنزهين ، ولا تعرى من المتطرقين منحدرين ومصعدين .. »

وكانت مياه البصرة مرسى مئات من السفن التجارية . وقد ذكرنا فى مكان آخر مقدار ما كانت الحكومة تجبيه من تاجر واحد من تجارها وهو نحو ١٠٠ر٠٠٠ دينار فى العام ، فقس عليهم التجار الآخرين وفيهم الكبير والصغير

واشتهر اهل البصرة بالاسفار التجارية الى كل الجهات ، حتى ضرب المثل فى ذلك فقالوا : « وأبعد الناس نجعة فى الكسب بصرى وخوزى ، ومن دخل فرغانة (فى الشرق) والسوس الاقصى (فى الغرب) ، فلابد من أن يرى بها بصريا أو خوزيا (من اهل خوزستان) أو حيريا (من أهل الحيرة) » (١) وشأنهم فى ذلك شأن السوريين اليوم ، أو هو دأبهم من عهد الفينيقيين

وقد نقلنا فى الجزء الاول من هذا الكتاب ما قاله الاصطخرى عن سعة مدينة البصرة وعدد انهارها على أيام بلال بن أبى بردة (سنة ١١٨ هـ) (٢) وأنها زادت على ١٢٠ر٠٠٠ نهر ، تجرى بها الزوارق ، وأن الاصطخرى نفسه شك فى صحة هذا العدد كما يشك كل من يقرأه ، فذهب بنفسه لمشاهدة المكان فى القرن الرابع للهجرة فلما عاينه قال : « وقد كنت انكر ما ذكر من هذه الانهار فى أيام بلال حتى رأيت كثيرا من تلك البقاع ، فربما رأيت فى مقدار رمية سهم عددا من الانهار صغارا تجرى فى كلها زوارق صغار ، ولكل نهر اسم ينسب الى صاحبه الذى احتفره او الى الناحية التى يصب فيها ، فجوزت ان يكون ذلك فى طول هذه المسافة وعرضها » وقال نفس هذا القول ابن حوقل فى عرض كلامه عن البصرة(٣) . ومع ذلك مازلنا نستكبر هذا العدد حتى رأينا عالما دقيق الملاحظة أقام فى البصرة اعواما طوالا وخبر أرضها فذكرنا له ذلك فهون علينا تصديقه بما بينه لنا من سعة البصرة فى تلك الايام وحفر الانهار ، وامكان اشتباكها بحيث تتحول الى مجار قصيرة هم يسمون كلا منها نهرا ، ويؤيد ذلك انهم لايريدون بالبصرة المدينة فقط التى ذكرنا ان مساحتها ٣٦ ميلا مربعا ، وانما

---

(١) ابن الفقيه ١٩١ (٢) ابن الاثير ٩٣ ج ٥ (٣) الاصطخرى ٨٠

Marfat.com

يضمون اليها ما يتبعها من المغارس الى عبادان عند بحر فارس ، مع ماكانت عليه من الخصب وكثرة الغرس . قال ابن حوقل والاصطخرى : « ولها نخيل متصلة من عبدسى الى عبادان نيفا وخمسين فرسخا متصلة لايكون الانسان بمكان منها الا وهو فى نهر ونخيل أو يكون بحيث يراها » . فاعتبر هذه المسافة طولا فى مثل نصفها عرضا على الاقل أى ١٥٠ ميلا فى ٧٥ وذلك ١١٢٥٠ ميلا مربعا ، فيعقل أن يكون فى الميل الواحد عشر ترع صغيرة والله أعلم (*)

الكوفة

بنيت الكوفة بعد البصرة ببضعة اشهر ، بناها سعد بن ابى وقاص . ويقال فى سبب بنائها أن سعدا بعد أن فتح العراق وتغلب على الفرس نزل فى عاصمتهم المدائن ، ثم بعث الى الخليفةعمر بن الخطاب فىالمدينة وفدا يخبره بذلك الفتح ، فلما وصل الوفد الى عمر راى الوانهم قد تغيرت وحالهم قد تبدلت ، فسألهم عن سبب ذلك فقالوا : وخومة البلاد غيرتنا . فأمرهم أن يرتادوا منزلا ينزلون فيه المسلمين لان العربلايوافقهم من البلاد الا مايوافق ابلهم وكتب الى سعد : « ابعث سليمان وحذيفة رائدين فليرتادا منزلا بريا بحريا ليس بينى وبينكم فيه بحر ولا جسر » (١) ففعل سعد ذلك فاختاروا مكانا وراء الفرات وبينه وبين الحيرة ، وبنوها أولا بالقصب كما بنوا البصرة ففعلوا ذلك لتكون المنازل قريبة من الخيام فأحرقت ، فاستأذنوا عمر فى البناء باللبن فأجابهم الى ذلك على شرط الا يزيد احدهم على ثلاثة ابيات

(*) ميناء البصرة معروف بعدم صلاحيته للسفن وصعوبة اقامة المنشآتالبحريةفيه،كأحواض السفن ومخازن البضائع وما الى ذلك ، وعلى الرغم من المحاولات الكثيرة التى بذلت خلال القرن الاخير لا زال الميناء غير صالح للملاحة تماما ، لان البلد يقع على شط العرب ، بينه وبين البحر مسافة طويلة ، وشط العرب نهر غير ثابت أو مأمون . ولم يكن الميناء الحقيقى ايام المسلمين على الشاطىء نفسه ، بل فى جزيرة صغيرة تجاه مصب النهر تعرف بجزيرة عبادان ، وهى جزيرة صغيرة قال المقدسى ان « الماء عندها ضيق والبحر عليها مطبق » (ص١١٨) . وكانتمكوس التجارة تجبى عندها (معجم البلدان لياقوت ٧٧/١) وكانت فيها حامية لمكافحة القرصان . وعلى نحو ثلاثة اميال منها فى البحر موضع عرف بالخشبات ، وهى عمد من الخشب منصوبةفى الماءفوقها مرقب يسكنه ناظور ، ويوقد المرقب بالليل لتهتدى به السفن الى مدخل شط العرب ، وكان هذا الموضع مخوفا اذا ضلت فيه السفينة خيف انكسارها لرقة الماء به ، وقد وصف المسعودى هذه الخشبات (المروج ٢٣٠/١) وذكرى ناصرى خسرو ان ارتفاع الخشبات عن سطح البحر كان ٥٠ مترا وفى أعلاه حجرة مربعة للناظور (رحلة ناصرى خسرو ص ٢٠) وذكر المقدسى انه سمع شيخا يقول : هذا موضع يسافر فيه اربعون مركبا فيرجع واحد (احسن التقاسيم ،ص١٢)

وانظر فصل الملاحة البحرية فى كتاب آدم ميتز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع ،الترجمة العربية جـ ٢١٢/٢ وما بعدها

(١) ابن الاثير ٢٥٩ ج ٢

Marfat.com

ولا يطاولوها . وكان للكوفة شأن كبير عند الشيعة لان الامام عليا جعلها عاصمة ملكه الى أن قتل (*)

الفسطاط

هى أول مدن المسلمين فى القطر المصرى ، بناها عمرو بن العاص سنة ١٨ للهجرة ، فيما بين القاهرة اليوم ومصر العتيقة . ومن بقاياها جامع عمرو والاطلال والخرائب حوله الى المقطم . وكان ذلك المكان معسكرا للعرب لما

(*) انشأ العرب الكوفة لتحل محل عاصمة الفرس القديمة طيشفون Ctesifon التى سماها العرب المدائن ، ولم يشاءوا ان يتخذوا الحيرة قاعدة لهم لغلبة النصرانية على اهلها ، فابتعد سعد بن أبى وقاص بضعة اميال شرقى الحيرة واختط الكوفة ، والكوفة هى المكان المرتفع ، مما يدل على ان الجزء الاول الذى اختط من الكوفة كان الجزء الواقع على التل . وبينما اختطت البصرة فى موضع مدينة قديمة يسميها العرب الخريبة ، كانت الكوفة انشاء جديدا . وكان اختطاط الكوفة سنة ١٧ او ١٨ هجرية (٦٣٨ او ٦٣٩ م) . وكان موضع الكوفة أرض نخيل زرع فيها القطن وقصب السكر فيما بعد

وكانت الكوفة أول الامر مصرا قائما بذاته (أى قصبة وكورة) يحكمها عامل خاص ،وفى بعض الاحيان كانت البصرة والكوفة تجمعان لعامل واحد . وكانت الكوفة اولا منزلا للعرب وحدهم ، ثم تكاثر فيها التجار والموالى فعمرت وتمدنت ، فاصبحت مساكنها تبنى بالآجر بدلا من القصب. وقد بلغت الكوفة أوجها أيام على بن أبى طالب الذى اتخذها عاصمة . وكان اختياره غير موفق لان الكوفة لا تستطيع الحياة بنفسها ، ولا يمكن السيطرة منها على ولايات دولة الاسلام المتسعة ، ثم ان صاحب الشام يستطيع ان يقطعها عن غرب الدولة الاسلامية كله ، وهذا هو الذى فعله معاوية بن أبى سفيان فى صراعه مع على بن أبى طالب

بيد أن العامل الاكبر فى اضمحلال الكوفة يرجع الى من نزلها من العرب انفسهم ، وقد اشتدت المنازعات بينهم حتى شكا عمر بن الخطاب من قلق اهلها ونزوعهم الى الخروج عن الطاعة ، وقد عرف معاوية بن أبى سفيان كيف يكبح جماح الكوفيين بمن ولاهم عليها من الحكام القادرين مثل زياد بن أبيه ومن بعده ابنه عبيد الله بن زياد ، وقد ظلت الكوفة رغم ذلك مركزا من مراكز الثورة على بنى أمية ، فبايع أهلها لعبدالله بن الزبير ثم ايدوا ثورة المختار بن عبيد الثقفى. ثم استولى عليها عبد الملك بن مروان واقام الحجاج واليا على العراق ، فلم يشأ السكنى بالكوفة ، بل اتخذ واسط مقرا له ، واخرج من الكوفة أهل الفتنة والشغب ، فاستتبت احوالها ، واستقرت الامور تماما أيام ولاية خالد بن عبد الله القسرى على العراق (١٠٥ – ١٢٠ \ ٧٢٤ – ٧٣٨)

وعندما انتصرت الدعوة العباسية اتخذ ابو العباس السفاح الكوفة قاعدة لدولته ، وان لم يقم فيها ، بل فى الهاشمية الى شمالها الشرقى على نهر الفرات

وقد ظلت الكوفة عاصمة لبنى العباس زهاء ٢٠ سنة حتى انشئت بغداد أيام أبى جعفر المنصور ، فأخذ امرها وامر الهاشمية ايضا فى الاضمحلال ، ولكنها ظلت مركزا للدعوات العلوية مما جر عليها الخراب . وقد زارها ابن جبير الرحالة فى القرن السادس الهجرى وقال ان معظمها خراب ، وبعد ذلك بقرنين زارها ابن بطوطة فوجدها خرابا لا يسكنها أحد ، وقد انتقلت الاهمية السياسية للكوفة كمركز للشيعة الى بلدة النجف التى تسمى ايضا مشهد على

هذا عن التاريخ السياسى للكوفة ، اما دورها فى تاريخ الفكر العربى فأعظم من ذلك بكثير ، فقد نشأت فيها مدرسة للحديث من أيام نزلها عبد الله بن مسعود ، وكان لهذه المدرسة شأن عظيم ، وكانت مهدا لمدرسة فى اللغة والنحو تنافس مدرسة البصريين ، والنزاع بين الكوفيين والبصريين معروف تناوله المؤلف فى كتابه عن تاريخ الادب العربى

انظر عن الكوفة بالاضافة الى مطولات التاريخ الاسلامى المعروفة وكتب الجغرافيين :

Niebuhr, Reisebeschreibung II, 261 sqq.
Caetani, Annali dell'Islam, Index
Le Strange, Lands of the Eastern Caliphate, p. 3, 21, 25 sqq.-74 sqq. 81-83

جاءوا لفتح حصن بابليون ، وهو المعروف اليوم بدير النصارى او دير مار جرجس بمصر العتيقة . فلما فتحوه ساروا الى الاسكندرية لفتحها ، فامر عمرو بنزع فسطاطه (اى خيمته) فاذا فيه يمام قد فرخ فاخبروا عمرا بذلك فقال : « لقد تحرم بنا بمتحرم » فأمر بالفسطاط فأقر كما كان واوصى به من بقى هناك من القبط . وسار بجنده حتى نزل الاسكندرية وفتحها وكتب الى الخليفة عمر بالمدينة يخبره بذلك ويستشيره فى السكنى فيها . فسأل عمر الرسول الذى أرسله عمرو : « هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟ » قال : « نعم يا امير المؤمنين اذا جرى النيل » فكتب الى عمرو : « انى لا أحب ان تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم شتاء ولا صيفا، فمتى أردت ان اركب اليكم راحلتى حتى اقدم عليكم قدمت » (١) فاستخلف عمرو فى الاسكندرية حامية وامر فشدت الرحال الى حصن بابليون . فلما بلغوا فسطاط الامير راوه لايزال منصوبا وفيه الطيور ، فنزلوا فيه وجعلوا تلك الخيمة مركزا لمعسكرهم ، ودعوا ذلك المكان من ذلك اليوم بالفسطاط. ثم انضمت القبائل بعضها الى بعض واخذوا فى بناء البيوت لسكنى الجيوش، فاختط عمرو مدينة شمالى الحصن دعاها الفسطاط ، فيها نحو عشرين حارة دعاها خططا ، واقام اربعة من كبار رجاله ينزلون الناس فى الخطط المذكورة بحسب احزابهم وقبائلهم

ثم اخذت الفسطاط تتسع وتزداد عمارة كلما رسخت قدم المسلمين فى البلاد وتوطد سلطانهم حتى فاقت البصرة والكوفة فى كثير من الوجوه . وبلغ طولها على ضفة النيل ثلاثة اميال (٢) وذكر مؤرخو العرب عن مقدار عمارتها انه كان فيها ٣٦ر٠٠٠ مسجد ، و ٨ر٠٠٠ شارع مسلوك ، و ١ر١٧٠ حماما . وقد يستبعد ذلك ولكن ايراده يدل فى كل حال على العظمة والعمران . ومما نظمه الشعراء فى مدحها قول الشريف العقيلى :

احن الى الفسطاط شوقا واننى ... لادعو لها الا يحل بها القطر
وهل فى الحيا من حاجة لجنابها ... وفى كل قطر من جوانبها نهر
تبدت عروسا والمقطم تاجها ... ومن نيلها عقد كما انتظم الدر (٣)

وبلغ من تزاحم الناس فى الفسطاط ان جعلوا المنازل طبقات عديدة بلغ بعضها خمس طبقات الى سبع ، وربما سكن فى البيت الواحد ٢٠٠ من الناس، وبلغت نفقة البناء على بعضها ٧٠٠ر٠٠٠ وهى دار الحرم لخمارويه (٤)

واشتهر من تلك الابنية دار ضرب المثل بعظمتها وغنى اهلها تسمى « دار عبد العزيز » ، كانت مطلة على النيل بلغ من سعتها وكثرة ساكنيها انهم

---

(١) المقريزى ٢٩٦ ج ١ (٢) ابن حوقل ٩٦ (٣) المقريزى ٢٤٠ ج ١
(٤) المقريزى ٢٣٠ ج ١

Marfat.com

كانوا يصبون فيها اربعمائة راوية ماء كل يوم . ونقل بعضهم أن الاسطال التى كانت بالطاقات المطلة على النيل بلغ عددها ١٦٫٠٠٠ سطل مؤيدة ببكر وأطناب لها ترخى وتملأ . وذكر رجل دخلها فى أوائل القرن الثالث للهجرة فى زمن خمارويه بن احمد بن طولون قال : « طلبت بها صانعا يخدمنى فلم أجد فيها صانعا متفرغا لخدمتى ، وقيل لى ان كل صانع معه اثنان يخدمهما وثلاثة ، فسألت كم فيها من صانع فأخبرت أن بها سبعين (كذا) صانعا قل من معه دون ثلاثة سوى من قضى حاجته وخرج » (١)

وفى ذلك دليل على غنى أهل الفسطاط وترفهم ، ومن هذا القبيل استكثارهم من الفرش . فقد يقتنى أحدهم ألف فرشة أو عشرة آلاف فرشة ، وذكروا رجلا من أجل الفسطاط عنده ثلاثمائة فرشة كل فرشة لحظية . وكذلك كانوا يفعلون بالثياب ونحوها ــ وقد تكون أثمانها فاحشة فلا يبالون لغناهم ــ قال القضاعى ان قطر الندى ابنة خمارويه كان فى جملة جهازها الف تكة ثمن كل واحدة عشرة دنانير ، فبلغ ثمنها كلها عشرة آلاف دينار . ناهيك بتأنقهم فى المآكل والمشارب مما يطول شرحه ، وقد فصله المقريزى وغيره فى كلامهم على الفسطاط (*)

---

(١) المقريزى ٣٣٠ ج ١

(*) تعتبر الفسطاط واحدة من المدن الكثيرة التى يجمعها لفظ «مصر» او «مصر القاهرة » فيما بعد . وتقع هذه المدن فى مواقع متقاربة على ضفتى النيل عند تفرعه الى فرعيه الكبيرين ، فرع دمياط وفرع رشيد . وتضمها كلها الآن مدينة القاهرة الحالية ، فيما عدا موقع منفيس القديمة ، فأنها تابعة لبندر الجيزة . ونستنتج من توالى اتخاذ العواصم فى هذا الموضع على اختلاف العصور انه الموضع المثالى لحكم مصر والاشراف على شئون الوجهين القبلى والبحرى . وقد بدأ الانشاء فيه على عهد الاسرة الثالثة ، عندما انشأ الفراعنة منف واتخذوها عاصمة لهم عقب توحيد الوجهين . وفى نفس الوقت ، عمر الفراعنة موضعا آخر على الضفة الشرقية الى الشمال ، وهو قرية « أون » التى عربها العرب الى عين شمس ، ولا زالت قائمة الى اليوم

والى جنوب عين شمس ، فى مواجهة جزيرة الروضة قام حصن بابليون ، ويرجح انه من انشاء المصريين القدماء ، وان اسمه الاصلى بى ــ هابى ــ ن ــ أون Pi-Hapi-n-on ويرجح شتايندورف ان هذا الاسم كان يطلق على جزيرة الروضة أولا ، وان صورته الصحيحة هى : بر ــ هابى ــ ن ــ اون Per-Hapi-n-on ومعناه «جزيرة أون النيلية» . وسواء كانت هذه هى الصورة الاصلية للاسم،أم الصورة الاولى التى ذكرناها (وقد اقترحها المستشرق كازانوفا) فان الاغريق حرفوه الى بابيلون Babylone وتبعهم فى ذلك الرومان فالعرب

وقد حاول بعض جغرافيى العرب ان يفسر الاسم بقوله باب ــ ليون ، أى الباب الذى بناه ليون وهو تفسير غير مقبول ، لان الاسم بهذه الصيغة كان معروفا قبل العرب ، ومن غير الممكن أن يطلق الاغريق لفظ « باب» على احد المنشآت . وقد خلط المؤرخون الاوروبيون فى العصور الوسطى وحتى القرن الثامن عشر بين بابليون وبابل (بابلونيا Babylonia) ، فأطلقوا اسم بابلونيا على القاهرة بل على مصر كلها ، فكانوا يقولون سلطان بابلونيا ويريدون سلطان مصر ، وظهر هذا بوضوح فى العصر المملوكى . وقد سمى المصريون بابليون قصر الشمع ، ولا زالت بقاياه محتفظة بهذا الاسم الى الآن

ويذهب بتلر الى ان لفظ الشمع هنا محرف عن لفظ كيمى او شيمى او خيمى وهو الاسم القديم لمصر ،أى اسمها على أيام الفراعنة ، وقد استند فى ذلك الى ان اليونان كانوا يقولون

(بقية الهامش فى الصفحة التالية)

Marfat.com

بغـداد

هى عاصمة العباسيين ، بناها المنصور سنة ١٤٥ هـ ولا تزال باقية الى اليوم ، وقد تغير موضعها مرارا . والسبب فى بنائها : ان السفاح لما بويع

بابيلون ان خيمى . ولا يمكن تأييد هذا الفرض بصفة قاطعة ، لان الثابت ان العرب كانوا يستعملون ابراج الحصن مواقع يشعلون فيها النيران للانذار ، ولا يبعد ان تكون التسمية بقصر الشمع قد أتت من هنا

وفى ايام الفتح العربى كان الحصن على ضفتى النيل مواجها لجزيرة الروضة وكانت هذه الجزيرة قلعة محصنة ، تربطها بالحصن قنطرة ، ويربطها بالضفة الغربية للنيل جسر من القوارب ينتهى عند قلعة قائمة ، فكأن حصن بابيلون لم يكن الا جزءا من مجموعة من المنشآت العسكرية تسيطر تماما على مدخل الدلتا وتصل شاطىء النيل احدهما بالآخر الى الجيزة . ولا زال اسم بيلون محتفظا به فى دير صغير جنوبى القاهرة يسمى دير بيلون

انظر : Butler, The Arab Conquest of Egypt, p. 238 sqq.

وفيما بين عين شمس وبابليون ذكر المؤرخون موضعين كانا قائمين زمن الفتح ، الاول أم دنين التى وردت عند يوحنا النقيوسى فى صورة تندونياس Tendunyas ، وقد ذهب ليونى كايتانى الى أن موضعها موضع الازبكية التى كانت فى العصور الوسطى تمتد من موضع الحديقة المعروفة بهذا الاسم الى شاطىء النيل ، والثانى : مصر وهو لفظ يطلق من ايام الفتح على موضع غير محدد بين ام دنين وحصن بابليون . ويذهب بتلر الى ان هذا الموضع كان يقع جنوبى الحصن ، اما جست ناشر كتاب القضاة والولاة للكندى فيعتقد انه يقع شمالى الحصن ، انظر مقاله فى Journal of the Royal Asiatic Society, 1907 p. 63 sqq.

وعلى أى الاحوال يمكن القول ان اسم « مصر » كان يطلق على المساحة الواقعة بين ام دنين وحصن بابليون ، ولم تكن فضاء ، وانما كانت فيها مبان ومنشآت متفرقة كالكنائس والاديرة والكروم والحدائق من النيل الى المقطم

أما **الفسطاط** فقد نشأت بعد الفتح ، وهى لم تختط دفعة واحدة او بقرار خليفة كما هو الحال مع بغداد او بارادة قائد عسكرى كما هو الحال فى القيروان ، وانما نشأت من تحول المعسكر العربى المؤقت الذى اتخذه العرب أثناء حصار حصن بابليون الى مدينة دائمة ، أى استبدال الخيام ومنشآت الحصير بالمبانى . ومن هنا جاء الظن بأن اسمها مشتق من الفسطاط أو الخيمة ، وهو فرض لا يمكن رفضه تماما ، وان كان من المحتمل ان يكون الاسم مشتقا من الفساط (لاتينى Fossatum) أى الخندق المحيط بالحصن

وعلى اى الاحوال فقد استطاع روفن جست ان يضع رسما لهذه المدينة اعتمادا على اطلالها وبقية اساس بيوتها التى تم كشفها . كانت تمتد من القرية الواقعة جنوبى القاهرة ، التى كانت تعرف بدير الطين ثم عدل اسمها الى دار السلام وتتصل حتى بركة الحبش ، التى جفت الآن ، وكانت تقع الى جوار جبل يشكر ، وهو تل زال معظمه الآن واصبح يسمى ارض طولون ، وعليه يقع جامع احمد بن طولون . وفى وسط المدينة كان يقوم جامع عمرو بن العاص ، وهو باق الى الآن فى موضعه القديم ، رغم تجديد بنائه مرارا كثيرة

وحول الجامع كان يقوم حى او خطة من خطط المدينة تسمى خطة اهل الراية اى حاملى الاعلام ، والمراد الوية القبائل ، كان لكل قبيلة لواء يحمله رئيسها وكان اصحاب الالوية رؤساء الجند ، فكأن هذه الخطة كانت خطة الرؤساء . وكان معظم اهل الراية اذ ذاك من المهاجرين والانصار . وحول هذه الخطة ، كانت تقوم خطط القبائل ، لكل قبيلة خطة او حى ، وفيها ديوان المقيدين فى الجند الرسمى من اهلها ، اى ان هذا الديوان كان مجرد ادارة احصائية صغيرة تقوم بتسجيل العرب المشتركين فى الجيش وابنائهم ممن كان لهم الحق فى الانتظام فى الجندية والحصول على العطاء والرزق

ويلاحظ أن أهل الراية كان لهم ديوان خاص بهم فى خطتهم ، وان انتمى كل منهم الى قبيلة لها خطة . وكانت هناك خطة للعرب الذين لا ينتمون الى قبيلة بعينها ، وكانت تسمى خطة اللفيف . وكان الوافدون من العرب بعد الفتح ينزلون فى خطط قبائلهم ، فلما ضاقت الخطط انشئت خطة جديدة تسمى خطة أهل الظاهر ، وكانت اكبر الخطط خطط تجيب وغطيف وخولان ومعافر وكلها قبائل يمنية

وكانت هندسة الخطة اول الامر بسيطة : تقيم القبيلة منازل على حدود خطتها ، وتترك بينها فضاء . وقد ضاق هذا الفضاء شيئا فشيئا بانشاء مبان جديدة ، وتحول الى جزائر من المبانى

(يعده)

Marfat.com

بالخلافة واكثر انصاره فى العراق وفارس ، نزل الكوفة ومعه أخوه المنصور. ثم بنى السفاح قرب الانبار مدينة سماها الهاشمية اشارة الى مايجمع بين العباسيين والعلويين وانتقلا اليها (١) وبها مات السفاح وقبره فيها . واقام

---

(١) ابن خلكان ١٥١ ج ١

تتخللها الدروب والازقة . ولم توضع للانشاء خطة ، ولهذا فقد اضطرب نظام البلد فيما بعد ، ولم تعد هناك شوارع رئيسية أو محجات تأخذ من طرف لطرف . ثم نشأت صفوف من المبانى على شاطىء النيل ، وكانت هذه الصفوف تسمى الحمراوات ، وتبدأ بالحمراء الدنيا عند الحصن ، تليها الحمراء الوسطى فالحمراء القصوى

وشيئا فشيئا اختفى اسم بابليون وبقى اسم الفسطاط ، وكان اسم مصر يطلق على الفسطاط أيضا ، واطلق فيما بعد كذلك على القاهرة . اما النصوص الاغريقية فأطلقت على البلد اسم فساطون ،وهذا هوالذى حدابدوزى الىالقول بأنلفظ الفسطاط مشتقمن الفساط اليونانى،ويقوى هذا الراى انبعضالنصوص العربيةتقول فساط (بفاءمضمومة اومكسورة) ، ويضعفهأنالبلدلم يحط أول الامر بخندق وانما بزرب أو زربية وهو السور يتخذ من نبات ذى شوك ، ولابد أن نضيف أن العرب لم يضعوا اسم مصر لهذا الموضع وانما هو كان موجودا قبل دخولهم ، ومن هنا فهو ليس لفظ المصر الذى أطلقه العرب على المراكز العسكرية التى أنشأوها كالكوفة والبصرة ، ويرجح انه لفظ قديم معناه الحدود او الحد ، وقد يكون اصله نبطيا

وقد اتسعت الفسطاط وازدحمت مع الزمن ، ولكنها لم تسور ، ففى سنة ٦٨٣/٦٤ حفر ابن الزبير حفيرا حول الفسطاط ليحميها من هجوم مروان بن الحكم خليفة بنى أمية . وقد قامت فيها المنشآت الحكومية واحدة بعد الاخرى ، فعمر الجامع العتيق ، وانشئت مساجد صغيرة فى الخطط عرفت بالمصليات ، ثم انشئت اهراء كبيرة للقمح ذكرت فى النصوص الاغريقية ثم انشىء بيت المال على مقربة من الجامع ، وكان يقوم على أساطين أى أعمدة ، وكان يتصل بالجامع ، وبابه الرئيسى داخل المسجد ، ولهذا كان المسجد يخلى من المصلين بعد صلاة العشاء

ولكن الفسطاط لم تصبح مدينة بالمعنى الكامل ابدا ، لاضطراب اسلوب انشائها وقرب الكثير من احيائها من جبل يشكر وبعدها عن النيل . وفى أيام المقريزى كانت المنطقة القريبة منجبل يشكر كلها قد أصبحت خرابا لا يعمره احد . وزاد امرها سوءا ما يحكيه ساويرس بن المقفع من احراق مروان بن محمد اياها سنة ٧٥٠/١٣٢ ، وحتى فى ايام الامويين نجد عبد العزيز بن مروان يتخذ حلوان مقاما له . اما فى العصر العباسى فلم يقم العمال فى الفسطاط وانما فى موضع فى الحمراء القصوى عرف بدار الامارة . ونشأت حول دار الامارة بليدة صغيرة عرفت باسممدينة العسكر ، اقيم فيها مسجد جامع جديد عرف باسم جامع العسكر او جامع ساحل الغلة .وقد أفادت الفسطاط من ذلك لان مبانى البلدين اتصلا ، فزادت اهمية الفسطاط بالوصول الى النيل وانشئت لها شرطة خاصة عرفت باسم الشرطة العليا . والخلاصة أن الفسطاط انشئت أول الامر بعيدا عن النيل قريبا من الجبل ، ثم زحفت نحو النيل زحفا طبيعيا ، وهجرت نواحيها البعيدة عن النهر

ويحدثنا المقريزى أن الفسطاط بوصفها الجديد قسمت اداريا الى قسمين ، عرف الاول باسم عمل فوق والثانى باسم عمل أسفل . وقد زار المقدسى الفسطاط وقال ان جامع عمرو كان يعرف اذ ذاك باسم الجامع السفلانى وجامع ابن طولون باسم الجامع العليانى والحد بين قسمى القاهرة كان مسجدا يعرف باسم جامع عبد الله ، ولا نعرف من عبد الله هذا . وعلى الجملة يمكن ان يقال ان عمل اسفل كان النصف الجنوبى من البلد ، وعمل فوق هو النصف الشمالى . ويتحدث المقريزى عن عمل فوق على اعتبار انه حى كبير يبدأ من قصر الشمع ويمر بالمرصد والقرافة حتى جبل طولون ، فى حين أن عمل فوق يبدأ من العسكر ويمتد داخل عمل أسفل ، ويذهب كارل هاينريش بيكر الى أن عمل أسفل هو جزء البلد القريب من النيل وعمل فوق هو القسم الداخلى . وكان لكل من القسمين شرطة خاصة : شرطة أسفل وشرطة فوق أو الشرطة العليا

وقد استمرت العسكر مقام العمال حتى قدم أحمد بن طولون وانشأ دولته معتمدا على جند من الاتراك . فكان لا بد أن يختار مكانا جديدا لجنده ومقامه . وقد اختار ناحية شرقى العسكر والفسطاط وقسمها لجنده قطائع ، واقام دار أمارته ومسجده القائم الى الآن فى وسطها . وقد ذكر المقريزى من أحياء المدينة الجديدة التى عرفت بالقطائع أحياء الرميلة وزينالعابدين والقلعة ، قلعة ابن طولون . ومعنى ذلك أن قاعدة الحكم انتقلت الى الداخل بعيدا عن النيل مرة أخرى مع ما فى ذلك من مشقة الحصول على الماء . ولكننا ينبغى أن نلاحظ أن مدينة

(بعده)

المنصور فى الهاشمية بضع سنين ، ثم ثار جماعة الراوندية فكره سكناها وخرج يبحث عن مكان يبنى فيه مدينة حصينة ، فدلوه على مكان بغداد وحسنوه له ، فبنى فيه مدينة سماها بغداد ، وعرفت بمدينة المنصور

كالقطائع لم تكن مدينة بالمعنى المفهوم وانما مجرد معسكر كبير يقيم فيه الامير وجنده ورؤساؤهم، وكان عماد هذا المعسكر على الفسطاط ، التى كانت قد تحولت من معسكر للجند العربى الى مدينة مصرية يسكنها الاهالى وأصحاب الحرف والصنائع . واذا نحن استثنينا مبانى قطائع الجند ، ولم تكن أكثر من «قشلاقات» ، كان قصر ابن طولون وجامعه يطلان جنوبا على فضاء شاسع عرف بالميدان ، كان ابن طولون يلعب فيه الصوالجة ، وكانت الرياضة المحببة اليه والى جنده

وأوجه الشبه كثيرة بين القطائع وسر من رأى ، وقد نشأ أحمد بن طولون فى هذه المدينة الاخيرة ، ولا زال تشابه مئذنة جامعها بمئذنة جامعه دليلا على الاقتباس . وعندما انقضت دولة بنى طولون ودخل عسكر العباسيين مصر بقيادة محمد بن سليمان (٢٩٢/٩٠٤) أزال قصر ابن طولون ، بل أزال المارستان الذى انشأه ولم يبق الا على المعسكرات . وينص المقريزى بوضوح على أن المعسكر والقطائع لم تكونا جزءا من الفسطاط ، بل موضعين كل منهما مستقل بنفسه. وعادت القاعدة بعد ذلك الى العسكر ، وعمرت دار الامارة بعد أن كان أحمد بن طولون قد حولها الى ديوان للخراج

وقد ظلت الفسطاط ـ والعسكر أو الفسطاط فقط كما كانت تسمى ـ قائمة عامرة حتى بعد انشاء مدينة القاهرة ، بل ان الجغرافيين والرحالة يؤكدون أن الفسطاط كانت أول الامر أكثر عمارة وأوفى بحاجات السكان ، وهذا طبيعى ، لانها على شاطىء النهر أما القاهرة فكانت بعيدة عنه ، وكان النشاط الحقيقى فى الفسطاط ، وقد اشتهر منها موضع قريب من الجامع يعرف بزقاق القناديل كان أكبر سوق فى مصر . وقد ذكر المقدسى أن منازل الفسطاط كانت من اربعة طوابق وخمسة ، وان سكان المنزل الواحد قد يبلغون ٢٠٠ وان عدد المصلين خلف الامام يوم الجمعة كان يصل الى ١٠ آلاف، وهو يقرر انها اعمر بلاد الاسلام واحسنها هيئة وأوفرها خيرات، وأكد ذلك ناصرى خسرو الذى زار الفسطاط ووصفها حوالى سنة ٤٣٩/١٠٤٦ وقال ان زقاق القناديل أعظم سوق فى بلاد الاسلام . ويقول ناصرى خسرو ان الفسطاط تبدو من بعيد كأنها قائمة على تل ، وكلامه هذا ينطبق على عمل فوق ، أى الجزء الداخلى الواقع على المرتفع ، لان عمل أسفل اى الجزء الساحلى من البلد كان معروفا بالزحام ووخومة الهواء

ولم يضمحل أمر الفسطاط الا أثناء خلافة المستنصر بالله الفاطمى، اذ تعاقبت عليها المصائب من تخريب الجند والمجاعة ، فخربت الاجزاء الواقعة بين جامع عمرو والقاهرة ، وعندما أنشأ بدر الجمالى سور القاهرة زاد حال الفسطاط خرابا فتحولت المنطقة الممتدة من باب زويلة الى جامع عمرو الى كيمان لا زال بعضها باقيا الى اليوم فى تلال زينهم . وانفصلت الفسطاط عن العاصمة ـ القاهرة ـ ولم تستطع أن تقوم بنفسها ، اذ كان اعتمادها دائما على القواعد التى يقيم فيها الامراء ورجال الدولة والجند . وفى العصر المملوكى زاد امر الفسطاط هوانا ، بل أصبحت مجرد مركز ادارى لمصر العليا فى حين كانت القاهرة المركز الادارى لمصر السفلى . وانتقل اسم مصر الى القاهرة فى حين اصبحت الفسطاط مصر العتيقة او مصر القديمة . وفى أيام الحملة الفرنسية لم يزد عدد سكان الفسطاط على ١٠ آلاف نفس ، ولكنها نشطت من جديد وعمرت فى العصر الحديث فأصبح سكانها سنة ١٨٩٧ نحو ٣١٨٤٠ نفسا ، ثم اصبحت حيا من أحياء القاهرة الحالية

القاهرة

بقى أن نتحدث قليلا عن القاهرة ، وهى العاصمة المصرية التى حلت محل الفسطاط

هناك حقيقة جغرافية لا بد من ذكرها اذا أردنا فهم تاريخ القاهرة ، فى عصورها الاولى على الاقل . ذلك أن النيل غير طريقه فى هذا الجزء بالذات من مجراه ، وانتقل رويدا ناحية الغرب، مما جعل المواضع التى انشئت على ضفته تبعد عنها بمرور السنين ، فتفقد نتيجة لهذا الكثير من اهميتها ، وربما عفى الزمن عليها مرارا لهذا السبب

مثال ذلك أن الماء كان يصل الى جدران قصر الشمع وجامع عمرو اول انشائه ، ثم اخذ النهر يتحول غربا حتى اصبح كلا القصر والجامع بعيدين عن النهر . وظلت المواضع التى خلفها النهر مستنقعات مدة طويلة ، لانها لم تجف دفعة واحدة ، ثم ان النهر كان ينحنى شمال الفسطاط انحناء شديدا ، اى أن كثيرا من أجزاء جنوبى القاهرة الحالية كانت مجرى للنيل اذذاك، وكانت

(بعده)

Marfat.com

بناها فى الجانب الغربى لدجلة بشكل مستدير ، وجعل حواليهـا قطائع لحاشيته ومواليه واتباعه . فلما كانت أيام المهدى جعل معسكره فى الجانب الشرقى من دجلة ، وسمى ذلك المـكان عسكرالمهدى . ثم انتقل اليهالوجهاء

قلعة الكبش على ضفة النيل ، ولهذا كانت متنزها لاهل الفسطاط ، وهذا الموضع ، قلعةالكبش يبعد عن النيل الآن أكثر من كيلومتر . وكان الانحراف الى الغرب يتم عن طريق تكون جزائر فى مجرى النهر تكبر شيئا فشيئا ، ثم ينتهى الامر بتحولها الى برك تظل ملأى بالماء وقتا طويلا حتى تجف تماما ، وكانت البرك اذذاك كثيرة ، وذكرها كثير فى حوليات مصر الاسلامية ، وقد عدد المقريزى عددا منها فى خططه

وفى وقت الفتح لم يكن فى النيل اذذاك فى ذلك الموضع الا جزيرة واحدة كبيرة هى « جزيرة مصر » ، وتسمى أيضا الجزيرة فقط ، وهى جزيرة الروضة الحالية ، وكانت ، بالاضافة الى حصن بابليون تكون جزءا من النظام الدفاعى عن هذه المنطقة كما قلنا آنفا . وكانت هنـاك قنطرة تصل الجزيرة بالضفة الشرقية ، أى بحصن بابليون ، ولا ندرى ان كانت هناك قنطرة أخرى تصل الجزيرة بالجيزة ، ولو أن بعض النصوص التى ترجع الى عصر المأمون تذكر جسرا! يسمى الجسر القديم ، ثم أنشىء جسر جديد ، والمراد هنا جسر من القوارب . أما منالناحية الشرقية فمن الثابت أنه كانت هناك قنطرة ، وقد اختفت هذه القنطرة ، لان المجرى ما بين الجزيرة والنيل انسد من هذه الناحية وزحفت الفسطاط غربا ، وأصبح أهلها يأخذون الماء من فرع الجيزة فى منتصف القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى

وقد حاول كافور الاخشيدى أن يعيد الفرع الشرقى ، وقام بالحفر ، ولكن دون نتيجة ، وانتهى الامر بأن كان الناس يصلون من الفسطاط الى مقياس الروضة سيرا على القدم . وقد حاول سلاطين المماليك اعادة الفرع الغربى مرارا ، لانهم كانوا يرون فى فصل جزيرةالروضة عن الفسطاط فائدة عسكرية ، اذ أن القلعة التى تقوم عليها تكون فى هذه الحالة أكثر حصانة ، ثم ان هذا الفرع الضيق أصلح ما يكون لانشاء دار صناعة تبنى فيها السفن ، وبالفعل فى أوائل سنوات الفتح أقام العرب دار صناعة فى هذا الموضع ، وبنى المصريون فيها سفنا كان لها أعظم الاثر فى تاريخ الحوض الشرقى للبحر الابيض ، مثال ذلك أن معظم المراكب التى اشتركت فى موقعة ذات الصوارى بنيت فى دار الصناعة بالروضة

وقد أفاد أحمد بن طولون من حصانة قلعة الروضة ، وعول بالفعل على اعادة الفرع الغربى ، ولكنه لم يستطع ، وأخذت مياه النيل تطغى على القلعة شيئا فشيئا حتى قضى الاخشيد على بقاياها سنة ٣٢٣/٩٣٤ ، ونقل دار الصناعة الى شاطىء الفسطاط ، وتحولت جزيرة الروضة الى منتزه ، ثم زاد عمارها ، حتى أن المؤرخين يتحدثون فى العصر الفاطمى عن ثلاث مدنمتجاورة : الفسطاط والقاهرة والجزيرة

وفى شمال الجزيرة بنى الافضل بن بدر الجمالى قصرا لنزهته سماه الروضة ، ثم امتـد الاسم حتى أصبح يطلق على الجزيرة كلها ، ولا زال الامر على ذلك الى الآن . وقد وضع الملك الصالح يده على الجزيرة كلها ، وأنشأ فيها قلعة جديدة عرفت بقلعة الروضة أو قلعة المقياس ، ثم أخلاها من أهلها وهدم ٣٣ مسجدا وكنيسة كانت هناك ، وأنشأ مكانها أبراجا ، وجعل جزيرة الروضة حصنا عظيما له ولدولته ، واجتهد فى اعادة حفر الفرع القديم حتى جرى الماء فيه ، وعادت الروضة جزيرة كاملة كما كانت أول الامر . وفى قلعة الروضة وضع مماليكه الجدد الذين سموا بالمماليك البحرية بسبب ذلك

وعندما زالت دولة الايوبيين عمل أيبك التركمانى على تخريب القلعة ، ثم أعاد انشـاءها السلطان بيبرس البندقدارى ، أما الناصر محمد بن قلاوون وأبناؤه فقد هدموها تماما ، ونقلوا حجارتهـا لبنـاء منشآت بها فى الفسطاط ، ومن ذلك الحين لم يعد لجزيرة الروضة دور ذو قيمة فى التاريخ

ولم تكن القاهرة ، أو مصر القاهرة ، فى أول أمرها اكثر من مدينة عسكرية كالعسكروالقطائع . وقد أنشأها جوهر الصقلى قائد المعز عقب دخوله مصر ، وقد دخل الفسطاط من ناحية الجيزة فى ١٠ شعبان ٣٥٨/ ١ يوليو ٩٦٩ وضرب معسكره شمالى الفسطاط واتجه بصره الى انشاء معسكر خاص لجنده المغاربة ، وبدأ الانشاء فى ١٨ شعبان ٣٥٨/٩ يوليو ٩٦٩ وسميت أولا المنصورية ، ثم اختار لها المعز بعد وصوله اسم القاهرة فى خبر طويل يسرف المؤرخون فيه ويذكرون قصة الحبال التى مدها والطيور التى نزلت عليها فدقت الاجراس ، وقد انشئت القاهرة موضع مكان كان يسمى منية الاصبغ بين الفسطاط وعين شمس

وكانت منية الاصبغ على الخليج ، أو خليج أمير المؤمنين الذى شق على أيام عمرو بن العاص ،

(بعده)

Marfat.com

واهل الدولة وبنوا فيه ، وانتقلت الخلافة الى الجانب المذكور ، وامتدت ابنية الخلفاء وحدائقها على ضفة النهر . ويسمى جانب بغداد الشرقى الرصافة والجانب الغربى الكرخ

وكان يخرج من النيل شمالى الفسطاط ، ويمر بعين شمس ويتجه شرقا حتى يصب فى خليج السويس . وقد انطمر معظم اجزائه مع الزمن ، ولم يعد يصل فى أواخر العصر الفاطمى الا الى موضع شرقى عين شمس يسمى بركة الجب ، وقد ظل الخليج قائما حتى ردم خلال القرن التاسع عشر ، وقام مكانه شارع الخليج . كانت القاهرة تقع بين هذا الخليج وجبل المقطم ، وكانت حدودها فى الشمال باب الفتوح ، وفى الشرق باب التوفيق الذى كشف أخيرا ، وفى الجنوب باب زويلة ، وفى الغرب شاطىء النيل . وكان هناك شارع يمتد من شمال المدينة الى جنوبها ، ويحمل اسماء مختلفة ، أشهرها الى الآن شارع النحاسين

وقد أنشئت القاهرة من أول الامر لتكون مدينة ، وهى لهذا تختلف عن الفسطاط . وكانت مقسمة الى حارات أى أحياء ، وهى تقابل الخطط فى الفسطاط . وقد سميت معظم الحارات أول الامر باسم فرق الجند التى سكنتها مثل حارة الروم (وكانوا جند جوهر خاصة) ولم يسكنها الاهالى من المصريين أول الامر ، بل اتخذوا الدور خارج أسوارها ، وعندما زاد عدد الجند فيما بعد ولم توجد لهم حارات ، سكن القادمون منهم فى حى جديد خارج البلد عرف باسم حارة البلطية ، فيما بين باب زويلة والمقطم . واما السود فقد انزلوا خارج السور شمالى القاهرة عند خندق حفره جوهر تحصينا للبلد من الشمال وسمى خندق العبيد

وفى وسط البلد اقيمت قصور الخليفة ، واكبرها قصران عرف احدهما بالقصر الكبير الشرقى والثانى بالقصر الصغير الغربى وبينهما شارع عرف ، ولا زال يعرف ، باسم بين القصرين . وكانت هناك منشآت اخرى كبيرة منها دير قبطى عرف بدير العظام وقصر صغير عرف بقصر الشوك . وقد تم بناء القصر الكبير الشرقى ونزله المعز لدين الله فى ٢٣ رمضان ٣٦٢ هـ وقد وصف المقريزى فى خططه منشآت القاهرة وصفا طويلا مفصلا واجمله الدكتور عبد الرحمن زكى فى كتابه عن القاهرة

وقد مرت قاهرة العصور الوسطى فى أدوار شتى ، اهمها ثلاثة : الدور الاول دور قاهرة جوهر أو قاهرة المعز ، ولم تكن الا معسكرا صغيرا لم يلبث ان ضاق بأهله ، ثم تهدمت معظم مبانيها ومنشآتها اثناء الشدة العظمى ايام الخليفة المستنصر . وعندما تولى بدر الجمالى أمر مصر أعاد انشاء القاهرة ، فاستبدل سورها الذى كان من الطوب بسور من الحجارة ووضع عليه الابواب المعروفة : باب زويلة وباب النصر وباب الفتوح وباب التوفيق .. اما دورها الثالث ففى ولاية صلاح الدين الايوبى على مصر

وغربى القاهرة كان يمر الخليج ، كان خارج السور أول الامر ثم انشىء سور آخر جعله داخل البلد . وفيما بين الخليج وشاطىء النيل كانت تقوم ضاحية المكس ، وكانت تصل الى النيل ، وكانت اشبه بميناء نهرى تجبى عنده الضرائب على السفن الصاعدة فى النهر . وكان جامع الحاكم بأمر الله يقع خارج السور اولا ، ثم وسع بدر الجمالى السور وادخله فى البلد . وقد فتحت فى الاسوار ابواب اخرى لازالت أسماؤها باقية الى اليوم : مثل باب القراطين وباب المحروق وباب البرقية ، ولم تكن القاهرة متسعة حتى بعد توسيعات بدر الجمالى ، فلم تزد مساحتها على كيلومتر وربع مربعين

وقد أنشىء الجامع الازهر مع انشاء القاهرة الاولى ، واقيمت فيه صلاة الجمعة الاولى لاول مرة فى ٧ رمضان ٣٦١ هـ ، وكان أول الامر مركزا للدعاية الشيعية ، ولا يبدا تاريخه الحقيقى كمدرسة اسلامية كبرى الا فى أيام صلاح الدين عندما عادت السنة الى مكانها الرسمى التقليدى فى تاريخ مصر

ولم تكن القاهرة طوال العصر الفاطمى المركز الحقيقى للنشاط الاقتصادى فى مصر ، اذ ان الفسطاط ظلت تتمتع بذلك المركز ، انما تحولت القاهرة الى المركز الرئيسى للنشاط الفكرى والاقتصادى مع ابتداء دولة الايوبيين وحمل امر الفسطاط كما رأينا

وكما بدأت مصر كلها عصرا جديدا من تاريخها القومى فى ظل الايوبيين ، فكذلك دخلت القاهرة فى عصرهم فى دور النهوض ، واخذت تصبح شيئا فشيئا مركز الفكر الاسلامى كله ، فقد كان صلاح الدين الايوبى هو الذى فكر فى ادماج الفسطاط والقاهرة وبقية الضواحى المحيطة بهما فى مدينة واحدة ، ويرجع التفكير فى هذا الى سنة ١١٧٠/٥٦٦ وقد رسم الخطة وهو فى الشام يخوض حروبه مع الصليبيين ويبدو ان الفكرة نبتت فى ذهنه اثناء صراعه معهم : فقرر ان يجعل الحصن الرئيسى للبلد على جبل المقطم وان يبتنى هناك قلعة تشرف على ذلك السهل

(يعده)

Marfat.com

وبلغت بغداد معظم عمارتها فى ايام المأمون ، حتى امتدت ابنيتهاوبساتينها على بقعة قالوا ان مساحتها ٥٣ر٧٥٠ جريبا ، منها ٢٦ر٧٥٠ جريبـــا فى الجانب الشرقى ، و ٢٧ر٠٠٠ فى الجانبالغربى (١) ، والجريب ٣٦٠٠ ذراع مربع ، ونسبته الى الفدان كنسبة ١٠٠ الى ٣٣٣ ١/٣ ، فتكونمساحة بغداد كلها نحو ١٦ر٠٠٠ فدان ، وهو شىء كثير . ولـكن يظهر أنها كانت عبـارة عن مدن متلاصقة ـ قال الخطيب البغدادى فى تاريخه انها اربعون مدينة ، وانالحمامات بلغ عددها فى ايام المأمون ٦٥ر٠٠٠حمام (٢) وقد اراد صاحب سير الملوك بيان مقدار عمارة بغداد فقال : « وكان عدد الحمامات فى ذلك الوقت ببغداد ستين الفحمام ، وأقل مايكون فى كل حمامخمسة نفر : حمامى وقيم وزبال ووقاد وســقاء ، يكون ذلك ثلاثمائة الف رجل . وذكر ان يكون بازاء كل حمام خمسة مساجد يكون ذلك ثلاثمائة الف مسجد ، وتقدير ذلك ان اقل ما يكون فى كل مسجد خمسة نفر يكون ذلك الف الف وخمسمائة ألف انسان » (٣)

ولا ينطبق هذا التخريج على ما نعلمه من أحوال هذه الايام ، فلا نسلم به كما هو ، ولـكنه يدلنا على ما بلغت اليه هذه المدينة من العظمة فى عهـد

---

(١) سير الملوك ٥٥ (٢) ابن خلدون ٢٨٧ ج ١ (٣) سير الملوك ٥٥

كله . وعندما عاد بدأ الانشاء ، فانشأ الجزء الاول من قلعته (قلعة صلاح الدين الايوبى) ومد السور الشمالى حتى المقطم ، وبدأ فى نقل السور الغربى الى شاطىء النيل وامتد به حتى قصر الشمع ، ومن قصر الشمع يمتد السور الى القلعة. ولم يستطع أنيكمل هذا المشروع الضخم، وكان هو نفسه يقيم فى القاهرة لا فى القلعة ، وقد اتخذ مقامه قصرا من قصور وزراء الفاطميين . اما أخوه الملك الكامل ، فقد اقام فى القلعة وبنى لنفسه وحاشيته هناك مساكن ، ومن ذلك الحين حتى الحملة الفرنسية أصبحت القلعة مقر الحكم فى مصر ، فيها اقام سلاطين المماليك وباشوات الترك ومحمد على نفسه ، فيما عدا الصالح أيوب الذى سكن قلعة الروضة

وتاريخ القاهرة طويل لايمكن ايجازه فى هذه السطور ، ومراجعها كثيرة استوفاها الدكتور عبد الرحمن زكى فى كتابه الآنف الذكر

مراجع : بالاضافة الى خطط المقريزى والخطط التوفيقية لعلى مبارك ، انظر :

La description de l'Egypte, Etat Moderne (Texte et Atlas)

منشورات جمعية حفظ الآثار العربية ابتداء من ١٨٨١ ومنشورات دار الآثار العربية

Mémoires de la Mission archéologique Française au Caire, vol. I et III
Salmon, Etude sur la topographie du Caire, La Kal'at al-Kabsh et la Birkat al-Fil (Mémoire pp. les Membres de l'Institut Fr. d'Archéologie Orientale du Caire, Tome VII fasc. I
Butler, The Arab conquest of Egypt

الترجمة العربية قام بها الاستاذ محمد فريد ابو حديد

Lane-Poole, The City of Cairo
Franz Pasha, Kairo (Berühmte Kunst stätten, No 21)
A. R. Guest, E.T. Richmond, Misr in the fifteenth Century. J.R.A.S. 1903
M. Berchem, Corpus Inscriptionorum
Baedeker, Aegypten

الدكتور عبد الرحمن زكى : القاهرة ، عدة أجزاء

ذلك التمدن العجيب . وقد يؤيد ذلك ما رواه الطبرى فى اثنـــاء كلامه عن الفتنة التى وقعت فى بغداد سنة ٢٥٥هـ قال : « وقيل انه عبر الجسرين من العامة فى ذلك الوقت ...ر١٠٠ انسان فى الزواريق .. » (١) فاذا كان هذا عدد الذين عبروا النهر فما قولك بمن لم يعبروا ؟ فلا نبالغ اذا جعلنـــا عدد سكان بغداد فى ذلك العهد نحو مليون ونصف أو مليونين

ناهيك بما كان من العمارة حول بغداد وفى ســـائر بلاد السواد ، قال ابن حوقل وقد رآها فى أثناء القرن الرابع للهجرة : « وبين بغداد والكوفة سواد مشتبك غير متميز تخترق اليه أنهار من الفرات .. الخ » (٢) (*)

وهناك مدائن أخرى من بناء المسلمين ذات شأن كالقيروان فى بلاد المغرب، وواسط فى العراق ، وغيرهما فى مصر والشام وفارس . ناهيك بالمـدائن التى كانت عامرة قبل الاسلام ، وقد نزل فيها المسلمون وزادوا عمارتهـا ، مثل دمشق الشام ، وقرطبة ، وغرناطة ، وطليطلة، والاسكندرية . وسنأتى على شىء كثير من حضارة هذهالمدن وغيرهافيما سنذكر منحالتها الاجتماعية فى بعض الاجزاء الآتية ان شاء الله (**)

---

(١) الطبرى ١٧٣٠ ج ٣ (٢) ابن حوقل ١٦٦

(*) انظر عنبغداد المادة الوافية فىدائرة المعارف الاسلامية، وقد ترجمت فيما ظهر من أجزاء الترجمة العربية

واليعقوبى : كتاب البلدان ، طبعة دى خويه فى المكتبة الجغرافية

ابن سرابيون : صفة الجزيرة وبغداد ، نشرة ليسترينج فى مجلة الجمعية الملكية الاسيوية سنة ١٨٩٥

الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، طبعة القاهرة

بنيامين التطيلى : رحلة بنيامين ، طبعة بغداد

ابن جبير : رحلة ابن جبير ، طبعة دى خويه ص ٢١٧ وما يليها ، وطبعة حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٥

ياقوت : معجم البلدان ، مادة بغداد

مراصد الاطلاع : طبعة جوينبول ، مادة بغداد

ابن بطوطة : الرحلة ، طبعة دفريمرى وسانجينيتى جـ ٢ ص ١٠٠ ومايليها

Niebuhr, Riesebeschreibung II 293-329

J.F. Jones, Mémoir on the Province of Baghdad in Selections from the Records of the Bombay Government, 43. New Series, 304 sqq.

Rousseau, Description du Pashalik de Baghdad

M. Streck, Die ate landschaft Babylonian

G. Le Strange, Baghdad during the Abbasid Caliphate

C. Huart, Histoire de Baghdad dans les temps modernes

(**) لم نر ضرورة اضافة تفاصيل عن المدن الاخرى التى أشار اليها المؤلف مثل الانبار والهاشمية وواسط والقيروان وغيرها مما لم يشر اليه ، مثل بجانة وتطيلة ومرسية فى الاندلس ، وفاس ومراكش وتونس فى المغرب ، مما أنشأه المسلمون . لان المؤلف سيورد عنهـــا فى الاجزاء التالية تفاصيل وافية . وسنعلق نحن عليها فى هذه المواضع باذن الله

Marfat.com

فهرس

صفحة

مقدمة الطبعة الاولى ٦

ظواهر التمدن وحقيقته ١١

ثروة الدولة العباسية

عصر النبى ١٣

عصر الخلفاء الراشدين ١٤

عصر بنى أمية ٢٢

ثروة الدولة السياسية

فى العصر العباسى الاول ٣٨

جغرافية مملكة الاسلام ٤١

علاقة الاعمال السياسية بالعاصمة ٥١

جباية الدولة العباسية ٥٣

نفقات الدولة العباسية ٦٧

تقدير هذه الثروة بنقود هذه الايام سنة ١٩٠٣ ٧١

اسباب الثروة العباسية

مصادر الجباية ٧٥

سائر مصادر الجباية ٩١

اسباب قلة النفقة ٩٥

صفحة

عدد موظفى الحكومة المصرية سنة ١٩٠٢ ٩٧

ديون أشهر دول العالم ٩٩

ثروة الدولة العباسية

فى عهد الاضمحلال ١٠٤

نسبة هذه الجباية ١١٦

أسباب اضمحلال الثروة العباسية

فى العصر العباسى الثانى ١١٩

الضياع السلطانية ١٢٨

اسباب كثرة النفقات ١٢٩

هل كان الخلفاء يسرفون من اموالهم الخاصة ؟ ١٣٤

رواتب العمال ١٣٨

رواتب الكتاب ١٣٩

رواتب الوزراء ١٤٠

رواتب القضاة ١٤١

رواتب العائلة المالكة فى انجلترا (١٩٠٢) ١٤٣

رواتب العائلة الخديوية سنة (١٩٠٢) ١٤٣

	صفحة		صفحة
رواتب حاشية الخليفة	١٤٤	الخلاصة	١٦٨
رواتب الجند	١٤٦		
الافشين وبابك	١٤٦	**ثروة المملكة العباسية**	
رواتب الجند (١٩٠٣)	١٥٠	البلاد واهلها	١٧١
عدد ايام الشهور	١٥٢	المدن الاسلامية	١٧٥
النفقة على البيعة	١٥٣	البصرة	١٧٦
استئثار رجال الدولة		الكوفة	١٧٨
بالاموال لأنفسهم	١٥٥	الفسطاط	١٧٩
المصادرة	١٦١	بغداد	١٨٢
مصادرة الوزراء وغيرهم	١٦٥	القاهرة	١٨٤

Marfat.com

Marfat.com